محمد عمر رفيع

في ربوع عسير

ذكريات وتاريخ

وصف شامل لما فى بلاد عسير وتهامة
من المدن والقرى والجبال الشاهقة وما فيها
من مناظر خلابة فاتنة وحياة أهلها الاجتماعية
وعاداتهم وتاريخها الاقتصادى والسياسى .

١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

دار العهد الجديد للطباعة
بالقاهرة

DATE DUE



Rafi', Muhammad Umar

محمد عمر رفيع

في ربوع

عسير

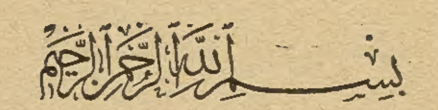
ذكريات وتاريخ

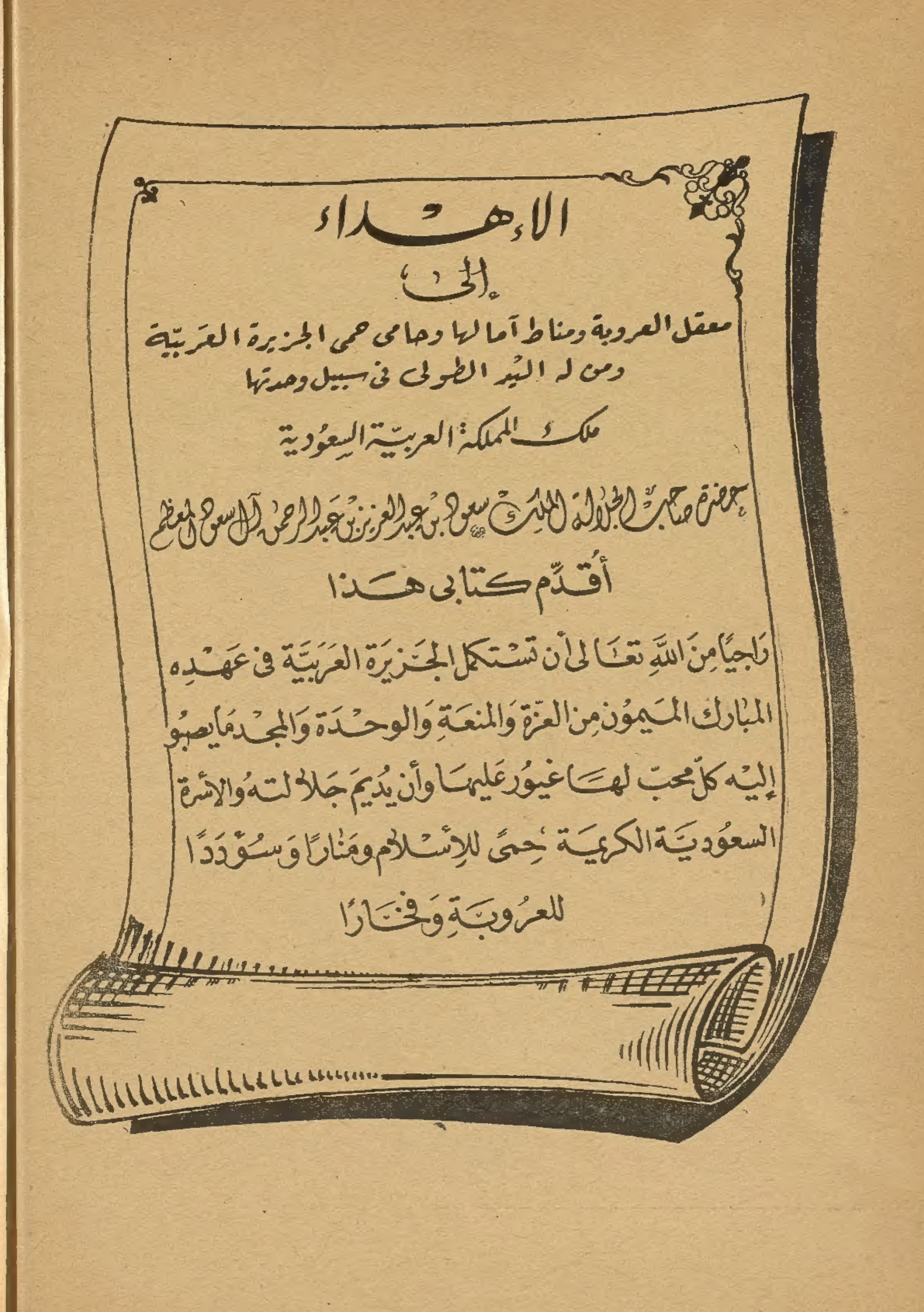
/Fi rubu' 'Asyr/

وصف شامل لما فى بلاد عسير وتهامة من المدن والقرى والجبال الشاهقة وما فيها من مناظر خلابة فاتنة وحياة أهلها الاجتماعية وعاداتهم وتاريخها الاقتصادى والسياسى .

١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

دار العهد الجديد للطباعة
بالقاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلى

معقل العروبة ومناط آمالها وحامى حمى الجزيرة العربية
ومن له اليد الطولى فى سبيل وحدتها

ملك المملكة العربية السعودية

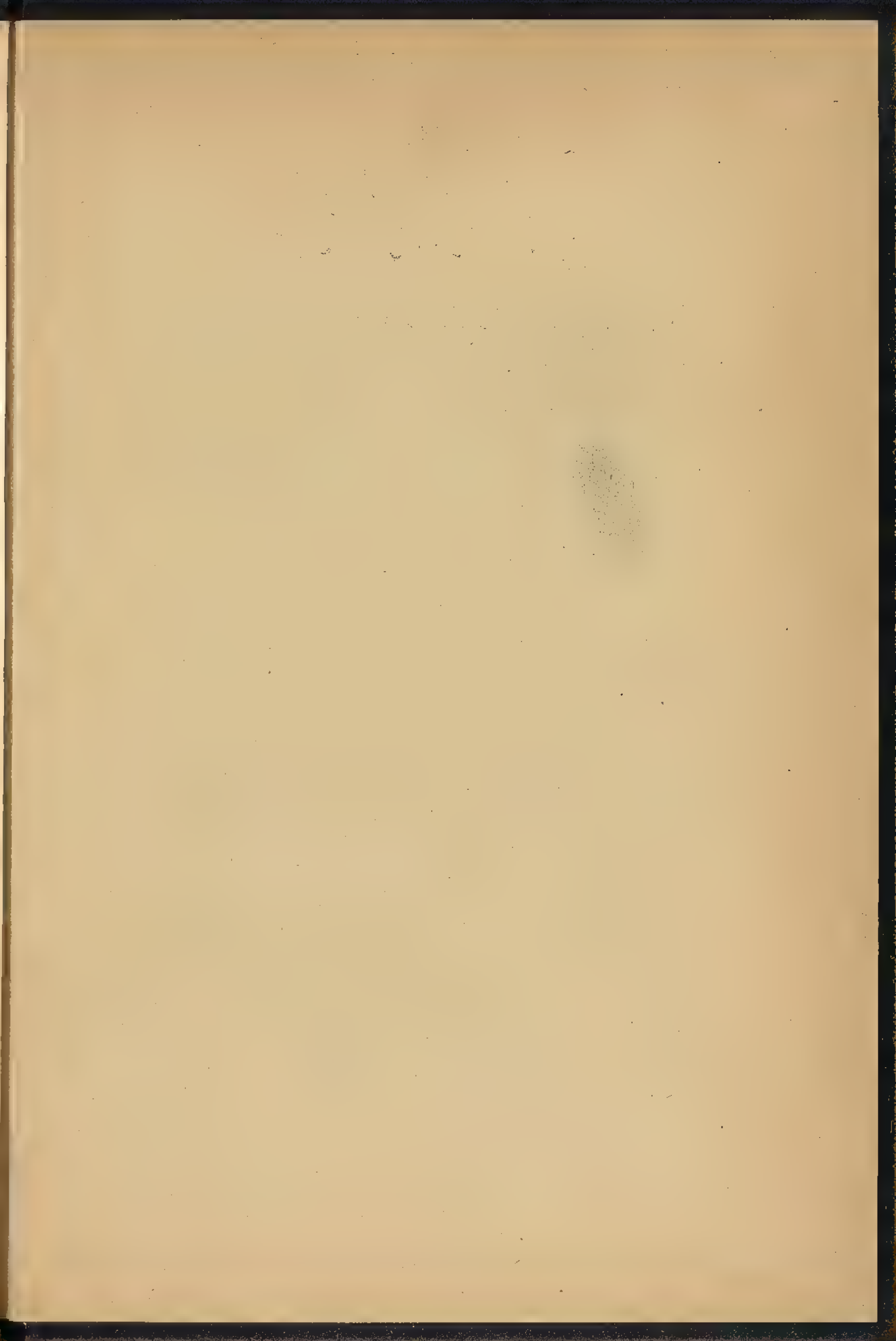
حضرة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود المعظم

أقدم كتابى هذا

راجياً من الله تعالى أن تستكمل الجزيرة العربية فى عهده
المبارك الميمون من العزة والمنعة والوحدة والمجد ما يصبو
إليه كل محب لها غيور عليها وأن يديم جلالته والأسرة
السعودية الكريمة حمىً للإسلام ومناراً وسؤدداً
للعروبة وفخاراً

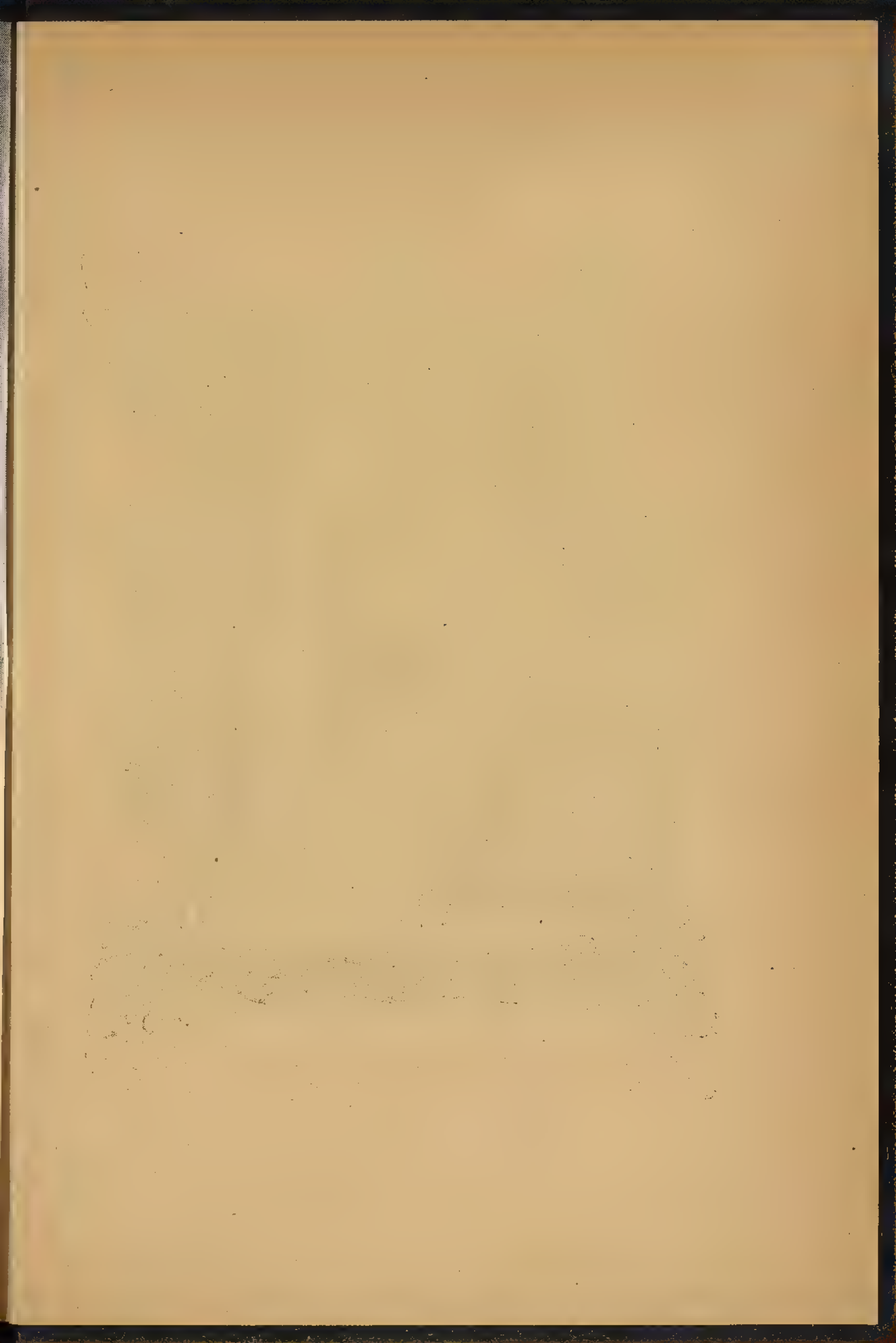


حضرة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود المعظم





حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود ولي العهد المعظم



عسير

ديار إذا شمّت من الغيث نفحة
تضوّع منها طيب النبت العطر





بسم الله الرحمن الرحيم

لم يجل فى خاطرى عند ما كنت أسجل ما يقع عليه بصرى أو يعيه سمعى فى تجوالى ببلاد عسير وما إليها، إلا أن يكون رسالة خاصة وإنتاجاً للاستهلاك فيما بينى وبين صديق السيد محمد شطا الذى رغب فى أن أحدثه عما أسمع وأرى فى رحلتى هذه ، ولكن بعد ان انتقلت موظفا بدار البعثات العلمية السعودية بمصر ساقت الصدف بعض الأصدقاء إلى الاطلاع على ما كتبت من ذلك فرغب إلى فى إلحاح وتشجيع أن أطبعه وأنشره معتقداً أن فيه شيئا مما لعله يروق القارىء ، ويفيد أبناء الوطن ومن له عناية بمثل هذه الشؤون . فان بلاد عسير وما جاورها تكاد تكون مجهلا من مجاهل الجزيرة العربية قل من يعرف أخبارها وأحوال أهلها حتى من أبناء الجزيرة أنفسهم . فاستجبت لما طلب . وما ان بدأت فى تهيئته واعداده للطبع ، حتى ظهر كتاب « فى بلاد عسير » للمرحوم الأستاذ فؤاد حمزة ، فكدت أصرف العزم عما استجبت إليه ، وقلت فى نفسى : أى أثر سيكون للذبالة بعد أن أشرقت الشمس ، وأنى يدرك الضالع شأو الضليع ، لا سيما بعد أن قرأت مقدمة الكتاب ووعيت ما ذكره فيها من وسائل وأسباب تهيأت له لم تكن تتهيأ لغيره ، أو تتسنى فى ظروف غير ظروفه كما قال ! !

غير أنى بعد أن تصفحت جملة ما كتب ، تراءى لى أن فيما سجلت وهيأت فوائد ومعلومات مكننى منها طول مكثى بعسير واختلاطى بأهله وتجوالى فى منازلهم مما لم يتسع له وقت المشار اليه لما كان مضطلعا من مهمة سياسية خطيرة وقد اتاحت لى مشاركتى لهم فى عاداتهم وتقاليدهم ومشاهدتها أن أصور حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم القبلية تصويراً يكاد يدنيها من القارىء حتى

لكأنه يشهدها ، فآثرت المضى فيما اعتزمت من طبعه ونشره لاسيما وقد عثرت فى أثناء مطالعاتى لبعض المؤلفات والرسائل التى تعرضت لذكر عسير وحوادثها وأخبار أهلها على بعض أخطاء وأوهام رغبت فى تصحيحها على الوجه الذى تبين لى أنه الصواب مما سيطلع عليه القارىء الكريم فى محله من هذا الكتاب .

فإن صح ما رآه بعض الأصدقاء وكان حقاً ماتراءى لى فهو الغاية والهدف فيما فعلت .

وقد رأيت استكمالا للغاية التى توخاها بعض الأصدقاء أن ألحق بفصول هذه الرحلة « تاريخ عسير السياسى فى غضون خمسين ومائة سنة » فاننى لم أصادف فيما وصل إليه علمى كتاباً مستقلا فى تاريخ عسير وكل ما اطلعت عليه نبذ فى غاية الاختصار لا تعطى فكرة واضحة عما جرى من الأحداث فى تلك الجهات ، وشجعنى على ذلك أوراق عثرت عليها عند بعض الأفاضل من العائلة الحفظية من سكان قرية رجال سجل فيها كاتبها بعض حوادث عسير ، وكيفية نشوء الأمارة فيهم ، وماجرى من أحداث وتحولات من أوائل القرن الثالث عشر الهجرى حتى نهايته ، وما كنت استمع إليه فى أثناء السمر والاجتماع بمن تعرفت بهم من أهالى تلك الجهات ممن شهدوا حوادثها الأخيرة وغمرتهم وقائعها من قصص وأخبار ، وتوخياً للحقيقة وتوفية للبحث رجعت إلى جملة من المؤلفات والرسائل التى تعرضت للكتابة عن حوادث عسير وأحوالها وتيسر لى الوقوف عليها ، مما سيراه القارىء الكريم موضحاً فى موضعه من هذا الكتاب ، ومع ذلك فرجائى إلى من لديه يقين يخالف ما قصصت أن يصححه مشكوراً . والله من وراء القصد ، وهو ولى التوفيق .

محمد عمر بن رفيع

القسم الأول

الرحمة

على طريقة اهالى عسير

من العادات المتبعة بين رجال عسير والتى كان من نتائجها انتشار حوادثهم وأخبارهم بينهم انتشاراً عاماً . أن الواحد منهم إذا ما لقى الآخر فى طريقه استوقفه ثم قص عليه باعث خروجه من موطنه ، إن كان مما لا يحرص على كتمانه ، وساق له الحديث عما لاقى فى طريقه ، وعمن استضافه ، وما هو نوع الطعام الذى قدم له ، وماشهده وغير ذلك مما يعنيهم كحال المطر والزرع ، وما شاكلهما .

ولهم فى بداية الحديث عبارة تقليدية يقولها المتحدث ثم يبتدىء فيقص قصته كما ذكرت .

وها أنا ذا أبتدىء حديثى عن عسير وما إليها بما يبتدىء به رجال عسير فأقول :

[أمَّا إنحـن[1] يامحفوظ فنبشرك مادَوَلة[2] فى بلادنا مستورين . . . .

وهذه علومنا وأخبارنا وزايدها عفاك[3]]

والسلام عليك أيها القارىء ورحمة الله وبركاته

---

(١) نحن (٢) لاخلاف او لا بأس علينا (٣) عافيتك .

دوافع وبواعث

منذ أكثر من ثلاثين سنة وأنا لا أزال يافعاً بعد: كان أول ما قرع سمعي عن بلاد عسير، حوادث انتقاضها على حكومة الترك، واتفاق آل عايض أعيان أهل السراة مع السيد محمد الأدريسي المتغلب على منطقة الساحل وتهامة عسير ومحاصرتهم جميعا للوالي التركي سليمان شفيق كمالي المقيم في أبها، حوالي تسعة أشهر، وصدور الأوامر السلطانية من استانبول إلى أمير مكة إذ ذاك الشريف الحسين بن علي بالتجهز والسير لشد أزر المحاصرين ومعاونتهم في فك الحصار عن أبها وقمع الفتنة. وقد كان يعرض في تلافيف الأخبار وحواشيها، عن هذه الحوادث، كثير من الأقوال الخلابة عن خصوبة تلك الجهات، وجمال منظرها الطبيعي، وما عليه أهلها من سذاجة الفطرة، ومحاسن الخلق، مما ملأ حافظتي بأجمل الصور عنها، وعلقت نفسي بمشاهدتها والسياحة فيها، ولكن مع الأسف فقد عقب ذلك أن انفجرت براكين الشر في العالم الانساني ودخلت الحكومة التركية العثمانية في حرب مع دول البلقان وتلاها نشوب الحرب العالمية الأولى[1] وابتلى الناس من أثرها بشتى المصائب والمحن ودار دولاب الزمان بالكثير من «المقالب» فانهارت دول ونشأت حكومات وكان من مقتضى هذه الأحداث ان اضطرب حبل الأمن وتوالت الفتن والقلاقل في الحجاز وبلاد عسير، فخمد ما في النفس وتغيرت معه أوضاع حياتي الخاصة بما ألهاني عن هذه الرغبة وصرفني عنها.

ولما أن استتب الأمر للحكومة السعودية وعم الأمن والاستقرار كل ما شمله نفوذها من الأقاليم عاد ارتياد أهل الحجاز لجهات عسير وتحدثهم عنها مما كان يحرك ما خمد من شوق يدفعني إلى زيارتها والسياحة فيها.

---

(١) الحرب العالمية هي التي نشبت بين الألمان وحلفائهم وبين الانكليز وحلفائهم عام ١٣٣٢ هـ الموافق عام ١٩١٤ م وانتهت بهزيمة الألمان وحلفائهم عام ١٩١٨ م الموافق عام ١٣٣٦ هـ

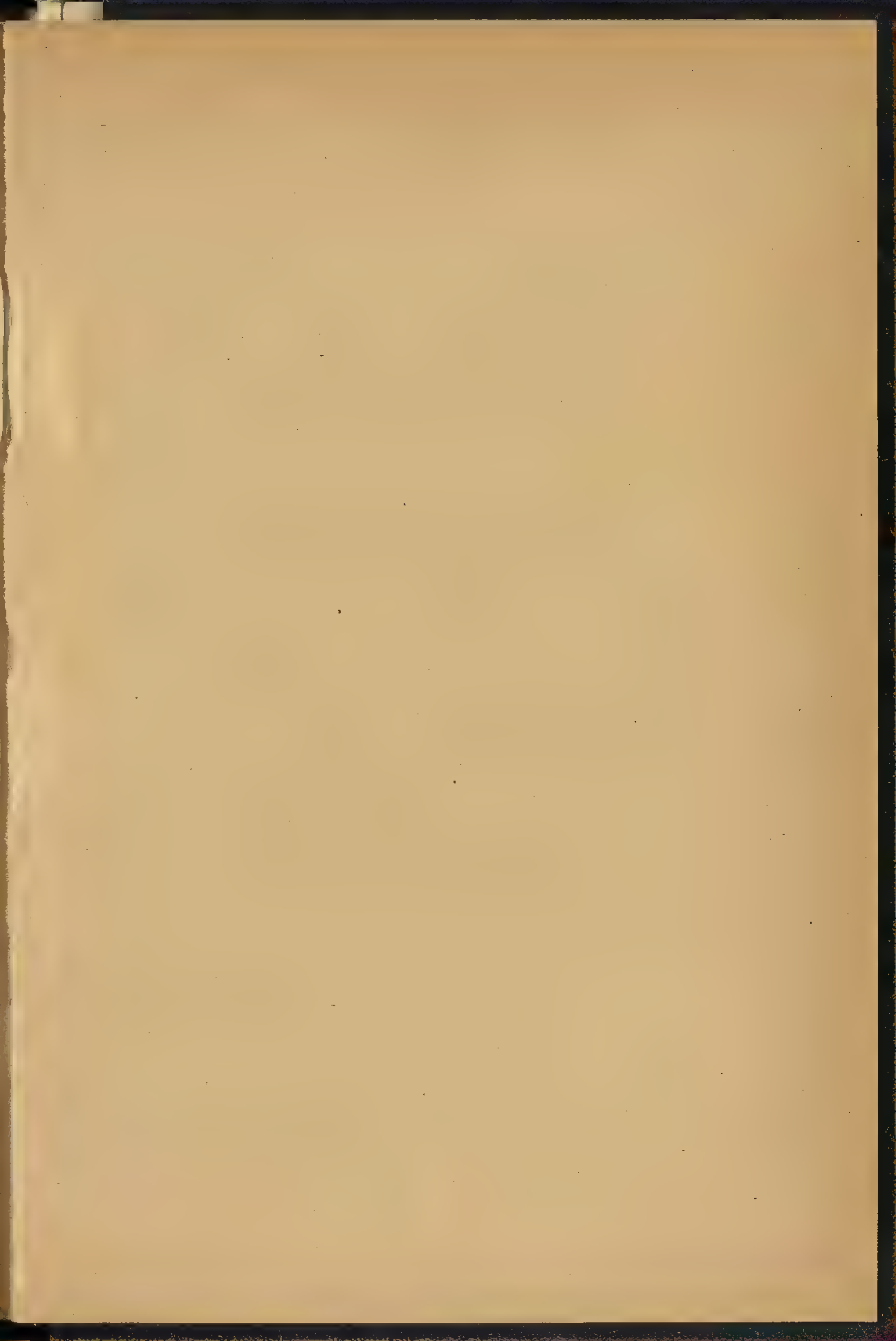
ففى فجر سنة ١٣٤٨ أثر رحـــلة إلى أرض الهند وشبه جزيرة الملايا قضيت فيها حوالى سبعة أشهر عدت بعدها إلى مكة ، رغب إلىّ بعض من أعرف من الصحاب أن أرافقه فى سفره إلى بعض جبال الحجاز الأدنى للطائف وسرعان ما وافقته وأبرمنا الأمر وابتدأنا الرحلة من الطائف إلى منازل بنى سعد فوادى ميسان من منازل قبيلة ناصرة ، آملا أن يستمر بنا السير فى جبال السراة وأن أستطيع استدراج صاحبى إلى أن نصل إلى جبل عسير ومنه ننحدر إلى تهامة ثم نعود إلى مكة عن طريق الساحل . غير أن هذا الأمل لم يقترن بالتوفيق فرأيت الاكتفاء برغبة رفيق وقضينا فى التجوال نحو شهر ثم عدنا أدراجنا إلى الطائف .

بعد ذلك طوحت بى دواع خاصة إلى التردد على استانبول تهيأ لى به التجوال فى ممالك الشرق الأدنى مصر وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق والأناضول . وفى عام ١٣٥٩ على أثر عودتى من مصر إلى مكة عن طريق فلسطين فشرق الأردن فالعراق فالكويت فنجد ، بسبب إعلان إيطاليا الحرب ضد الانجليز وتعكر صفاء المواصلات فى البحر الأحمر ، فى جلسة من الجلسات التى كنا نقضى بها فراغ الوقت مع الأخ الصديق السيد محمد شطا المفتش الأول بمديرية المعارف العامة ، جرى ذكر اعتزام المديرية المشار إليها إنشاء أربع مدارس فى مقاطعة عسير غير مدرسة أبها ، وصدور الأوامر العليا بالاسراع فى تنفيذ ما اعتزمته المديرية فتحرك منى ماسكن من الشوق إلى زيارة عسير وسبق لسانى بذكر ما فى النفس من الرغبة فى مشاهدة تلك الجهات فما كان من الصديق — رعاه الله وأبقاه — الا أن أشار على بأن أطلب الخدمة فى إحدى المدارس المذكورة ، مردفاً ذلك ببيان فياض وزخرف من المحسنات والمرجحات فقد سبق أن زار تلك الجهة فى جولة تفتيشية على مدرسة أبها وجيزان .

انصرفت من ذلك المجلس ونار الشوق فى نفسى تلتهب والفكرة تعتلج فى مخيلتى جزرا ومداً ، فالطرق فى عسير عسيرة ، والحياة فيها حياة انزواء وانقطاع



الصديق الكريم السيد محمد شطا



لانحرافها عن خط الحضارة فى العالم، وقد تخطيت الشباب وطعنت فى الكهولة فلم يعد فى الطوق احتمال المشاق والمتاعب، ولم تسبق لى ممارسة مهنة التعليم، ولا أملك أية وثيقة تدل على مؤهلاتى، بل لم أدرس أى علم من العلوم دراسة منهجية، وكل ما لدى من بضاعة لم يكن إلا تلقفاً من مجالسة أهل العلم والمعرفة، ودراسة شخصية فيما تصل إليه يدى من كتاب بالاطلاع والتبصر. ومثل هذا لا يؤهلنى لأن أقحم نفسى بين رجال التعليم، ولا أن أجرؤ فأطلب ذلك رسمياً من مديرية المعارف، لكن داء الشوق إلى مشاهدة تلك الربوع قديم مزمن، ومغريات صديقى ودعايته كانت ساحرة فاتنة، والحرب القائمة[1] متوقع طولها واستمرارها إلى أمد غير قصير، وحياة مثلى فى أثنائها بمكة حياة ركود لا فرق بين أمسها وغدها، ولا تخرج عن «أكل وشرب ونوم. وأكل وشرب ونوم» فالسبل إلى خارج البلاد تكاد تكون مقطوعة، والتقلب للكسب والاتجار أمسى عزيزاً على من كان فى مثل حالى رقة. ولحظ الصديق العزيز ذلك منى وآنس تهيبى الإقدام على طلب ما أشار به. وبدون سابق إنذار قدم باسمى طلباً إلى مديرية المعارف فى وظيفة مدير مدرسة رجال ألمع. قدم الطلب وهو المفتش الأول للمعارف والعضو العامل فى هيئة إدارتها والمديرية متطلعة إلى من يسد الفراغ لإنهاء تشكيل هذه المدارس وإبرازها لحيز العمل والوجود، فقد طال الإعلان عنها ولم يتقدم أحد بالطلب لأن الحياة فى تلك الجهات خشنة قل من يقدم على احتمالها من أرباب المؤهلات ومن لا يعدمون عملا فى العواصم والحواضر الزاخرة بمطالب الحياة على اختلاف أنواعها. فحصول الموافقة على قبول طلبى والحال ما ذكرت سيكون أيسر من عرش بلقيس على من عنده علم من الكتاب.

---

(١) هى الحرب العالمية الثانية التى نشبت بين الألمان وحلفائهم وبين الانكليز وحلفائهم عام ١٣٥٨ هـ الموافق عام ١٩٣٩ وانتهت بهزيمة الألمان وحلفائهم هزيمة منكرة عام ١٩٤٥ م الموافق عام ١٣٦٤ هـ.

تقدمت مديرية المعارف بموافقتها على تعييني إلى المقامات العالية حسب (الروتين) الحكومي المتبع فأقرته ، وأصبحت في أمر واقع تهيأت لي معه أمنية لم تكن لتتهيأ لولا سعي هذا الفاضل ويده وعونه .

وما هذا بأول إحسان نالني منه فله عندي من سوابق المعروف والبر ما لا عيب فيه سوى توكيد عجزي عن استطاعة مكافأته عليه .

وواحسرتاه كأن الأقدار لم تشأ أن تمنحني هذه الأمنية في هناءة وصفاء فأي متعة ستكون في هذه الرحلة بعد تخطي زمن الشباب وضعف القوة والاحتمال ، في بلاد لا وسائل للتنقل فيها إلا البعير والحمار .

وكيف تصفو النفس للاستمتاع وهي ملتاعة لمفارقة هذا الأخ الكريم والصديق الحميم ، ورحم الله أبا العلاء المعري إذ يقول :

كلفنا بالعراق ونحن شرخ ... فلم نلمم به إلا كهولا
وشارفنا فراق أبي علي ... فكان أعز داهية نزولا

الاستعداد للرحلة

حصحص الأمر وحزب . وأخذت مديرية المعارف تستحثني للسفر . ولي صديق فاضل هو الأستاذ عيسى فهيم . رأيت من سداد الرأي أن أستميله لمرافقتي ، ومازلت أغزل في صوفه وأحوك حتى وافق على المصاحبة . وتقدم فطلب وظيفة أستاذ مدرس بالمدرسة ، وكان أهلا لذلك فأجيب طلبه ، كما أني استملت بعض من آلف وأعزف ، وهو الأخ محمد الحربي بأن يطلب وظيفة مراسل المدرسة ففعل وقبل .

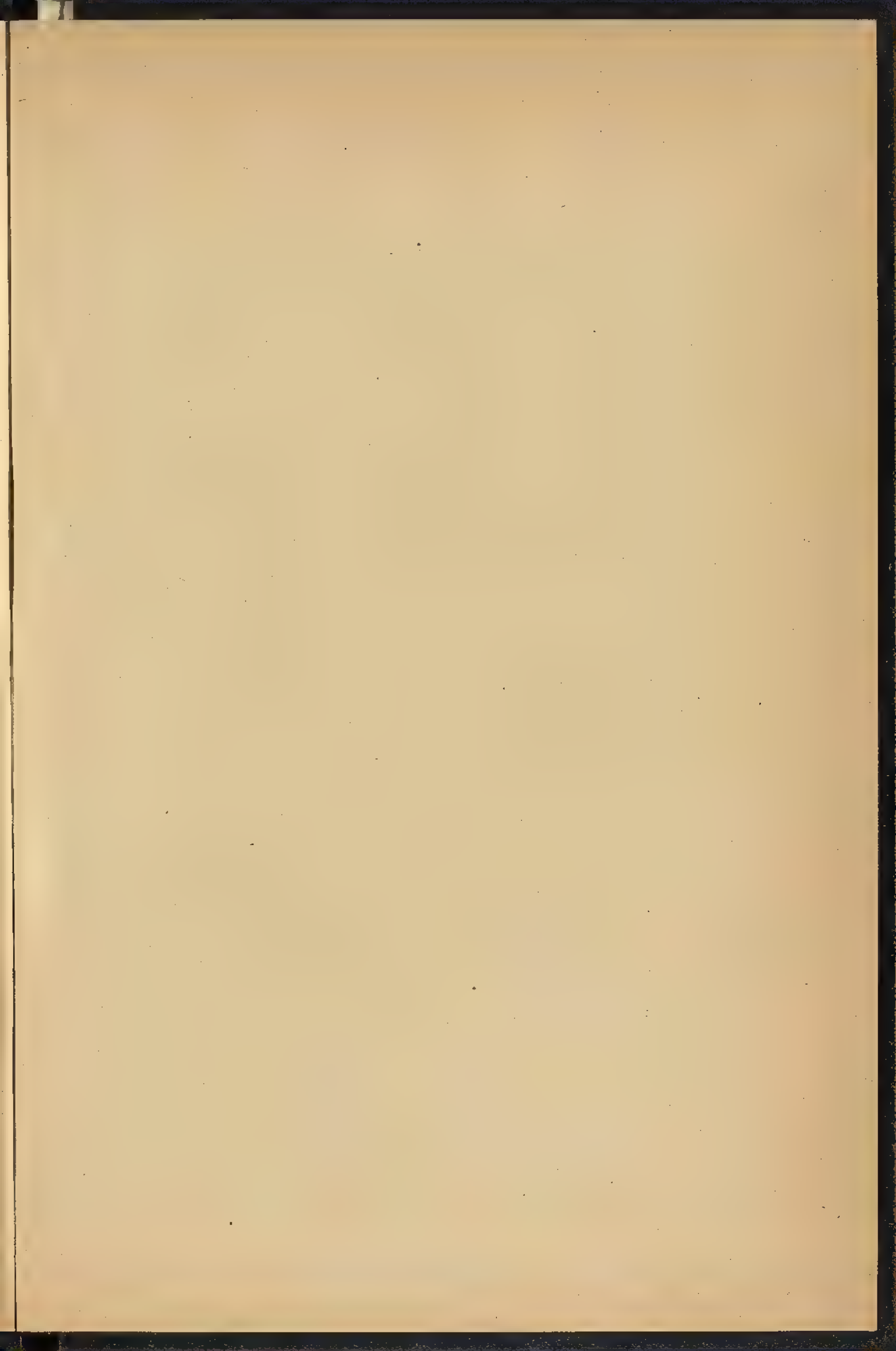
وبهذا الذي صنعت خفت عني آلام الوحدة المتوقعة بالبعد عن كل من آنس به من الرفاق والأصحاب إلى بلد سوف تكون الرسائل فيما بيني وبينهم غدوها شهر ورواحها شهر [١] .

---

(١) كان البريد بين مكة وأبها إلى ما بعد وصولنا عسير بستة شهور ويسير على الجمال =



الصديق العزيز الأستاذ عيسى فهيم



كان المقرر أن نبارح مكة فى يوم الخميس ٦ من ذى القعدة سنة ١٣٥٩ عن طريق الساحل فى سيارة خاصة أعدت لنقل موظفى بعض المدارس الأخرى فى تلك المنطقة، ولكن ذلك لم يكن مقدوراً، فقد عرض ما رجحت به العدول عن السفر فيها بعد أن حزمنا أمتعتنا وطاف من طاف بالبيت مودعاً ووقفنا بجوار السيارة للركوب.

ولا أطيل بذكر تفاصيل هذه «العنقلة» كما يقولون فقد حصل عقباها، ما حمدنا معه الواقع وتيسر لنا الركوب فى سيارة أخرى هيأتها وزارة المالية لنقل بعض موظفى الصحة فى تلك الجهات توصلنا إلى أبها عن طريق وادى بيشه وهو طريق أقل خطورة ومتاعب من طريق الساحل. وتهيأت الأسباب. فلنسافر.

وفى يوم الاثنين العاشر من ذى القعدة سنة ١٣٥٩ بعد أن صلينا الظهر وأعدنا طواف الوداع بالبيت العتيق، ركبنا السيارة وبعد حوالى نصف الساعة وصلنا الشرائع فتناولنا فى إحدى مقاهيها الشاى، ثم استأنفنا المسير مارين بالزيماء فالسيل وفى حوالى الساعة الواحدة مساء وصلنا الطائف[1].

= إلا أنه تقرر بعد ذلك أن تسير سيارة بريد كل خمسة عشر يوماً مرة وقد أمسى الآن فى كل أسبوع مرة.

(١) الطائف من مدن الحجاز الشهيرة ومعظم سكانه من ثقيف فى العصر الجاهلى والإسلامى حتى عصرنا الحاضر إلا أنه فى العصور المتأخرة كثر فى سكان الحاضرة منه خاصة بعض الطوائف غير العربية من المسلمين وبالأخص السليمانية والسنود وتأصلوا فيه واندمجوا فى أهله. وهو جيد المناخ والفواكه. يرتفع عن سطح البحر بألف وستمائة مترا فيما أعلم. وكان فى القديم ولا يزال حتى اليوم مصيفاً لأهل مكة وينسب لمعاوية قوله: أغبط الناس عيشاً عبدى أو قال مولاى سعد، وكان على أمواله فى الحجاز ويتربع فى جدة ويتقيظ فى الطائف ويشتو بمكة ولذلك وصف محمد بن عبد الله النميرى زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية فقال:

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وجاء فى ياقوت ص١٠ ج ٦، الطائف بعد الألف همزة فى صورة الياء. ثم فاء

فى الطائف

كانت الليلة شاتية شديدة البرد فقررنا المبيت بالطائف ومغادرتها صباحا

= وهو فى الاقليم الثانى وعرضها ٢١ درجة وأنها سميت طائفاً بحائطها المبنى حولها المحدق بها ، ثم ذكر كلاماً كثيراً من أغربه قوله : وهى مع هذا الاسم الفخم بليدة صغيرة على طرف واد وهى محلتان أحدهما على هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف ، والأخرى على هذا الجانب يقال لها الوهط والوادى بين ذلك تجرى فيه مياه المدابغ التى يدبغ فيها الأديم يصرع الطير رائحتها إذا مرت بها وبيوتها لاطئة حرجة وفى أكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل . فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثيله فى بلد من البلدان وأما زبيبها فيضرب المثل بحسنه .

أما كروم الطائف وأعنابه فعلى ما قال ياقوت إلى اليوم ليس لها مثيل فى بلد من البلدان وبالأخص عنب وادى القيم أحد ضواحى الطائف وتوابعه ، لكن المستغرب ما وصف به الطائف بأنه بليدة صغيرة وأنها محلتان يقال لأحدهما الوهط والأخرى طائف ثقيف لأن الوضع الطبيعى المشاهد للنطقة يبعد تصور حصول ما ذكر فان الوهط المعروف الآن قرية فى أعلى منحدر وادى وج ذات بساتين ومزارع تسقى من عين خاصة بها تبعد عن الطائف من الجهة الغربية بحوالى ساعة على الدابة ويفصلها عنه وادى المثناة بمزارعه ومساكنه وبساتينه وما بعده من حزون وجبال على أن قبائل هذه الجهة تطلق اسم الطائف على الناحية جميعها ، أما المدينة فيقولون عنها السوق ، والطائف الآن يقوم على نهد من الأرض فسيح الرقعة واقع شمالى وغرب مسيل السيل من وادى وج المنحدر من جبال الشفا . وما فيها من شعاب وأودية يقال أنها حوالى ستة وثلاثين وادياً كلها تصب مياهها فى وادى وج ، وهو معمور بالدور الفخمة والمساكن الجميلة وله الضواحى البهيجة ـ بما فيها من البساتين والأشجار الثمرية ـ كالسَّلامة والمثناة وحَوَايه وشبرا وتجْبرَه والحَوِيَّة وغيرها وقد كانت المدينة إلى عهد قريب مسورة فأزيل عنها السور واتصلت بها معظم الضواحى المذكورة وعمرانه فى ازدياد ، إلا أنه فى العهود القريبة بسبب قلة الأمطار شحت المياه فيه كثيرا والحكومة جادة فى تلافى ذلك بالعزم على إقامة بعض السدود وأعمار البعض الآخر الذى لحقه الخراب بطول الزمن فاذا تم ذلك وتم ما تعتزمه أيضاً من تعبيد الطريق إليه من مكة فسيكون للطائف مستقبل زاهر ويصبح من أجمل مدن الحجاز لطيب هوائه وجودة ثماره ومناخه ، ولعل ذلك يكون قريباً .

وذهب رفيقنا الدكتور عبد العليم الأتاسى طبيب أبها وزميله مأمور الصحة المتجول ليمضيا الليلة بإدارة صحة الطائف ، وأنفت أن أستضيف بعض من أعرف من أهالى الطائف وهى خلو من النزل والفنادق كسائر مدن الحجاز حينئذ ، فاتفقت ورفقائى أن نأوى إلى إحدى مقاهيها ونمضى بها الليلة كيفما اتفق ، واختار لنا سائق السيارة قهوة «بن صادق» وما كدنا نأخذ مضاجعنا فيها حتى انهالت علينا جيوش من البق تنسل من كل حـــدب وصوب تنازعنا الراحة لتعيش بدمائنا .

أمضيناها ليلة نابغية لم تذق أجفاننا فيها لذة الغمض ولم تفتر أيدينا من الهرش حتى الصباح ، ولما تشقق نور الفجر تبادرنا إلى تهيئة طعام للإفطار ، ووافانا الدكتور ، وبعد أن تناولنا ما تيسر مما أحضرناه من طعام حزمنا أمتعتنا وما كنا أخرجناه من السيارة لنرتفق به وتابعنا المسير فلما أن خرجنا من باب شبرا أحد أبواب سور الطائف وقف السائق لإشراف مأمور الشرطة على أوراقه حسب المعتاد ، فانتهز المأمور الصحى هذه الفرصة وانسل من السيارة إلى حيث لا نعلم .

ظللنا منتظرين رجوعه زهاء الساعة . فكانت وقفة ممضة ثقيلة لم يزدها فى الثقل إلا سحنته الباردة أثناء رجوعه واعتذاره لنا بأنه ذهب إلى السوق ليشترى بعض أنواع الخضار ليقدمه هدية لأمير تربة حيث يقصد الاقامة .

سرنا بعد رجوعه وكانت الشمس قد ارتفعت وتجاوز الوقت الساعة الرابعة وكان اتجاهنا فى المسير شرقا فى طريق كثير الالتواء والصخور الناتئة حتى حاذينا أسفل وادى « لِيَّه »[1] فانشعب علينا الطريق خطين وخشى السائق

(١) وادى لِيَّهْ على مقربة من الطائف فيه عدة بساتين على الآبار يزرع فيها الرمان بكثرة ورمانه على ما أعلم من أجود رمان الحجاز بل أجود رمان العالم لا يقاربه فى الجودة إلا رمان الجبل الأخضر بعمان من بلاد العرب ورمان باقليم سجستان =

الضلال إذ لم يسبق له ارتياد هذه الجهة ، فتوقف عن السير ولكن تبين أنهما يتصلان أسفل الوادى فسرنا ، ولاحظت أن سيرنا دائماً فى هبوط حتى وصلنا (تُرَبَة)[1] حوالى الساعة العاشرة بعد العصر ونزلنا ضيوفاً على أميرها «رشيد الحمود العبيلان» ، وهو ربعة نحيف الجسم بشوش الوجه .

فى تُرَبَة

بعد أن تعشينا على مائدة الأمير جلسنا للسمر وجاء بعض من يرتاده مع الأمير من سكان تربة وقضينا فيه وقتاً غير طويل ، ثم قمنا ونام البعض منا فى مجلس الأمارة والبعض فى السيارة واخترت أنا غرفة المأمور الصحى التى هيأها متاماً له لأن غايته فى السفر معنا كانت إلى تربة فقط .

وتُرَبَة واقعة على ربوة تعلو بساتين النخيل المصطفة أمامها من الشرق على حافة الوادى .

ويقدر النخيل الممتد على وادى تربة كما ذكر لنا أميرها بحوالى خمسين ألف نخلة[2] وشرب أهل تربة من آبار عذبة المياه واعتمادهم فى سقيا النخيل عليها وعلى ما يسيل به الوادى فى موسم المطر .

= من أرض فارس ، وهو معروف بهذا الاسم من العهد الجاهلى قال غيلان بن سهم :

جلبنا الخيل من اكناف وج ولية نحوكم بالدارعينا

ياقوت ص ٢٤٨ ج ٧ .

(١) جاء فى معجم ياقوت ج ٢ ص ٣٧٤ قال أحمد بن محمد الهمدانى : تربة ورنيه وبيشه هذه ثلاثة أودية ضخام مسيرة كل واحد منها عشرون يوماً أسفلها فى نجد واعلاها فى السراه ، ويقول صاحب «كتاب فى بلاد عسير» : أن طول وادى تربة نحو ١٢٠ كيلو متراً وهى مسافة لا تتفق وما ذكره ياقوت .

(٢) يقول صاحب كتاب الرحلة اليمانية ص ٧٤ وص ١٢٠ أن النخيل الذى على وادى تربة وفى قراه أكثر من مائتى ألف نخلة ، وأن فى بساتينها - من غير النخيل - يزرع الموز والليمون والنارنج والعنب وبعض الفواكه الأخرى ويزرع فيها البر والذرة والشعير ، وكافة أنواع الخضر ، ومنظر هذا الوادى من أحسن =

ولتربة سوق دائمة وافية برغائب أهلها وما يحتاجه سكان البادية التى حولها والسوق عبارة عن بضع عشر دكاكين تحيط برحبة فسيحة يعرض فيها ما يباع بالمزايدة من مواش وغيرها من العروض الأخرى(١) .

وفى جانب من السوق مدخل خاص يجلس فيه باعة اللحوم وطريقتهم فى بيعها هو أن يقطع الخروف أو التيس أجزاء أقلها نصف الثمن .



« منظر لبعض بيوت تربة »

وأخال أن مناخ تربة أقرب إلى شدة الحرارة فى الصيف فالليلة التى بتناها بها كانت دافئة لم نحتج فيها إلى سميك الدثار رغم أننا فى أوائل الشتاء .

وبيوتها من اللبن لا يعدو معظمها الطابقين ولا مراحيض بها بتاتاً .

وهى متقاربة البناء وأزقتها ضيقة كثيرة الالتواء والتعاريج .

= المناظر وبه كثير من شجر الأثل وغيره وأن بالوادى نهراً جاريا دائماً كبيراً جداً « أظنه يعنى عين ماء » والنخلة فى هذا الوادى تزن ثمرتها ثمانية قناطير على الأقل .

(١) ذكر لنا الأمير أثناء الحديث معه أن فى تربة بضعة من التجار من غير أهلها أثروا ثراء فاحشاً وتملكوا الكثير من نخيلها فانهم يتحينون حاجة أرباب النخيل والزراع فيبيعونهم أشياء من العروض نسيئة بأرباح فاحشة يعجز المزارع =

وسكان القرية لا يتجاوزون الألفين على أكثر تقدير معظمهم من قبيلة البقوم[١] .

حادث تاريخى

وقد أصبح اسم تربة أكثر شهرة ودوراناً على الألسنة أبان توتر العلاقات بين شرفاء مكة وأمراء نجد ، فانها والخرمه كانتا ملحقتين بامارة مكة وكان آل سعود يطمحون فى الاستيلاء عليهما ويدعون أنهما نجديتان فجبل حضن على مقربة من تربه ومن رأى حضنا فقد أنجد[٢]. وفى أبان الثورة العربية حصلت

= عن تسديدها فيكرر العملية نفسها حتى يعظم الدين ويعجز عجزاً تاماً عن تسديده فيستحوذون على ما لديه من مال فى تسديد ما أمسى لهم من ديون وهى طريقة بالغة الضرر تفسد على الناس أحوالهم .

(١) يقول صاحب كتاب « قلب جزيرة العرب » ص ١٣١ : أن البقوم أصلهم من الأزد إلا ان قسما منهم اختلط بعتيبة وجاراها فيما هى عليه ، وقد أكد ذلك فى كتابه « فى بلاد عسير » ص ٢٦ وذكر أنهم إلى عتيبه أميل وأقرب وقسمهم إلى خمس بدائد ـ المرازيق ـ الموركة ـ الكلبه ـ الرواجح ـ الفواصل .

وجاء فى كتاب صحيح الأخبار ج ٤ ص ٢١٧ و٢١٨ عند الكلام على حضن قول المؤلف : والذى أعلمه أنه جبل لبنى هلال ابن عامر وبعد رحيلهم من نجد أستولت عليه قبائل البقوم وقد ذكرنا فى غير هذا المكان أن سبب تسميتهم بالبقوم لأن منزعهم من باقم وهم بطن من الأزد من بنى عمرو بن حواله . . .

(٢) مما قاله ياقوت فى معجمه ج٣ ص ٢٩٥ عن حضن عدة أقوال منها : حضن بالتحريك وهو فى اللغة العاج وهو جبل بأعلى نجد وهو أول حدود نجد وفى المثل « أنجد من رأى حضناً » . . .

وقال صاحب كتاب الرحلة اليمانية ص٧٥ : وبينما نحن سائرون إذ رأينا جبل حضن المشهور فى التواريخ العربية ، وهو يبعد عن الطريق العمومى من جهة اليمن بستة آلاف متر تقريباً : مساحة هذا الجبل من الشرق إلى الغرب عشرة كيلو مترا ومن الشمال إلى الجنوب خمسة عشر كيلو مترا وفى سطحه مياه كثيرة واشجار عظيمة ، وهى مال لقبائل البقوم وعنـــدما ينشب الحرب بينهم وبين عتيبة أو سبيع أو ابن الحارث يقيمون بهذا الجبل لأنه حصين ويتركون مواشيهم وإبلهم ترعى فى سطحه حتى تنتهى الحرب فهو بمثابة حصن لهم .

مشادة بين أمير الخرمة الشريف خالد بن لؤى وبين الشريف عبد الله بن الحسين فقد كان المذكور من جملة رؤساء الجند فى جيش الشريف عبد الله الذى كان يعسكر إذ ذاك حول المدينة المنورة ، ورغم أنه كان من الشرفاء العبادلة أبناء عم الشريف الأقربين لم يتجاوز عما لحقه من اهانة وتوصل إلى ترك المعسكر ، ولحق بالخرمة واتصل بالسعوديين وأخذ يناوئ أبناء عمه وقطع ما كان يصل الى الحجاز من تلك الجهات من الميرة والزكاة .

وقد شجعه ترحيب السعوديين به على الايغال فى العداء والتمرد وكانت الدعوة الحديثة التى قامت فى نجد ـ أحياء لما سلف من الدعوة الدينية الإصلاحية التى ظهرت فيه فى القرن الثانى عشر الهجرى ـ قد تفشت فى معظم قبائل تلك الجهة وكثرت «المدَّيِّنة»(١) منهم مما زادت معه الأمور سوءا بالنسبة لشرفاء مكة ونفوذهم ، فاعتزموا الضرب على يد الأمير خالد وقطع دابر ما أوجده من الافساد عليهم ، وكان قد تم لهم الاستيلاء على المدينة المنورة وحيازة ما فيها من أسلحة وعتاد للجيش التركى الذى صابر وثبت فى الدفاع عن المدينة طول أيام الحرب العامة إلى أن عقدت الهدنة بين الحكومة العثمانية وحكومات الحلفاء وكان من جملة شروطها التخلى عن سائر البلاد العربية وتركها لأهلها .

سار الأمير عبد الله بما لديه من جموع البدو وفلول الحكومة التركية ومعظم ما استولوا عليه من المدافع والرشاشات والعتاد الحربى متجهاً صوب الخرمة . وقدر جيشه هذا على ما أذكر بحوالى عشرة آلاف جندى ولا يخلو هذا التقدير من المبالغة فيه .

---

(١) جاء فى كتاب «فى بلاد عسير» ص ٣٤ : عاد خالد من عند الأشراف الى ديرته فوجد الخلاف على أشده بين أنصار الفئتين من جماعته غير أنه رأى الكفة راجحة بجانب أهل نجد فترأس الحركة الجديدة وانضم إليها وجاهر بها ثم سافر إلى الرياض وأعلن خضوعه وولاءه الخ .

وفى أثناء طريقه الى الخرمة أشار عليه بعض الملتفين حوله من قبائل تلك الجهة أن يعرج على تربة أولا وبعد قتال طفيف لم يتجاوز بضع ساعات استولى على تربة . وما كاد يستقر بجيشه فى تربة حتى دهم فى إحدى الليالى بهجوم من بعض العشائر الضاربة حولها وشراذم من النجديين كانت أتت لاستطلاع خبر هذه الحملة التى سيرها الشرفاء .

كان الأمير عبد الله عظيم الاغترار بجيشه ومعداته الحربية فلم يتخذ من الحيطة والحذر ما كان يجب عليه أن يتخذه مما عد عليه ضعفاً فى القيادة .

وكانت ليلة الهجوم مظلمة حالكة(١) والجيش ورؤساؤه فى منتهى الغرة فلحقه من الذعر والهلع ما جعله يضرب بعضه البعض وأخذت المدافع والرشاشات تحصد ما أمامهما بلا رشد ولا تمييز وفر الأمير وبعض من معه من رؤساء الجند إلى الطائف . ولم تشرق شمس اليوم التالى للهجوم حتى لم يبق من ذلك الجيش العرمرم سوى جثث القتلى وأسلابهم .

من هذه الموقعة تضعضعت قوة الشرفاء المعنوية والحربية وتقلص نفوذهم من تلك الجهات تماماً وازدادت آمال النجديين ونشطوا فى مناوشة حكومة الشرفاء الى أن تم لهم ما تم من الاستيلاء على الحجاز جميعه بعد بضع سنوات من الحادثة (٢) .

وفى أثناء وجودنا بتربة أشار لنا بعض أهلها الى مكان تلك الواقعة وذكر أن عظام الموتى وجماجمهم لا زالت باقية يشهدها من يمر بتلك الجهة .

---

(١) كان الهجوم فى العشر الأواخر من شهر شعبان سنة ١٣٣٧ وبالتحديد فى ليلة الخامس والعشرين منه .

(٢) بسط الأستاذ فؤاد بك حمزة فى كتابه « فى بلاد عسير » واقعة تربة بسطا وافياً دقيقاً معددا ما سبقها من وقائع ومناوشات بين أنصار الدعوة السلفية الجديدة وبين قوى الشرفاء التى كانت تقصد تأديبهم وإعادة النفوذ إليهم فمن شاء ذلك رجع إليه فى الفصل الرابع تحت عنوان تربة والخرمة صفحة ٣٠ وما بعدها .

وفى صباح يوم الأربعاء ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٩ بعد أن تناولنا طعام الإفطار على مائدة الأمير وكان « حنانى » وهو طعام أشبه بالقطائف الا أنها كانت فى حجم الريال مسقاة بعسل النحل بدلا من القطر . ودعنا مضيفنا شاكرين حسن عنايته وسرنا متجهين إلى وادى بيشه وبعد سير نصف ساعة فى أرض منبسطة اتصلنا بالطريق العـــام المتجه رأساً من الطائف إلى بيشة وما زلنا سائرين الى أن وصلنا حافة وادى تربة ومسيل السيل اليها فتوقف السائق قليلا ريثما طم ما أحدثته السيول من أخاديد لا يتسنى معها السير فى الوادى .

وبعد أن قطعنا الوادى كان سيرنا فى أرض رخوة منبسطة حوالى ربع ساعة اتصلنا بعدها بالحَرَّة وسرنا فيها حوالى ساعة أشرفنا فى نهايتها على غدير ماء ينصب من سلسلة جبال تعلو شعباً يسمى « كَرَاء » (١).

والحرة أرض صـلبة منبثة على سطحها حجارة سـوداء منخورة مختلفة الحجوم يتخللها نبت عشب جيد المرعى ولحم الضأن الذى ينشأ ويرعى فى الحرار (٢) مفضل عند أهل مكة على غيره من لحوم الضأن الأخرى .

---

(١) وادى كراء معروف قديما بهذا الاسم فقد ذكره ياقوت فقال كراء بالفتح والمد ولا أعرفه فى اللغة ثنية ببيشه وقيل ثنية بالطائف وقيل واد يدفع سيله فى تربة » . والصحيح مما ذكره ياقوت هو الأخير من الأقوال وقد أكد ذلك العلامة الشيخ محمد بن بليهيد فى كتابه صحيح الأخبار ص ٨٨ و ٨٩ ج ٣ وقال : إنه قد بعث فى هذا العهد وغرس فيه نخيل مشرعة ، فى الماء . ولم نشهد النخيل حين مرورنا وأخال أن ذلك جرى أسفل الوادى بعيداً عن الغدير والطريق على أنه كان قديماً معروفا بزرع النخل فقد قال البكرى فى معجم ما استعجم ص ٨٧٥ : وللضباب أَمَرَات متعالية قريب من الطائف ولهم واد يقال له كراء وهو واد رغيب فى علياء دار بنى هلال يفلق الحرة دونه منها أربعة أميال ووراءه مثلها وهو كثير النخيل جدا ليس بينه وبين الطائف إلا ليلتان يطؤه حاج اليمن وأنه لبنى زهير من الضِّباب .

(٢) الحرار على ماقاله علماء طبقات الأرض « الجولجيا » مقذوفات بركانية أو سوائل بركانية تجمدت ولا يعلم بالضبط كيفية تكونها « قلب جزيرة العرب » .

الى وادى رنيه

بعد أن تزودنا بحاجتنا من ماء الغدير سرنا فى أرض جرداء وربى صخريه لا نبات عليها « ولعلها قسم من الحرة » مررنا أثناءها بمنخفض من الأرض كثير شجر الشوك من السَّلَمْ وَالسَّمرْ يطلق عليه أهل تلك الجهة « روضة بن غنام » وحسبك بأشجار الشوك أن تسمى روضة .

وفى الساعة الثامنة والنصف بعد الظهر وصلنا (وادى رَنْيَة)[1] ونزلنا

= والحرار كثيرة فى الجزيرة العربية معظمها على ما ذكره ياقوت فى الجهات الشمالية الغربية منها ، وقد ذكرمنها جملة وعرفها وذكر أسماء بعضها وجاء فى معجمه ص ٣٥٩ ج ٢ حرة عسعس : العسعس اسم الذئب يعسعس بالليل أى يطوف وهى حرة معروفة قال الغامدى :

بين الرقاق وبين حرة عسعس طاف الخيال وصحبتى بالأوعس

فلعل هذه الحرة هى حرة عسعس فان ديار غامد قريبةمنها .

ووجدت فى مصور جغرافى ملحق بكتاب العرب تأليف . ب. مورتزالألمانى رسم حرة سماها حرة نويِّف *Harrat Nowaif* جاء موقعها بين وادى تربة ووادى رنيه شرقى جبال الحجاز .

وفىمطالعتى أخيراً لكتاب«فى بلادعسير»وجدته فىصفحة ٤ عندوَصْفه الطريق نسبها إلى قبيلة سبيع فقال (والمسافر من الخرمة لايطأ أرض حرة سبيع المَشهورة)

(١) قال صاحب كتاب الرحلة اليمانية ص ٧٣ : ونزلنا أعلى وادى « رنيه » وهو المرحلة العاشرة من أبها ، وهذه الديار لقبائل غامد أهل المشرق « يعنى بدو قبيلة غامد » وقبيلة غامد متفرقة بعضهم قاطن بهذه الديار والقسم الأعظم منهم قاطن بجبل الحجاز وبعضهم قاطن تهامه التى لغامد فى الجهة الغربية من جبل الحجاز أما وادى رنيه المذكور فان الجهة التى لغامد فهى خالية من النخل وفى أسفل الوادى قرى لقبائل سبيع المشهورة بقرى رنيه وبهذا الوادى مائة ألف نخلة وقراه مبنية باللبن من طبقة إلى طبقتين فيها أسواق دائما. وقال صاحب كتاب «فى بلاد عسير» يتألف وادى رنية من مجموعة من الشعبان تنشأ فى بلاد غامد فى السراة الحجازية وهو أحد الأودية الستة التى ذكرناها فى الفصل الأول ويتجه من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى وكان يظن أنه ينتهى فى وادى الدواسر والواقع أنه ينتهى فى =

تحت ظل دوحة من شجر الأثل وتناولنا طعام الغداء وشربنا الشاى ثم صلينا العصر والظهر ، وسرنا وبعد ساعتين تقريباً وفى نحو الساعة الحادية عشر والنصف وصلنا « قرية الروشن » إحدى قرى وادى بيشة[1] ونزلنا ضيوفاً على أميرها .

عرق الدواسر ، ولا يتصل بالوادى نفسه . وتقوم على أطراف الوادى المزارع وحدائق النخل والقصور والقرى إلى مسافات بعيدة ، ثم عدد قرى وادى رنية ومياهه وذكر أن أول العمران هو (الأملح) ثم سمى حوالى ثلاث عشرة قرية إلى أن قال : ومعيشة أهل رنية بسيطة هادئة وهم زراع بالطبع وأهم زراعتهم النخيل والحبوب وهم ـ بعد ـ أهل ماشية وجمال وعندهم ذوق فى صناعة النسيج الصوفى الخاص بالأخرجة والهميانات ص ٤٨ - ٤٩

(١) قال ياقوت فى معجمه ج ٢ ص ٣٣٤ : وعن أبى زياد خير ديار بنى سلول بيشه وهو واد يصب سيله من الحجاز حجاز الطائف ثم ينصب فى نجد حتى ينتهى فى بلاد عُقَيل وفى بيشه بطون من الناس كثيرة من خَثْعَمْ وهلال وسُواءة بن عامر ابن صعصعة بن سَلول وعُقيلْ والضِباب وقرَيشْ ، وهم بنو هاشم لهم المعمل نذكره فى موضعه ، وبيشه من عمل مكة مما يلى اليمن من مكة على خمسة مراحل وبها من النخيل والفسيل الشىء الكثير ، وفى وادى بيشه موضع مشجر كثير الأسد « لا أظن بها من الأسد شيئا » قال السمهرى .

وابنة ليلى بالغربين سلمت ... علىَّ ودونى طخفة ورجامها
فان التى أهدت على ناءى دارها ... سلاماً لمردود عليها سلامها
عديد الحصى والأثل من بطن بيشة ... وطرفائها ما دام فيها حمامها

وذكر صاحب كتاب الرحلة اليمانية ص ٦٩ و ٧٠ ما خلاصته : أن وادى بيشة واد عظيم تمده (٢٥) وادياً من الأودية الأخرى وكلها ينصب ماؤها من جبل الحجاز وأن ما يزرع فى وادى بيشة من الحبوب ، البر والذرة والشعير وأنواع الخضار ، وأن الليمون رخيص فيه للغاية فالمائة حبة بقرش ولأهله عناية تامة زائدة بالنخل وغرسه وانه يبلغ نصف مليون نخة من أجود أنواع النخل ، وأن أنواع الرطب فيه تزيد على الخمسين نوعا وأن البلح رخيص فيه للغاية فالقنطار منه لايساوى =

وكانت مقابلتنا له وهو جالس فى فناء دار الأمارة على مصطبة من اللبن وحوله خويّاه « مرافقوه » وذلك مجلسه فى عصر كل يوم وبعد أن حييناه وحيانا دخل بنا إلى غرفة الاستقبال أو مجلس الأمارة ، وكانت غرفة مستطيلة فى طبقة أرضية من دار كبيرة ، والأمير مديد القامة أسمر اللون يختلف عن زميله أمير تربة من حيث الثقافة فهو كثير التحدث عن أثره فى ضبط منطقة امارته وحسن ادارته لها وما شاكل ذلك

قرية الرَّوْشَن

وقرية الروشن هى مقر أمارة القبائل الضاربة على وادى بيشة ، وفيها يقوم سوق يوم الأربعاء غير أن السوق الأهم يقوم يوم الخميس فى قرية أخرى لاتبعد من الروشن بأكثر من ربع ساعة على القدم تسمى « نمران » .

وفى القرية من المؤسسات الحكومية غير الأمارة محكمة شرعية ومأمور المالية ومركز للبرق اللاسلكى يقيم فيه موظف خاص للبريد ، وبها مدرسة أولية طلبتها نحو ستين طالباً وفيها مستودع للبنزين وما يلزم السيارات من غير ذلك .

وهى ذات أهمية فى المواصلات والاتصال بأجزاء المملكة السعودية . وبيوتها من اللبن لاتعدو الطابقين غالباً ، بل أكثرها من طابق واحد حولها كثير من بساتين النخيل وغيره من الثمار .

= غير خمسة عشر قرشا (هذه أسعار لم تعد اليوم كما قال) ويقول أن حدائق النخل تحف الوادى من جانبيه على مسافة يومين بالهجين وأن به غابات كثيرة جداً .



« منظر بعض بيوت قرية الروشن وحولها أشجار النخيل وبساتينه »

وادى بيشه

ووادى بيشة واد عظيم تنتشر عليه عدة قرى[1] ومزارع من النخيل . ذكر

(١) جاء فى كتاب (فى بلاد عسير) : أن وادى بيشة يبدأ من سراة عبيدة ورفيدة وكانت تقوم عند مبدئه قرية عظيمة لم يبق منها إلا اطلال وخرائب هى بلدة (جُرَش) الوارد ذكرها فى كثير من كتب العرب ، ثم يتحدر ماراً ببلاد قحطان حيث يكون اسمه بيشة بن سالم أحد زعماء قحطان ، ثم يدخل ديرة قبيلة شهران ويمر من مكان تقوم على اطرافه قرى شهران ، ومنها خميس مشيط . وبعد أن يجتازها تصب فيه أودية فرعية غير أنها غاية فى الكبر والأهمية ، منها وادى تندحة ووادى أبها المسمى « خبيبى » وبعد أن يجتاز بلاد شهران عند المكان المسمى « واعر » وهو المعتبر فى الواقع أول وادى بيشه يسمى « بيشة النخل » أو « بيشة عبطان » المعروفة فى كتب العرب ، وانه ـ اعتباراً من واعر فى أعلى وادى بيشة النخل إلى الجنينة فى أسفله وهى منتهى العمران والنخيل ـ تقوم على أطراف الوادى احدى وعشرون قرية يتروح عدد سكانها بين أربعين ألفا وخمسين ألفا . وان الوادى يمتد فى سيره إلى أن يلتقى بوادى رنيه فى « رغوة » ويغوران معاً فى « المهمل » عند ظاعن ، وأن وادى بيشه اعتباراً من واعر إلى الجنينه مسافة يومين ونصف على المطية =

لنا الأمير أن الخراصين يستغرق مسيرهم فى خرص ثماره للزكاة ثلاثة شهور وأنه ثان لنخيل الأحساء فى الكثرة ، وأنه لايقل عن ثمانماية ألف نخلة ، وفى بدء ما استقر بنا المقام قدم لنا طبق من التمر لذيذ الطعم شهى المذاق ، وتمر بيشه وتربة مشهور بالجودة عند أهل مكة ، ويوجد فى وادى بيشه الكثير من أنواع التمر وأشكاله سمى لنا بعض أهل قرية الروشن تسعة منها وهى :

١ — (المِكَنِزِى) وهذا أحسنها بلحاً ورطباً وتمراً . ٢ — (الصَّفْرِى) ٣ — (عَتيجْ) أى عتيق ٤ — (الحِلوَة) ٥ — (الشَكلْ) ٦ — (اللَّحَقْ) ٧ — (اَلْبَرِنى) ٨ — (اَلْبَرْنَاوِى) ٩ — (الخِضَارِى)

ولسكان بيشه عناية تامة بزراعة النخيل وبراعة فائقة فى تربيته وانمائه أحسن انماء [1] .

وسكان قرية الروشن خليط من مختلف قبائل الوادى [2] معظمهم من

= أى مايزيد على مائة كيلو متر ، وأن المسافة من قرية الروشن فى بيشه إلى خميس مشيط مائتان وخمسون كيلو متراً ومن الروشن للجنينة تزيد عن خمسين كيلو متراً ، وبذلك يكون طول الوادى من منبعه إلى مصبه (٣٥٠) كيلو متراً فى العمران ، وربما امتد أكثر من مائة كيلو متراً أخرى فى الرمال ، فيكون مجموع طوله فى هذه الحالة أكثر من (٤٥٠) كيلو متراً وهو طول عظيم . ثم ذكر روافد وادى بيشة وقال : إنها أربعة أودية هى وادى (تَرْجْ) ووادى « تِبالَه » ووادى(هِرْجابْ) ووادى (بِطْنَه) اهـ ص ٥٤ وما بعدها

(١) جاء فى تقرير البعثة الأمريكية الزراعية التى جابت المملكة لدرس حالتها الزراعية أن التمور فى هذه المنطقة من نوع جيد ، وأن العناية بها على خير ما يرام ، وأنهم شهدوا بها شجرة ليمون شعيرى كانت أضخم شجرة ليمون شهدوها فى عموم المملكة مما يدل على صلاحية نموه بها اهـ ص ١٧٢ طبع مطبعة مصر .

(٢) جاء فى كتاب فى (بلاد عسير) أن عدد القبائل المتحالفة الساكنة فى وادى بيشه ست قبائل هى قبيلة (أكْلبْ) و(شهران) و(بلْحَرث)و(خَثْعَمْ) =



« منظر آخر من مناظر قرية الروشن »

بنى سلول ، وبعضهم من بنى معاوية ، وأفراد من غامد وبعض أهالى نجد يتاجرون فيها . فهى من القرى المهمة فى خطوط الاتجار مع القبائل الضاربة على الوادى

إلى الدرب : درب الخميس

بعد أن تعشينا على مائدة الأمير ـ وكان الطعام على شىء من السخاء والكثرة عما صنع سابقه أمير تربة ـ اعتزمنا المسير ومبارحة القرية فطلب إلينا الأمير أن نحمل له ثمانى صفائح من التمر وأحد خُويَّاه وقبل ذلك طلب إلينا مأمور المالية أن نحمل له موظفاً وأربع صفائح من التمر أيضاً لمدير مالية أبها[1] فنقضنا ترتيب أمتعتنا فى السيارة وأعدناه على ما اقتضاه الوضع الجديد من الواقع

= و (بَالْقَرْنْ) و(شَمْرَانْ) وعَدَّدَ بطون كل قبيلة من القبائل المذكورة وأفخاذها فمن شاء المزيد رجع إليه فى ص ٥٩ وما بعدها .

(١) هذا وما شاكله من أضر ما يتعرض له المسافرون بالسيارة فى هذه الطرق فإن الحمل المذكور ـ مضافا إلى أحمالنا ـ إثقال للسيارة وإعياء لها ، ورغم ما تبجح به السائق وأبانه من صعوبة ذلك وتعرض السيارة معه للعطل والخطر ، أبى الأمير إلا أن يكون ما أراد . ولم يكن بد من اظهار الرضا وحمل السائق على الموافقة والرضوخ

واستأنفنا السير ، وكان ذلك فى الساعة الثانية والنصف مساء . وبعد أن سرنا حوالى ثلاث ساعات فى صعود بعد أن كان قبل ذلك فى ما يقارب الاستواء أو الهبوط منذ أن فارقنا الطائف ، بدت وعورة المسالك وتلويها مما أدى بنا إلى الضلال عـــدة مرات ، لأن السائق لم يسبق له المسير فى هذة الجهة فرأينا التوقف عن السير والبيات إلى الصباح .

كان البرد قارساً تلك الليلة ، فلم يطرق الكرى أجفاننا إلى أن أسفر الصبح ، فسارع بعض الرفاق وجمع مقداراً من الحطب أوقدناه للتدفئة وإسخان مامعنا من طعام أفطرنا به ، وكان أنشط الرفاق وأكثرهم جمعاً للحطب الدكتور عبد العليم .

وفى الساعة الواحدة بعد شروق الشمس استأنفنا السير نصعد مرة ونهبط أخرى فى طريق كثير الالتواء والتعاريج بين فجاج من الجبال حتى أشرفنا فى الساعة السادسة على قرية تدعى «خَـيْـبَـر»[1] وهى قرية صغيرة فى واد يسمى باسمها أو سميت هى باسمه ، حولها بعض نخيلات ومزارع على الآبار فسقينا من مائها وسرنا فى طريق جبلى إلى الساعة العاشرة حاذينا فيها قرية صغيرة أخرى تسمى « تَـنْـدَحة »[2] باسم الوادى التى هى عليه فاجتزناها ولم نقف .

---

(١) ذكر صاحب كتاب (فى بلاد عسير) صفحة ٦٩ أن قرى وادى خيبر ثلاث عشرة قرية أهم زراعتها الحنطة والذرة والشعير والنخيل وأنه لم يشهد بعد قرية خيبر هذه زرع النخيل فى اتجاهه إلى عسير وكأنها الحد الفاصل لزراعته وإمكان نموه.

(٢) جاء فى كتاب (صفة جزيرة العرب) ص ١١٨ عند الكلام على جرش وأحوازها : ثم تندحه وهى العين من أودية جرش وفيها أعناب وآبار وساكنه بنو أسامة من الأزد ورأيت بعضهم ينجذب إلى شهران . وجاء فى كتاب (فى بلاد عسير) ص ٧١ أن وادى تندحه من روافد وادى بيشه حينما يكون اسمه وادى شهران « أى علو الوادى » وان طوله من منبعه إلى مصبه ثمانون كيلو مترا وأن به مناقع بالماء لا تنقطع أو تجف إلا فى أشد السنين قيظا وان القرى التى عليه أربع عشرة قرية .

خميس مشيط

وفى حوالى الساعة الحادية عشر والنصف ، وصلنا قرية خميس مشيط أو خميس شهران ، وفيها بتنا ضيوفاً على الشيخ عبد الوهاب أبى ملحة ، وأول من التقينا به ابنه عبد العزيز — فتى لم يتجاوز السابعة عشر فى ريعان من الصبا والشباب فقد كان والده فى صحبة الطبيب فؤاد أبو غزالة الذى قدم من أبها لإجراء الاحتياطات الصحية مع الحاج اليمانى المار فى طريقه إلى مكة .

اقتادنا الفتى إلى غرفة استقبال الضيوف وما إن استقر بنا المقام حتى قدم والده الشيخ وهو كهل قصير القامة ، دقيق الأطراف بشوش الوجه ، خفيف الحركة ، فيه نشاط ، وعلى محياه طلاقة وإيناس وبعد السلام والتعارف ذكر لى أن الأستاذ عبد الملك الطرابلسى مدير مدرسة أبها ضيف عنده وأنه أرسل فى طلبه .

وبعد أن صلينا المغرب دعانا للعشاء فقمنا إلى الحجرة التى نصبت فيها المائدة ، فإذا خوان مربع مترع بصنوف من الأطعمة ، يتوسطها خروف كامل محمر بالسمن وقد دل كثرة ما على الخوان من أنواع الطعام على سماحة الرجل وبذخه وتمكنه مما شاء من دنياه . وعندما تهيأنا للطعام وأخذ كل منا مجلسه على المائدة ، أقفل علينا الباب وتركنا وحدنا ، وهى عادة عند قبائل عسير وشهران تعد من المبالغة فى إكرام الضيف واعطائه الحرية فى الأكل .

ومعظم مبانى قرية خميس أو الخميس وتسمى الدرب أيضاً من اللبن ، تتكون من طبقتين أو ثلاث أحياناً ، تشبه مبانى أبها التى سيأتى وصفها إلا أنها خالية من شىء يسمى الرقف يوجد فى كثير من مبانى أبها . وتسمى بالخميس لقيام السوق فيها كل يوم خميس ، وهى تنسب إلى قبائل شهران فيقال خميس شهران وتارة إلى اميرهم ابن مشيط فيقال خميس مشيط .

والقرية سوق واسعة لتصيرر فا لتمو والغلال التى تنتجها أكثر الوديان



« منظر لبعض بيوت قرية الخميس »

المجاورة ، وهى قائمة على طرف وادى شهران فى فسيح من الأرض شهدنا عليه صخوراً حمراء منتصبة ، فى بعضها تجاويف كالمغارات ذكرتنا بما يشاهده المرء على سطحة الهدى وفى المكان المسمى بمدق اللوز على مقربة من الطائف وفى تجوالنا بين هذه الصخور فى فترة من صباح يوم السفر شهدنا على صفحة إحداها تخاطيط تشبه بعضها رسم بعض الكلمات والحروف بصورة مشوشة لم نتبين منها شيئاً . ومناخ القرية بارد رطب وقد أحسسنا ليلة بتنا فيها ببرد شديد كان الواحد منا فى صبيحتها إذا ما تكلم تجسد البخار الخارج من فيه . وترتفع عن سطح البحر بألف وستماية متراً على ما قيل لنا[1] فهى تماثل

(١) من ذكر لنا من أهل ابها مقدار ارتفاع قرية الخميس عن سطح البحر يسند قوله إلى المستر توتشل الأمريكى أثناء مروره للبحث والتنقيب وذكر لى غيره أن ارتفاعها ١٨٠٠ متراً ، وقد جاء فى كتاب (فى بلاد عسير) ص ٧٦ أن ارتفاع قرية خميس عن سطح البحر ٧٣٠٠ قدماً ، وجاء فى خريطة من وضع المستر فلبى أو الشيخ عبد الله فلبى أن ارتفاعها ٢٠٠٠ متراً وكم تمنيت لو كان معى مقياس أحقق به أصح الأقوال .

الطائف فى الارتفاع وتختلف عنه بالرطوبة ، وماشربناه من الماء فى قرية الخميس كان عذباً فراتاً .

وادى شهران وقبيلة شهران

ووادى شهران واد عظيم يمتـــد عليه الكثير من قرى قبيلة شهران وهى قبيلة وافرة العدد تنتشر منازلها فى عديد من الأودية[1] .

والشيخ عبد الوهاب أبو ملحة هو اليوم من أعيان قرية الخميس وأكثرهم شهرة ، لكرمه ولماحازه من المكانة والرعاية من الحكومة السعودية بما قدمه من خدمات جليلة ومؤازرة أثناء محاولتها الاستيلاء على جبل عسير كافأته عليها بتنصيبه رئيساً لأموال مقاطعة عسير وملحقاتها .

وفى صباح يوم الجمعة ١٤ ذى القعدة سنة ١٣٥٩ — ولأربع ليال خلت من مبارحتنا مكة بعد أن تناولنا طعام الأفطار على مائدة مضيفنا — تهيأنا للسفر إلى أبها[2] .

---

(١) جاء فى كتاب (سبائك الذهب) للسويد ص ٧٣ قوله : شهران بطن من خثعم بن أنمار ، قال أبو عبيدة : فى ناهس وشهران الشرف والعدد وقال البستى ومنهم ذو الأنف الذى قاد خيل خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعد صاحب كتاب الرحلة اليمانية أربعة أودية مروا عليها تخص قبائل شهران وهى « المسيرق » و « الأراك » و « خضراء » و « الفضايا » ثم قال : ونزلنا المرحلة السادسة بشهران أيضا ومن هذه المرحلة نهضنا ووصلنا بيشه » وجاء فى القاموس المحيط ج ١ مادة الشهرة صفحة ٦٨ قوله : وشهران بن عفرس أبو قبيلة من خثعم ، ويحد قبائل شهران ـ على ما أعلمه شرقاً سبيع ، وغرباً قبائل عسير ومن جاورها شمالا ، وشمالا تمتد منازلهم إلى قسم من وادى بيشه وبعضهم يسكن قرية الروشن ، وجنوباً قبيلة قحطان وجنوباً بغرب طرف من منازل عسير .

(٢) ذكر صاحب كتاب (فى بلاد عسير) صفحة ٩٦ ماخلاصته : أن المسافة من =

وبسبب البرد تعطل محرك السيارة وظل السائق فى معالجته وإصلاحه ضحوة اليوم ، ثم استأنفنا السير فى جبل وعر المسلك كانت السيارة تترنح فيه ترنح الشارب الثمل مما كنا نمسك معه قلوبنا خشية أن تنقلب السيارة ولكن الله سلم .

فى أبهـــا

وفى الساعة الخامسة والنصف ـ وقبل صلاة الجمعة ـ وصلنا أبها . ومن فورنا كما تقضى بذلك التقاليد التى قد تسيء مخالفتها — كما قيل لنا — قصدنا مقابلة أمير أبها وعموم بلاد عسير الأمير تركى السديرى فملنا بالسيارة إلى دار الأمارة ، وفى ردهتها صادفنا مواطننا الشيخ صالح باخطمه مدير شرطة أبها إذ ذاك فحيانا وقابلنا مقابلة ودية لايزال طيب أثرها فى نفوسنا ، وبعد السؤال والاستفسار ألح فى أن يكون غداؤنا عنده ذلك اليوم ، ثم صحبنا لمواجهة الأمير .

بعد أن ارتقينا بضع درج من سلم الدار مال بنا إلى بهو كبير فى غاية الطول كان الأمير جالساً فى إحدى زواياه .

وهو متوسط القامة فى وجهه أثر جدرى غير واضح ، وافر الأبهة كثير الحشم والأتباع ، وبعد أن حييناه وحيانا على المراسم المعتادة ودارت علينا فناجيل القهوة العربية وبلغنا منها الكفاية ، استأذناه وانصرفنا وجهتنا المنزل الذى اختاره ودلنا عليه الأستاذ عبد المالك ، ونحن فى خميس شهران .

وصلناه وحططنا فيه أمتعتنا ، واعتزمنا الذهاب لإجابة دعوة المواطن

= سوق الخميس إلى سوق ابها تبلغ ٣٥ كيلو متراً تقطعه السيارة فى ساعة وبضع دقائق ، نظراً لوعورة بعض أقسامه وأن الذى افتتح هذا الطريق هو محيي الدين باشا آخر متصرف للترك فى عسير لسير المركبات الحربية وغيرها .

الكريم الشيخ صالح باخطمه . وبينما نحن فى طريقنا إلى ذلك تعرض لنا رسول الأمير يدعونا المشاركة فى العشاء على المائدة التى أعدها لأعيان ورؤساء عصبة الحجاج اليمنيين الذين دعاهم للضيافة حين مرورهم من قرية خميس، ولم نر بدأ من الجمع بين الدعوتين فتغدينا لدى الشيخ صالح ، ثم سرنا من هناك لإجابة دعوة الأمير وبمقدار أن تناولنا القهوة فى بهو قصر الأمارة سابق الذكر ، استنهضنا إلى الحجرة التى أعدت فيها المائدة ، وكانت خواناً مستطيلا مكتظاً بصنوف الأطعمة تتوسط طباقه المبثوثة فيه خمس صحاف مترعة بالارز على كل منها خروف كامل محمر بالسمن والأطباق مترعة جميعها مما لوحظ معه المبالغة فى إكرام الضيوف اليمنيين الذين كانوا حوالى الثلاثين شخصاً .

وبعد أن قضينا واجب المؤاكلة قمنا إلى مجلس الأمير الخاص وكان مجلساً حسن الرياش تتوسطه منصة عليها مختلف أنواع العطر والطيوب الحديثة «كلونيات» تناولنا فيه القهوة وعقبها التبخر بالعود عدة مرات . والتبخر بالعود فى عرف أهل نجد إيذان بالانصراف فانصرفنا .

عدنا إلى المنزل ، وكان على جانب من النظافة والانسجام وحسن الترتيب رغم أنه لأرملة وأم لثلاثة من الصبية الصغار لا يخلون من عبث وعيث ، حمدناه لها وشكرنا للأستاذ عبد المالك دلالتنا عليه . ولو أننا نزلنا فى بناية المدرسة كسابق العزم لكانت «الحالة طين» فالمدرسة لا مفروشات فيها سوى الحصير والبرد شديد وهى تعطل شتاء فلا عناية بأبوابها ونوافذها حتى تقينا منه .

مدينة أبها

ومدينة أبها[١] كائنة فى الجانب الشرقى من جبل عسير فى وهدة من

---

(١) جاء فى كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمدانى عند الكلام على جرش وأحوازها فى صفحة ١١٨ طبع ليدن : ثم يواطن جرش من شاميها عسير قبائل من عنز =

حزون بين جبال جرداء لا تختلف كثيراً عن أمثال ما شهدناه من الجبال منذ برحنا الطائف إلى أن وصلنا خميس مشيط ، وفى وسط الوهدة ربوة تسمى «رَأسَ امَّسَلَّحْ » كان يقوم عليها قصر الأمير محمد بن عائص المسمى «شذا» ، ولا زالت معالمه ماثلة بادية . وعلى مقربة منه الآن قصر الإمارة السالف الذكر ، وهو قصر فخم بالنسبة لمبانى أبها يشرف من طرفه الشمالى والغربى على فسيح من الأرض يسمى «البِحارْ» ، فى طرفه مما يلى الشرق تقوم سوق أبها الأسبوعى



« منظر سوق أبها الأسبوعى حال قيامه ويبدو فى أحد نواحيه قصر الأمارة »

كل يوم ثلاثاء ، وتحيط برحبة السوق بضع عشرات من الدكاكين مفتوحة على الدوام ، فيها من الأمتعة والمعروضات كل ما يحتاجه أهل القرى المجاورة وبقدر ما عليه أبها من التحضر .

ولا شىء من معروضات الدكاكين خارج فى العرض عن نطاق أبوابها بل جميعها فى الداخل فهى أشبه بمخازن ، ويتقدم الكثير من الدكاكين سقائف

= يمانيه تنزرت ودخلت فى عنز فأوطان عسير إلى رأس يته وهى عقبة من أشراف تهامه وهى أبها ، وبها قبر ذى القرنين فيما يقال عثر عليه على رأس الثلاثمائة من تاريخ الهجرة .

على أعواد خشبية للتظليل تمتد على طول صف الدكاكين .

وتنفرد دكاكين بيع اللحوم فى ناحية خاصة خلف المسجد الكبير منعاً لما قد ينشأ عنها من القذارة وتشويه منظر السوق .

وتنقسم بلدة أبها إلى سبعة أحياء ثلاثة منها وهى «مَنَاظِرْ» وهو النواة التى قامت عليه بقية الأحياء الأخرى و «النْقَرَى» و « الرَّبوَعْ » ويسمى نعمان أيضا تحيط بفسيح الأرض المسمى بالبحار على شكل مربع ذى ثلاثة أضلاع مع شيء من التعرج بسيط مبتدئة من الجانب الشرقى مارة بالشمال ومنتهية بالغرب .



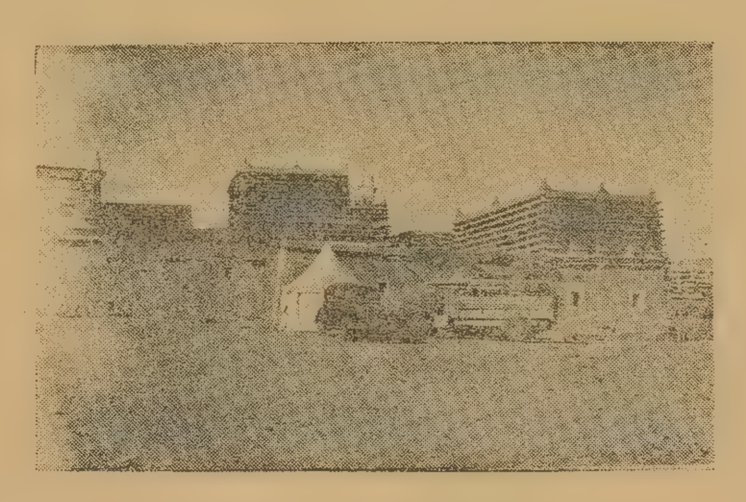
« صورة واجهة بعض بيوت محلة مناظر »

والأربعة الأحياء الأخرى وهى « مِفْتَاحَه» كائن فى الجنوب الغربى من الأحياء السابقة الذكر و « الخَشَعْ » وهو فى الجنوب الشرقى منها و « القابل » ويقولون له أم قابل وهو فى الشمال الغربى منها و النُّصْبْ » وهو خلف مناظر مما يلى الشرق .

ومجموع بيوت أبها على ما أخبرنى الثقة ستمائة وأربعون بيتاً وسائرها

إلا القليل مبنى باللبن[١] على شكل هرمى واسع لأسفل ضيق الأعلى قليلا .

تحوط جدار طوابقها العليا حجارة مبسوطة رهيفة على شكل رفاف متراصة فى صفوف يعلو بعضها البعض يسمونها «الرَّقَف» ويقولون أنها تشد الجدار الطينية وتقيها شر المطر وكلهـــا ضيقة النوافذ كأنها كوى الحصون ويسمون النافذة «كُتْرَه» .



« صورة واجهة بعض بيوت محلة القرى على ميدان البحار وترى الرقف بادياً فيها »

وليس لها بيوت خلاء ـ مراحيض ـ إلا ما قل مما يسكنه بعض الجالية الحجازية من الموظفين ، ولا ننس بيتنا الذى نحن فيه فإنه مما قل لأن مؤسسه الأول أحد موظفى الأتراك فى عهد حكومتهم لم يخل حتى من حمام على طرازه المعروف ، عبثت به أيدى من انتقل إلى ملكيتهم بعده . وهى من الداخل نظيفة مبيضة بالجير ، ولا يخلو بيت من بيوتهـا من طراز أخضر يعم سائر جداره مما يلى أسفلها من الداخل يسمونه «الخِضَار» يصنع بدعك رؤوس

(١) جاء فى كتاب جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٤٤ فى صفة أبها أنها مدينة بيوتها مبنية بالحجر على تل فى وسط عسير . والواقع المشاهدة هو ما ذكرته لك . وموقع المدينة بالنسبة لجبل عسير أقرب إلى الجانب الشرقى منه على حزوم بين الجبال المحيطة بالمدينة كما سبق القول .

أعواد البرسيم الطرية ويعلو هـــذا الطراز فى البيوت الممتازة : إما أفاريز مختلفة الألوان « خطوط » أو طراز آخر بنقوش متماثلة الشكل يحيطون بها النوافذ والأبواب فتكسب داخل البيت رونقاً وجمالا .

ولا بد أن يكون فى حجرة أو حجرتين من حجر البيت موقد يسمونه « الصَّـلَـل » يلتفون حوله أيام الشتاء للتدفئة ويطبخون عليه القهوة وكثيراً ما ترى « دلالها[1] » مرصوصة على حافته .

سكان أبها

وسكان أبها لا يتجاوزون الخمسة آلاف معظمهم من بنى مُغَيْد إحدى قبائل عسير ، وبها جماعة تسمى البلاحطة واحدهم « بُلْحُـطِى » وهم فئة منحطة لا يأنف من ينتسب إليها من إتيان ما يسترذل ويعاب من الشحاذة والمسخرة وغير ذلك مما تأباه العزة . وأهالى أبها وغيرهم من القبائل يترفعون عن مصاهرتهم

مثل هذه الجماعة لاتخلو منها بلاد ولا شعوب ، فى مصر يعرفون بالغجر وفى الشام بالنور وفى بعض قبائل الحجاز بالهتيم وفى تركيا بالشنقانه

وقد شهدت نفراً منهم بأرض اليونان ورأيت بعض نسائهم يمتهن استطلاع البخت والشحاذة . وأتذكر أن مجلة الهلال كتبت فصلا ممتعاً عن نشأة هذه الجماعة فى الشعوب وتقارب أحوالهم وعاداتهم فى سائر الآفاق .

نساء أبها أو حديث الزواج

ووقوفى على وجود هذه الطبقة فى أبها كان مصادفة ، وذلك أننى كنت وبعض الرفاق نسير فى شارع أبها فالتقينا بسرب من النساء بينهن فتاة صبيحة الوجه جذابة المنظر طال إحداقى إليها ، فقال واحد منهم : لو لم تكن بلحطيه لسعيت لك فى خِطبتها . ودار الحديث فى شأن هذه الجماعة ، واستطرد إلى الزواج وأحواله ، وحديث الزواج حديث فياض فى أبها لا سيما مع غريب

---

(١) الدلالْ واحدها دَلَّة . مواعين لطبخ القهوة وهكذا يسميها أهل الحجاز ونجد

قدم حديثاً فكثيراً ماتقصد أبها لهذه الغاية من الأجانب عنها لما لها من الشهرة في يسر الصداق وشيوع الجمال ، وعلى ما عرفت وأرى ـ أن ذلك مبالغ فيه فان أبها وإن لم تخل من وجود الجميلات ومن فيهن صباحة وقسامة . فهو بقدر ونسبة لاتميزها عن غيرها من قرى سكان جبال الحجاز ، إلا أن أهل أبها أكثر نظافة ومدنية من أمثالهم . ويسر الصداق ـ إن يكن ـ فهو فيما بينهم ، أما من كان أجنبياً فلهم فيه مطمع ، ومايدفعه المرء من الصداق لايعود عليه منه شيء أو نفع من أثاث أو رياش كما هو المألوف ، بل تأتى العروس إلى بيت زوجها فى الغالب «رب كما خلقتنى» لأن صداق المرأة فى هذه الجهات



« منظر بعض نساء أبها »

معظمه من نصيب أهلها ليس لها منه إلا القليل وما يشترط معه على الزوج من حلى وحلل .

ومن تقاليدهم أن على الزوج كسوة لأقرباء العروس من إخوة وأخوات وخالات وأعمام وعمات وما أكثرهم إذا كان الزوج أجنبيا .

والمتخير المنتق لا يرخص فى أى مكان كان ، فقد قالت لى امرأة ممن عرفت بأبها فى عرض حديث فى هذا الشأن « ما تلق بلاشْ إلا اللاشْ »

ولبعض من قعد به الحظ وقصر مداه عن نيل المرغوب : هذه الأبيات

إن ابها وعرسها ... كالمعيدى فى المثل

زعم البعض انها ... خير نزل لمن نزل

خدع الناس قوله ... زخرف القول من نقل

على أنى لا أبخس حق أبها . فهى أم القرى فى عسير السراه ، وهى المركز كما يقولون ، فقد يتوارد على سوقها الأسبوعى من نساء من حولها من القرى فى مشارف الجبال وسفوحها من فيهن اشراق فى اللون وجمال رائع يزدنه بما يتخذنه من وسائل التجميل المألوفة بينهن .

والأسواق فى البادية والقرى كما تكون وسيلة لتبادل العروض والمنافع المادية ، تكون وسيلة أيضاً للتلاقى والتعرض وربط العلائق واقتناص القلوب.

ولقد شهدت لبعضهن فى سوق ابها الأسبوعى عيوناً دعجاء إذا شرعتها ثم أغضت أحسست لقلبك خفقاناً ووجيفاً كأنما أرسلت بنظرتها إليك تياراً كهربائياً لمسته به كما يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى بعض مقالاته .

ونساء السراة على العموم تغلب فى وجوههن الاستدارة ، ويتميزن عن أهل التهائم بإشراق اللون وصفرته والاعتدال فى قاماتهن ، وشعورهن على العموم حالكة السواد لهن فى تصفيفها وتضفيرها صناعة تحلو وتروق فهن يجعلن ما على المقدمة طرة سنية الشكل محفوفة بانتظام لا تتجاوز أعلى الجبين ، تزيد فى اشراقه ونصوعه يسمونها « حُفّة » .

ضدان لما استجمعا حسنا ... والضد يظهر حسنه الضد

وفى أسماء نساء أبها ما يعذب فى السمع كـ « ظبيه ، وزهره ومَلَكْ وليلى ونجمة » ، ولباسهن يتقارب ولباس سكان جبال الحجاز . سراويل

وقصان بعضها فضفاض يكون غالباً أسود اللون محلى صدره بأشكال من التطريز اليدوى بالحرير المختلف الألوان ، والأبكار منهن يتخصصن فى الأغلب بجعل لباس الرأس منديلا إما أصفر اللون أو أحمرا منقطاً بالسواد



« صورة لبعض بنات أبها وعلى رأسهم الإشارب »

يربطنه أسفل الرقبة أو هو (الأشارب) يدسون تحته وبين طيات الشعر على جانبى الرأس لفائف من الريحان يسمونها مكاعس .

أما المتزوجات فلزاماً أن يضعن على المنديل طرحة يسمونها « مِقْـامة» أو « مسفع » ، هى الخمار لها أهداب وكتل من الحرير المختلف الألوان محلى طرفاها بحبكة من الحرير أيضاً وغالباً ما تكون سوداء اللون من رهيف القماش . ويحتزمن على القميص بحزام من الجلد فى الغالب مزركش ومحلى بخيوط ملونة من الجلد أيضاً يسمونه سبتة أو نسعة تبدو معه العسيرية فى ثوبها الفضفاض فى غاية من الرشاقة كأنها بعض النساء الأوربيات لولا طول الثوب . وفى زمن الشتاء يرتدين فراءاً من جلد الضأن يجعلن صوفه من الداخل تجمع طرفاه بعروة وأزرار على الصدر يسمونه « الـمَـزَرْ » . ومنه نوع

ضيق العرض مستطيل بقدر ثلث القامة يعلق فى الرقبة على الظهر يستعملنه أثناء حمل قرب الماء أو الحطب ويسمونه « النَّطْع ».

ويغلب فيهن السفور ومخالطة الرجال ، وعليهن ـ إلا القليل من النساء



« صورة امرأة وهى تحمل الحطب على ظهرها »

المترفات وزوجات الشخصيات البارزة ـ مدار الأعمال . فالمرأة هى التى تحطب وهى التى تسق الماء ، وتقوم بسائر شؤون البيت ، وتشارك الرجل فى العمل فى المزرعة إن كانت لهم مزرعة ، أما الخياطة فقليل منهن من يتعاطاها ، وهى من أعمـــال الرجال فى عسير ، وثياب العرس فى الغالب تبتاع جاهزة ، أو تفصل عند أحد الخياطين من الرجال .

وجميع ماوصفت لك من النقوش فى بيوت أبها هو من صنعهن . وقد شهدت من تمارس منهن البيع والشراء فى بعض الحوانيت بصورة مستديمة ، أما اللواتى يشاهدن يوم السوق الأسبوعى فمعظمهن من نساء القرى التى حول أبها ، يأتين بما لديهن من أشياء ومنتوجات لبيعها وشراء مايلزمهن بأثمانها ، ولابسات القبعات الخوص « البرانيط » هن من أهل تهامة ممن يتيسر لهن الوصول إلى سوق أبها الأسبوعى ، وهو لباس أوحت به شدة

حرارة الشمس فى محيطهن ، وليس من عادة نساء السراة استعماله .

وللمرأة مطلق الحرية فى اختيار الزوج فاذا تقدم أحد لخطبتها — وغالبا



صورة بعض النساء الوافدات على سوق ابها وترى الحزام « السبْتة » باد فى احداهن والقبعات على رؤوس بعضهن

تراه — ولم يعجبها ابت وامتنعت بكل صراحة ، ولاتقع أية محاولة من ذويها لحملها على القبول والاستجابة ، وهن صريحات فى قول : لا ، او نعم ، وحتى لوحصل الرضى ثم لم تستطب معاشرته تترك بيت الزوجية وتقول «شَنَيْتُه» أى كرهته ، ولايحصل فى الغالب اعنات من الزوج ودعوى بالنشوز ، ويكون له إذ ذاك حق المطالبة بمادفع فى صداقها ، فان رد اليه وإلا جعل ذمة له عليها ، ويكون على حد تعبيرهم « فى رأسها كذا » يسدونه من صداقها فى زواجها الجديد إن كان .

ومما هو متعارف فى عسير نوع من الزواج يسمونه « زواج السرْ » ، ومعناه أن يقع فى أشد خفاء ، أى بدون إعلان وتشهير بالعقد ، وهو أكثر ما يقع مع الثيبات وممن يخشى نفور زوجة أخرى لديه أو ممن ليس له اقامة طويلة فى القرية وغالباً ما يكون قصير الأجل[1] .

(رد وتعقيب)

(١) ذكر صاحب كتاب (فى بلاد عسير) صفحة ١٠٥ وما بعدها : أن ممن =

لبـاس الرجال

ورجال أبها لباسهم الثياب كأهل جبال الحجاز تماماً، ويغطون رؤسهم « بالقتر » المحارم والعقل السوداء « شطافة » . وذلك طارئ عليهم اعتادوه منذ استيلاء النجديين على البلاد ، أما فيما سبق فكانوا حاسرى الرؤوس باللمم والجمم على عادة أهل تهامة الجبال إلى اليوم .

يتبع قبيلة عسير ويسكن السفوح الغربية من منازلهم قبيلة « ربيعة اليمن » وذكر دن عادات هذه القبيلة ماوددت لو تنزه عن ذكره فقد قال :

« إن من أرذل عادات ربيعة الاختلاط الجنسى بين الرجال والنساء من الأبكار والثيبات ، وقال أيضا : وقد لاتتزوج البكر منهم زواجاً شرعيا قبل أن تكون قد ولدت ولداً أو أكثر سفاحاً ، والظاهر أن كثيرين يرغبون فى زواج البنت ذات الرقم القياسى فى عدد أولاد السفاح ويسمى ولد السفاح عندهم ولد الهيجة وفى لهجة أهل البلاد (ولد أم هيجه) ، والهيجة هى الغيضة أو الغابة ، أى الولد الذى ولد فى الهيجه وليس على فراش أهله »

وهو قول لا أشك فى أنه بهتان ممن رواه له يماثل ما حكاه عن بعضهم فى شأن قبيلة المع بأنهم من بقايا بنى قريظة يهود المدينة على عهد النبوة .

فغير مقبول جداً أن تـكـرَّ ألف وثلاثمائة وخمسون سنة من قيام الاسلام ولايزال فى صميم أهله قبيلة لاتنكر الزنا ولاتأنف منه ، بل ويرغب أفرادها فى تزوج ذات الرقم القياسى من الأولاد بالسفاح !! فكيف والعرب قبل الاسلام كانت تأنف من الزنا وتعده من الأمور المستهجنة التى لايكون لثمرته أية قيمة أجتماعية بينهم ؟! .

ومن العجيب أن يعتمد مثل هـــذا القول فى قبيلة ربيعة وقد نقل فى نفس البحث قصة يدلل بها على حرص ذات الزوج فى المحافظة على عرضها وقال انه لا يشك فى راويها بل يعتبره شاهد عيان ، فقد قال « وقد روى لى أن رجلا غافل متزوجة فى ليلة كانت فيها متعبة نائمة فلما عرفت بالأمر ظلت تتعقبه مدة إلى أن ظفرت به وقتلته رميا بالرصاص دون أن تطالب بديته لأنها قتلته دفاعا عن العرض والشرف ولاأشك فى راوى القصه بل أعتبره شاهد عيان لأنه اشترك فى تسوية الحادث نظراً لمقامه عند القبيله »

ويحلون (فى الغالب) أوساطهم بالجنابى على عادة عموم أهل عسير ومن والاهم ، والجنابى ثلاثة أنواع : نوع يخرج طرفه عن محيط الوسط وينتهى بيت الشفرة منه بكتلة من سيور رفيعة من الجلد ويسمونه « معَيَّرة » ونوع لايخرج عن محيط الوسط فى الغالب ، غلافه محلى بالفضة بخلاف المعيره فان غلافها مكسى بالجلد دائماً ويسمونه « شَاميه » . ونوع قصير الشفرة معكوف ، طرف غلافها إلى الأعلى محلى بالفضة يسمونه « قديمى » كما يسميه عرب الحجاز كذلك ، وفى الشتاء يلبسون العباءة « الشملة » المعروفة عندنا فى الحجاز «بالبيدى» على عادة عرب الطائف وما والاه وهى تتخذ من أصواف الضأن ومنها الجيد الغالى الثمن ، وتحاك عادة قصيرة إلى ما تحت الركبة بقليل لئلا تعوق الحركة ، فإنها غالباً تكون سميكة الجرم .

ألعـــاب عسير

ولهم ألعاب تسمى «الزيفه» يرقصون أثناءها رقصاً لم استملحه ، وأغانيهم بأشعارهم النبطية ولهجتهم الملتوية لا يكاد يتبين السامع كلماتها أو يفهم معانيها فقد كنت فى أبها ثانى يوم عيد النحر وأقامت البلدية فى مبناها حفلة

— فهل من المستساغ أن تفعل ماذكر من كانت قبل الزواج لاترى فى الزنا بأساً ؟! بل هو معدود عندها وعند قومها اذا أنجبت منه من المرغبات فى التزوج بها (إن من يهن يسهل الهوان عليه) كمايقول المتنبى !

نعم يجوز أن تكون عادة اختلاط الرجال بالنساء شائعة عندهم ، ويجوز أن يكون فى هذه القبيلة تساهل أكثر هيأته حالتها الاجتماعية ، وحياتها البدائية ، ويجوز أن تقع من جراء ذلك حوادث خنى وفحش ، فالانسانية من أى قبيل كانت لاتخلو من نقائصها ومايهبط ببعض أفرادها إلى درك حيوانيته فى بعض الأحيان أما أن القبيلة جميعها تتواطأ على إباحة الزنا وعدم الاكتراث به بل وتكون ثمراته من المرغبات فى المرأة ويكون مدار فخار لها ولمن أتت به فى الهيجة كمايقول فقول مردود وغير مقبول . بل الذى سمعته — ولاأعتقد صحة غيره — أن من المألوف عندهم وعند بعض بدو قبائل المع البعيدين عن القرى إذا كانت المرأة غير —



« صورة بعض أهالى أبها وفى أوساطهم مختلف أنواع الجنابى »

حضرها الأمير ، وبعد أن ألقيت خطبة التحية من أحد طلاب المدرسة وجرى استعراض للجند النظامى والشرطة تقدم لفيف من أهالى أبها يلعبون على طريقتهم ، وذلك أنهم يصطفون متراصين يتوسط الصف الأول حملة الطبول والدفوف ويواجههم ملحن الغناء فينشد ما يريد وتقرع الطبول والدفوف على ترجيعه ويردد اللاعبون فى الصفوف ما قاله مع القفز والنط وضرب أرجلهم على الأرض فى موقفهم مرة ، وسائرين مرة أخرى فى شكل دائرى ، وأحياناً يبرز فى مواجهة الصف واحد منه مستلا جنبية قافزا بحالة بهلوانية وزعقات عالية ، وقد استطعت أن أفهم من أناشيدهم هذه الكلمات :

= متزوجة بكراً كانت أم ثيبا أن تجلس مع أى رجل وتحادثه وتسامره ، ويسمون ذلك (تَنْدِيه) فاذا ما تكرر ذلك ، فهم الناس من جماعتهما أنه يقصد التزوج بها فيطلقون عليه اسم « الخطيب » وكثيرا ما ينتهى هذا الاتصال بالزواج لكن أين هذا مما يقول ؟ !



« صورة بلدية مدينة أبها »

بدّيت(١) ذا فى العرش حاكم   متوحـــد بالملك منفـــرد
ماكرّت(٢) الديرة(٣) لحاكم   يكون فى تدبير أبو فهد

اللهجـــة فى عسير

وفى لغة عسير طمطمانية وكشكشة والكثير من أهل السراة لا يستطيع النطق بالجيم فيقلبها ياءاً « فياء » بدل جاء و(يَبَـلْ)بدل جبل و (أم يَمَـلْ) يعنى الجمل (وكيف حالِش ْ)يعنى كيف حالك (وما بِش ْ)يعنى مابك وجميعهم ينطق تاء التأنيث المتصلة بالاسم ساكنة فيقولوا عشرتْ ورحمتْ ومخاصمتْ وفاطمتْ وساعتْ .

ويقولون (إرْقَـهْ) بمعنى أنظر ، ويسمون البهيمة من الماعز « زَعابَة » .

(١) (بديت) بمعنى قدمت و (ذا) بمعنى الذى على لغة طىء كما يقولون
(٢) و (كرت) قاف معطشة بمعنى قرت واستقرت .
(٣) و (الديره) بمعنى البلدة أو الناحية أو المنطقة ويعنون بأبو فهد الأمير تركى السديرى أمير أبها الحالى .

ويستعملون كلمة « ميدْ » بمعنى أريد (وأهْرَيْت) بمعنى بعثت وأرسلت ، وكثيراً ما يزجون بالجملة المعترضة أثناء الحديث بقصد الدعاء أو إظهار المودة والمبالغة فى الإخلاص فترى الواحد وهو يخاطبك منتقلا عما يقول إلى جملة « إيه وأنا فداك » « إيه سلمك الله » . وفى مقام الاشفاق على المخاطب يقولون « الله يطعنى عنك » «ربى يأخذنى قبلك» وهكذا من أمثال هذه الجمل ، لاسيما النساء منهم فانهن أكثر استعمالا لذلك ، وهم كسائر سكان جبال الحجاز ، شائعة بينهم أساطير « الدعمر » و « السبعة » و« السكون » «وقوم الرماده»[1] وحتى الحلف بالطلاق فى كل صغيرة وكبيرة ، فهو فى لسانهم أيضاً إلا أنهم أخف فى ذلك من بعض سكان جبال الحجاز الأدنى للطائف .

جوّ أبها ومناخها

وأبها معتدلة المناخ طيبة الهواء ، مع برد شديد فى زمن الشتاء ، وقد يجمد الماء فيها أحياناً فى بعض الليالى .

أوحى طيب هواء أبها ونسيمها العليل لزميلى الأستاذ عيسى فهيم بهذين البيتين :

ألا سقيا لأبها من بلاد   عليل نسيمها يشفى العليلا
بلاد ماألم بهـا غريب   وود مخيراً عنها الرحيلا

وهى ترتفع عن سطح البحر (٢٢٠٠) متراً ، أو (٧٣٠٠) قدماً على اختلاف فيما قيل لى ، ولم يكن لدى مقاس للارتفاع أحقق به أى القولين أصح[2] ؟

---

(١) أخال أنهم يعنون بهذه الكلمات أقواماً أو أفراداً من الجن والشياطين فى زعمهم .

(٢) ذكر صاحب كتاب (فى بلاد عسير) أن أقصى ارتفاع بالقرب من أبها القادم من خميس مشيط ٨٩٠٠ قدماً ص ٩٨ وذكر المستر فلبى فى كتابه *Arabian Highlads* فى المصور الجغرافى « الخارطة » الملحقة بالكتاب أن ارتفاع أبها ٢١٩٠ متراً .

أما درجة الحرارة مدة ما كنا بها فى أوائل فصل القوس الموافق لشهر سبتمبر تقريباً فكانت تتراوح نهاراً بين العشرين والخمسة عشر درجة ، وتهبط ليلا إلى الثامنة فوق الصفر .

أودية أبها

ويحف أبها واديان أكبرهما يسمى وادى العُشْرُبان ، أو وادى أبها وعليه قنطرة ذات ست فوهات تصل أبها بمحلة القابل .



« صورة بعض بيوت محلة القابل وترى القنطرة بادية فيها » .

والثانى يسمى « وادى ضِباعَه » وكلا الواديين إذا كان المطر غزيراً فى موسمه ينقع بالماء على شكل غدران يسرب المزارعون ماءها إلى مزارعهم فى معظم فصول السنة . وقد يستمر جريان الماء فى الوادى أياماً كثيرة ، كما شهدت ذلك فى بعض زياراتى لأبها أثناء إقامتى برجال .

ويشرب أهالى أبها من بضع آبار معظمها فى الواديين المذكورين وكلها عذبة المياه ، ومن أعذبها بئر نعمان وبئر الجَلَّه .



« صورة بعض مواشى أهالى أبها ترعى فى الوادى »

وعند ملتقى وادى أبها بوادى جوحان المنحدر من الجبال والعقبات الواقعة جنوب أبها — على مقربة من قرية « قاعد » و قرية « الدّاره » — يوجد مستنقع واسع يشكل فى بعض أقسامه ونواحيه غدراناً عميقة واسعة

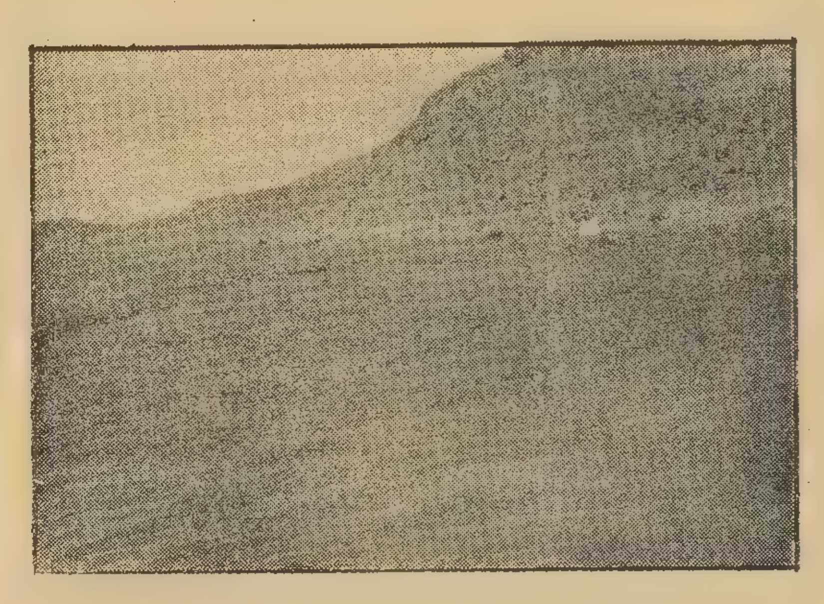


« صورة بعض نساء أبها وهم يستقون من البئر »



« منظر بعض نساء أبها وهن يحملن القرب بعد أن غادرن البئر »

أمكن لبعض أنواع السمك الأسود الصغير الحجم أن يتوالد فيه ، وقد نمت على حوافها كثير من الحشائش وأنواع البوص والحلفاء .



« صورة لبعض الغدران الواقعه بوادى أبها »



« منظر ثان لبعض الغدران »

وعند هذه الغـــدران قبر هدمه الإخوان من الجيش النجدى أثناء استيلائهم على أنها منسوب لذى القرنين .



« صورة الغدير الواقع بجوار قبر ذى القرنين »

قبر ذى القرنين

وقد ذكر الهمدانى فى كتابه « صفة جزيرة العرب »[1] أنه عثر على هذا القبر فى رأس الثلاثمائة من تاريخ الهجرة ، وقد عد صاحب كتاب « فى بلاد عسير » نسبة هذا القبر إلى ذى القرنين تخريفاً من أهل هذه الجهة مدفوعاً - فيما تراءى لى - بما تبادر له من أنه ذو القرنين الإسكندر المقدونى وليس كذلك .



« صورة قبر ذى القرنين وبجواره أنقاض مسجد مهدوم »

فان ذا القرنين هذا يمانى ذكره الهمدانى أيضا فى كتابه « الإكليل » فى الجزء العاشر فقد قال ما معناه أن ذا القرنين السيار ويكنى بالصعب على رواية هو الهَمَيْسَع بن عمرو بن عَريب بن زيد بن كهلان وعلى رواية أخرى هو الصعب ذو القرنين السيار ابن مالك بن الحارث الأعلى بن الخيار بن مالك ابن زيد بن كهلان . وجاء فى هامش القول المذكور من تحقيقات العلامة السيد محب الدين الخطيب ناشر الجزء المذكور : أن هناك قولا ثالثاً مزعوماً لأمير

(١) « صفة جزيرة العرب » طبع ليدن ص ١١٨

المؤمنين على ، وحبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن ذا القرنين السيار هو الصعب بن عبد الله بن مالك بن سدد بن حمير الأصغر[1] .

فغير بعيد عن الحقيقة والصحة نسبة القبر إلى ذى القرنين هـذا لا سيما وأنه مقول منذ القرن الثالث الهجرى .



« صورة أخرى لأنقاض قبر ذى القرنين »

مزارع أبهـا وحدائقها

وتنتثر حول أبها عدة مزارع على شكل مصاطب « دِكاك » يعلو بعضها البعض ، شأن مزارع الجبال[1] واعتماد سقياها على المطر والسيل ، ولا يخلو ما فى أبها من البساتين القليلة من آبار للسقيا .

---

(١) « الأكليل» ص ١ - ٦ ج ١٠

(٢) جاء فى تقرير البعثة الزراعية الأميريكية التى جابت المملكة لدرس أحوال الزراعة فيها فى الصفحة ١٨٣ و ١٨٤ طبع مطبعة مصر بالقاهرة سنة ١٩٤٣ عند الـكلام على المناطق الجبلية من أبها والطائف قولها : « النموذج الزراعى لهؤلاء الجماعات فى الأماكن المختلفة يشتمل عادة على قطع صغيرة من الأراضى فى بطن الأودية الضيقة التى تسقى من العيون والآبار ، ويوجد أيضا عدة أفدنة أكبر من =

وبساتين أبها ليست كثيرة الأشجار الثمرية ، بل لم يكن بها شيء يذكر قبل عهد الترك . فهم الذين جلبوا إليها معظم الغروس الثمرية والبقول والخضروات ولهذا فمعظم ما يطلقون عليها من أسماء هي تركية فهم يسمون الكمثرى « عرموط » أرموط ، والسلك « پازك » والكرنب » لهانه » وأمثال ذلك .



« صورة بعض بساتين أبها »

ومما شهدته من الأشجار الثمرية فى بساتين أبها وماحولها شجر الخوخ ، ويسمونه (فِرسِكْ) وشجر المشمش ويسمونه الخوخ ، وشجر التين والبرقوق « البخارى » والسفرجل والعنب والتوت والليمون والبرشومى « الصبار أو

= تلك لاتسق وهى على طريقة تدريجية أى أن القطعة فوق الأخرى وقد أعطى لها المجال الكافى لتنتفع بالمياه من هطل الأمطار أو السيول بفضل انحدارها أو لتنتفع بما يقسم لها من المياه الجارية ومع أن كثيراً من هذه الأراضى المتدرجة جعلت مواقعها على تدريج من درجتين إلى ثلاثين درجة وهى تزرع منذ الأجيال القديمة فانها جميعها بوجه عام فى حالة جيدة للغاية . فزراع الجهة الغربية من الدنيا وبالأخص زراع الولايات المتحدة الأمريكية يمكنهم أن يتعلموا كثيراً عن التربة وصيانة البلل من زراع الجبال فى المملكة العربية السعودية .

التين الشوكى ، والكمثرى واللوز وقد كانت أشجار اللوز مكسية أغصانها بالزهر فى منظر تحيف رغم تجرد الشجر من الورق بسبب فصل الشتاء ، وشجر اللوزمن الأشجار المبكرة بالثمر وزهره يأتى فى طليعة الازهار وما أحلى ماضمن فيه مجير الدين الاسعردى حيث قال :

أزهر اللوز أنت لكل زهر من الازهار يأتينا إمام
لقد حسنت بك الايام حتى «كأنك فى فم الدنيا ابتسام»



« منظر بستان من بساتين أبها »

ومن جملة ما رأيت فى بعض البساتين شجرة زيتون ذكر لى صاحبها أنه يجنيها فى كل سنة وأنها مما جلبه الترك إبان حكمهم للبلاد .

على أن فى جبل عسير وجبال السراه « الحجاز » أشجاراً تسمى العتم لخشبه وشجره وورقه مشابهة بالزيتون ، وأخال أن فى جبل عسير استعداداً وافياً لنمو شجر الزيتون وتكاثره ولو انتشر لاصبح مورد ثروة لايستهان بها[١] .

---

(١) قبل أن يتيسر لى طبع هذه الرحلة كانت الحكومة قد سيرت فى أواخر عام١٣٦٩ هـ بعثة زراعية من بعض المختصين لارشاد المزارعين من سكان السراة

والفواكه فى أبها رخيصة الأثمان تجلب إليها من القرى المجاورة والضياع التى تقرب منها وقد اشتريت صفحية ملأى بالتفاح السكرى صغير الحجم بنصف ريال سعودى أى بما يوازى خمسة قروش مصرية تقريباً .

إلا أنهم لا يفهمون طريقة صلاحها ومعظمها يجنونه فجاً قبل نضوجه

ومما شهدته فى سوقها عدى ما سبق ذكره من الخضروات « البراضة » (كرات أبو شوشه) والفاصولية والطماطم « قوطه » والباذنجان الأسود والأبيض والخرشوف ولا تعدم كثيراً من غير ذلك من أنواع الخضار تجلب إليها فى موسمها .

ومن منتوجات أبها وما حولها من المزارع الحنطة والذرة والشعير والعدس ويسمونه « البلسن » كما يسمون البرسيم قَضْباً .

واعتماد أهلها فى القوت على الذرة والشعير ، أما الحنطة فطعام ذوى اليسار

= وغيرهم وكان يشارك البعثة فى غايتها الأخ السيد حسن شطا الخبير الزراعى فى مديرية الزراعة السعودية وخريج جامعة فؤاد الأول بمصر وقد أخبرنى أنهم فى أثناء تجوالهم فى بلاد غامد من السراة اطلعوا على أعداد وفيرة من أشجار العتم وتحقق لديهم أنه الزيتون البرى كما اطلعوا على أشجار تسمى (الضُّرْوَ) وتحقق أنه شجر الفستق البرى وذكر لى أن من المتيسر الممكن فينا تطعيم شجر العتم والضُّرُو بأقلام من شجر الزيتون والفستق الثربين فتنقلب الأشجار المطعمة الى أشجار تجود بالمحاصيل الوفيرة من النوعين لأن أشجار العتم والضرو الموجودة فى السلسلة الجبلية « السراة » تقدر بكميات وفيرة تتجاوز عشرات الألوف .

على أن منطقة السراه على استعداد كامل لزراعة شتى أنواع الثمار وأجودها فقد جاء فى تقرير البعثة الأمريكية الزراعية التى جابت المملكة للدراسة والاختبار قولها (وزراعة الأنواع الطَّيِّـبَـة من الخوخ والمشمش والبرقوق والتين والسفرجل والعنب فى هذه المناطق لا تـكفى حاجة السكان بالفواكه الطازجة فى أوقاتها وتجفيفها واستعمالها فى الأوقات الأخرى فحسب ، بل يمكن أن تمون الأسواق البعيدة بالفواكه الجافة) ص ١٨٤ طبع مطبعة مصر سنة ١٩٤٣ اهـ فحبذا لو عنيت الحكومة بهذا الموضوع :

ولأعزاء الضيوف وأثناء الولائم ، وهم للشعير أكثر استعمالا من الذرة بخلاف أهل تهامة فانهم على العكس من ذلك .



« منظر لسوق أبها وبعض بيوتها »

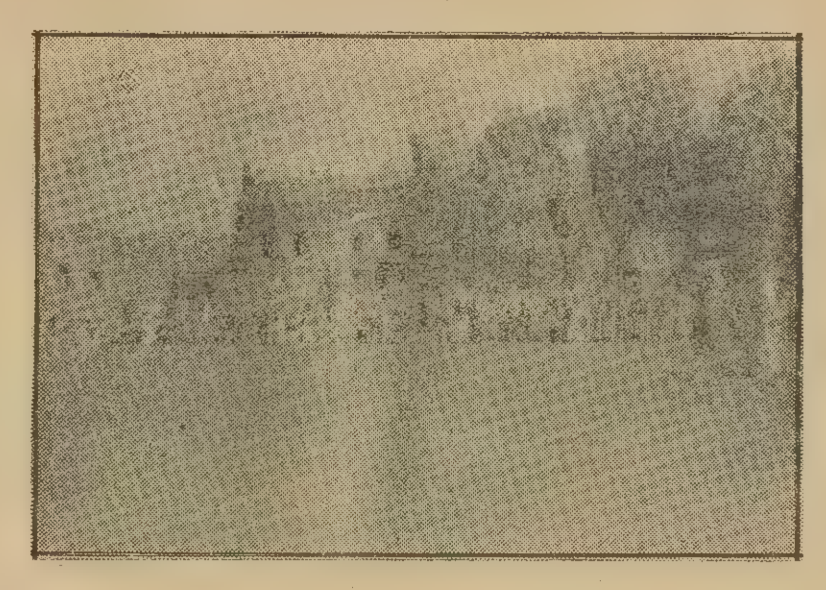
ويسمون المطبخ « ملهبا » وخبزهم العيش فى تنور يسجرونه ثم يلصقون أقراص العجين فى جداره .

أبها مركز النشاط الحكومى

وفى أبها دائرة للشرطة وثكنة للجند النظامى « الحامية » ودار للبلدية من عهد الترك وفيها رياسة أموال عسير وبها مدرسة أولية طلبتها حوالى المائتين وفيها مصحة من طبيب واحد وعيادة خارجية وبها مؤسسة لاسلكية ومأمور للبريد فى إدارة اللاسلكى .

وعلى قمة جبل « ذَرَه » أحد الجبال المشرفة على القرية حصن أظنه من عهد الأتراك يسمى باسم الجبل ولاتخلو بعض الجبال المشرفة عليها من حصون على شكل أبراج مستديرة يسمونها (المفاتيل) وهذه المفاتيل منتشرة فى كثير من قرى عسير تتخذ وقاية ومرمى لحماية الوادى .

وقد بنى بها جلالة الملك المعظم عبد العزيز آل سعود أيده الله مسجداً



« مدرسة أبها الأميرية وطلابها »

جامعاً منسقاً وفيه تقام صلاة الجمعة ويجرى يومها للأمير عند دخوله المسجد وخروجه منه استعراض بجنود الشرطة والنظام .

ولا تخلو محلة من محالها من مسجد خاص وفى محلة مناظر مسجد واسع من بناء العهود السابقة

وعرفت بها رجلا من بقايا عهد الأتراك يقول : إنه فلسطينى الأصل اسمه شكرى له إلمام بالتصوير الشمسى وصناعة الميكانيكا ، فهو ساعاتى أبها ومهندس ما فيها من سيارات وآلات ومنه أخذت بعض مناظر أبها .

قبائل عسير

وعسير أربعة قبائل كبرى هم « بنو مُغَيْد » و « عَلْكَم » ويقال لها ولد أسلم ، وهما شوكة عسير وأكثرهم عدداً « وربيعة رُفيدة » و « بنى مالك » وجميعهم يعدون على وجه التقريب من أربعين إلى خمسين ألفاً .

وتتفرع هذه القبائل الأربع إلى عدة بطون وأفخاذ يطول شرحها تبلغ

على وجه التقريب حوالى أربعين فخذاً ، يسكنون نحو مائة وخمسين قرية قد تكون بعض القرى منزل أسرة لا تتجاوز بضعة بيوت .

ويقولون إنهم يرجعون فى الأزد أزد شنوءة[1]

ملاحظة وتعقيب

(١) ذكر الدكتور عبد الوهاب عزام بك فى كتابه «مهد العرب» ص ٩٤ ما يأتى « والقسم الشمالى من اليمن المجاور للحجاز يسمى اليوم « عسيراً » وهى تسمية لم تعرف فى القديم ، وقبيلة عسير التى يسمى بها الأقليم هى بجيلة احدى قبائل اليمن المعروفة وكانت تسمى باسمها القديم إلى القرن السابع الهجرى على الاقل .

وفيه أودية وزروع وقرى كثيرة منها بيشة وتربة وهى مسورة كبيرة تحيط بها المزارع والنخيل وفيها مبان كثيرة ومنها أبها ومرفؤها القنفذه على مايتى ميل جنوبى جده وصبيا وكانت حاضرة الادارسة أمراء عسير » .

والذى يظهر لى فيما ذكره حضرة الفاضل المشار اليه مايأتى :

أولا — أن قبائل عسير لها أسماء معروفة هى ماذكرته لك من أسماء يطلق على مجموعها اسم عسير من القديم فقد جاء فى كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمدانى المتوفى عام ٣٣٦ فى صفحة ١١٨ «أن عسير قبائل من عنز يمانية تنزرت ودخلت فى عنز» .

والذى يبدو لى أن وجه اطلاق عسير على القبائل المذكورة وتسميتها به هو وعورة الطرق والسبل فى القسم الذى يسكنونه من جبال الحجاز وصعوبة سلوكها حتى على أهله وسكانه وعلى ذلك فالقبائل هى التى تسمت بالأقليم لا الأقليم بالقبائل

ثانيا — أن الذى أعلمه أن قبيلة بجيلة اليوم تسكن من جبال السراه أو الحجاز فى القسم الأقرب للطائف وجنوباً عنه .

ولم أسمع طول مدة إقامتى بعسير واختلاطى بأهله من أحد منهم أنهم كانوا يعرفون ببجيله بل يقولون إنهم يرجعون فى الأزد أزد شنوءة .

ومماقاله شاعرهم على بن حسن يفتخر فى ابان حروبهم مع الأتراك فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى من قصيدة مطولة قوله :

قفى وانظرى ياأم عبد معاركا ... يشيب لها الولدان من كل أمرد
وان كنت عنها بالبعاد فسائلى ... ففيها أسود من «مغيد» بمرصد
وفيها ليوث (الأزد) من كل شيعة ... يصالون نار الحرب ناراً لمفسد —

ويعرفون سلسلة الجبال التى يسكنونها بساق الغراب ، وتمتد منازلهم شرقا إلى منازل قبيلة شهران « قرية حجله وما حاذاها . وغرباً بمنازل قبيلة

= الى أن قال :

ويالك من أيام نصر تتابعت بها من شواظ الحرب ذات التوقد
بأيدى رجال من « شنوءة » جدهم رقى بهم مجداً الى حوز فرقد

وبجيلة ليست من الأزد بل من أنمار أبناء عم الأزد وهى على ماجاء فى كتاب «سبائك الذهب فى انساب العرب» للسويدى أن أزد هو ابن الغوث بن نبت بن زيد ابن كهلان بن سبأ وانمار بن اراش بن عمرو بن الغوث وبجيلة اخوة لخثعم بن انمار غلب عليهم اسم أمهم فنسبو إليها ويجتمعون مع أزد فى الغوث ويعزز هذا الذى ذكرته ماجاء فى معجم ياقوت ج ٥ ص ٦٤ عند الكلام على السراه قوله « قال أبو عمرو بن العلاء : أفصح الناس أهل السروات وهى ثلاث وهى الجبال المطلة على تهامة ومايلى اليمن أولها هذيل وهى تلى السهل من تهامة ثم بجيلة وهى فى السراة الوسطى وقد شركتهم ثقيف فى ناحية منها ثم سراة الأزد أزد شنوءة وهم بنو كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر .

وقال أيضا عن الأصمعى « الطود جبل مشرف على عرفه ينقاد الى صنعاء ويقال له السراه وإنما سمى بذلك لعلوه وسراة كل شىء ظهره يقال سراة ثقيف ثم سراة فَهْمْ وَعُدْوَان ثم سراة الأزد ..

ولاخلاف بأن ثقيفا قديما وحديثا من سكان الطائف وماوالاه وقبائل عسير اليوم هى فى نهاية سلسلة جبال السراه (الحجاز) فوادى تثليث الذى اعتبره ياقوت الحد الفاصل لسلسلة جبال الحجاز عن اليمن يقع فى الجنوب الشرقى عن بلاد عسير منحدراً الى الشمال لجبل عسير هو ولا شك ماعناه أبو عمرو بن العلاء بالسراة الثالثة وقال أنه منزل الأزد أزد شنوه .

وليت حضرته رمز الى المصدر الذى عرف منه أن قبيلة عسير هى بجيلة إحدى قبائل اليمن وانها كانت تعرف بهذا الاسم إلى القرن السابع على الأقل .

ثالثا — أن بيشه « ويعنى بها غالبا قرية الروشن من قرى وادى بيشه » و « تربة » ليستا من قرى قبائل عسير فقرية الروشن هذه تبعد عن أبها حاضرة عسير بنحو ست مراحل وعلو وادى بيشه القريب من منازل عسير فى السفوح الشرقية يسكنه قبائل من شهران وقد مر الألماع الى ذلك عند ذكر وادى بيشه أثناء =

ألمع ومشارف الجبال ، وجنوباً بمنازل قحطان وبعضاً من شهران ، وشمالا بمنازل قبيلة بللحمر أو المكان المعروف بالدرجة وهو السهب الممتد إلى

= مرورنا عليه وذكر بعض قبائله وسكانه أما تربه فهى أقرب إلى الطائف إذهى فى الجنوب الشرقى عنه ولاتبعد عنه بسوى تسعين ميلا على ماجاء فى كتاب « جزيرة العرب فى القرن العشرين» وقد سبق وصفها عند المرور عليها وأنها من قرى قبيلة البقوم وهى لم تحسب من قرى عسير حتى على عهد الترك ولم تصل مغازى أمراء عسير اليها حين استقلالهم بالامارة ، وليس صاحب كتاب مهد العرب وحده الذى عد هاتين القريتين من قرى عسير بل كثير ممن كتب عن عسير عدها منه كصاحب كتاب « جزيرة العرب فى القرن العشرين» وصاحب « قلب جزيرة العرب » وغيرهما عدوهمامن قرى عسير وأوديتها متأثرين فى ذلك إما بالتقسيم الادارى فى عهد حكم الترك للبلاد أو بماامتد اليه نفوذ آل عايض أمراء جبل عسير واستيلاؤهم على بيشه وبعض القبائل المحاذية لها من سكان جبل السراه .

أماالتقسيم الادارى فى عهد الترك فقد كان يهدف لمصالح مالية لم تراع فيه حدود القبيلة الصحيحة وذلك لأن الحجاز على عهدهم كان معفيا من الرسوم والضرائب فمدوا حدود مارتبوه فى متصرفية عسير إلى كثير من القرى والقبائل التى كانت تحسب من الحجاز وألحقوها بولايه صنعاء ولاأظن أن امتداد نفوذ آل عايض أيام قيام امارتهم فى جبل عسير من المسوغات المقبولة فى اعتبار ماليس من الاقليم وعده منه فانها حالة قابلة للتبدل والتغير والامتداد والانكماش على أن هذه الأودية الثلاثة أى وادى بيشه ووادى تربة ومابينهما وهو وادى رنيه كانت على عهد قيام امارة الشرفاء فى الحجاز مباءات جدال وادعاء ومثار نزاع بينهم وبين الأمراء السعوديين أمراء نجد ، والخلاف عليها كان القدحة الأولى فى زند القتال والحرب الذى وقع بينهم وانتهى بما انتهى اليه من الوضع الحاضر فى الجزيرة .

ورغم أن صاحب كتاب« جزيرة العرب فى القرن العشرين» كان مدركا لما ذكرته فقد قال فى ص ٤٢ عند الكلام على بيشه « وقد حكم الأشراف — يعنى بهم أشراف مكة - قديما هذه المنطقة قبل الحركة الاصلاحية فى نجد ففى تاريخ العصامى كثير من اخبار الأشراف فى بيشه ،

وللاتصال الشديد بين بيشه ووادى الدواسر كانت هذه المنطقة موضع نزاع بين الأشراف ونجد ،

منازل بللحمر . وجاء فى كتاب فى بلاد عسير أن بلاد القبيلة المعروفة باسم « قبيلة عسير » تتألف من الجبال والأودية والسهول الواقعة بين أعلى سراة

= كما قال أيضا قبل ذلك فى ص٤١ « ومع أن الأتراك قد كونوا متصرفية عسير وجعلوها تابعة لولاية اليمن فقد كان أشراف الحجاز يدعون تبعية بعض المناطق المجاورة للحجاز كما أن أمراء نجد أيضا يدعون ملكية بعض المناطق من الجهة الشرقية» ورغم ذلك فانه عدها من قرى عسير كما عد تربة أيضا .

وما ذكره ياقوت فى معجمه عند الكلام على وادى بيشه صريح بأنه من أعمال مكة . أما اليوم فأن عسير والأودية المذكورة أصبحت جزءاً من المملكة العربية السعودية « وقطعت جهيزة قول كل خطيب » .

وإنى لأسأل الله مخلصاً أن تعم الوحدة والاتحاد سائر أقسام الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها فلا عزة لها ولا منعة ولا سلامة من مطامع المستعمرين الا بهما .

رابعا — أن صبيا - وإن كانت من مدن تهامة أى تهامة المحاذية لجبل عسير ، لأن العرف جرى بتمييز كل قطعة من تهامة بما جاورها من أقاليم ، فيقال تهامة الحجاز وتهامة عسير وتهامة اليمن ، فقبائل عسير المعروفة بهذا الاسم اليوم لا تمتد منازلهم اليها ، ولم يسبق لأمراء صبيا أن كانوا حكاماً لجبل عسير بل أن أمير « أبو عريش » من مدن تهامة وهو الشريف حمود المعروف بأبو مسمار استولى على عسير عام ١٢٣٣ فى أثناء فترة الاضطراب الذى حصل من مهاجمة جيوش محمد على باشا والى مصر للجزيرة ، ومحاربة السعوديين فيها وكان استيلاؤه فى ومضة من الزمن قصيرة لا يعتد بها ولا تعتبر ، أما ما حصل بعد ذلك وبعد أن أستتب الأمر للأمير عايض وسلفه على ابن مجثل من أمراء عسير فهو أنهم أغاروا على تهامة وانتزعوا صبيا من أمير أبو عريش وحكموها .

نعم إن السيد محمد الادريسى أول الأمراء الأدارسة فى صبيا حاول أثناء عهد الترك فى عام ١٣٢٩هـ الاستيلاء على جبل عسير وحاصر أبها مركز الحامية التركية والمتصرف » بممالأة أحفاد الأمراء آل عايض وبعض قبائل عسير كرها منهم فى الترك ولكنه فشل فى محاولته هذه بمناهضة أمير مكة الشريف الحسين بن على له وفكه لحصار أبها .

وحاول ذلك أيضاً مرة ثانية بعد انسحاب الأتراك من جبل عسير عقب الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٧ وكاد آل عايض يرضخون له ويكونون له اتباعا =

الأزد فى الغرب وبلاد شهران فى الشرق وبلاد قحطان فى الجنوب وبالأحمر وبالأسمر فى الشمال ، وبعبارة أخرى هى بلاد واقعة بين جبل تمنية وعقبة

ـــ ولكنهم نكلوا فيما وافقوه عليه وحاربوه ودحروا جيشه كاذكرت ذلك تفصيلا فى تاريخ عسير السراة الملحق بهذه الرحلة .

واقليم تهامة هذا كان ذا كيان سياسى قائم بذاته تحت امارة الأشراف آل خيرات ملحق اسميا بحكومة صنعاء إلى عهد استيلاء آل سعود عليه فى عهدهم الأول عام ١٢٢٠ هـ بواسطة من تَنَصَّبَ تحت نفوذهم من أمراء عسير .

فلما انحلت جامعة آل سعود عادت الامارة الى سابق عهدها وظلت كذلك إلى أن زحف الترك زحفهم العام إلى اليمن وماجاوره فى عهد السلطان عبد العزيز عام ١٢٨٥ — ١٢٨٩ فزالت امارة الأشراف آل خيرات من أبو عريش فى تهامة كما زالت امارة آل عايض فى جبل عسير وظل الاقليمان تحت ولايتهم المباشرة وشكلوا فيها متصرفية كما سبق ، الى أن نشأت امارة السيد محمد الادريسى فى صبيا بتهامة عام ١٣٢٦ هـ على ما ألمعت إليه عند الكلام على صبيا من هذه الرحلة .

وكان اقليم تهامة هذا يعرف فى عهد الاشراف « بالمخلاف السليمانى » ولازال فى أهله من يسميه بهذا إلى اليوم .

والمخلاف فى عرف اليمانيين يطلق على المقاطعة أو الناحية فيقال مخلاف صنعا ومخلاف صبيا ومخلاف بيشْ ، وهكذا .

ووجه تسميته هذه المقاطعة بالمخلاف السليمانى ، هى نسبتها إلى رجل أخال أنه حكمها فى غابر الزمن . يعرف بسليمان بن طرف الحكمى ، وجدت ذلك فى وريقات من كتاب بالى بخط اليد فى قرية رجال أظنه يبحث فى الأنساب جاء فيه .

« وأشراف المخلاف السليمانى وهو مخلاف « سليمان بن طرف الحكمى » وهم أكثر سكانه فى عصرنا هذا وماقبله ، قال الناشرى فى كتاب «الدرر» أخبرنى السيد العالم الطود الشامخ الاشم ، مشرع المكارم والحكم ، الفقيه العلامة الأمين ، المحتوى على جميع الفنون ، أحمد بن عيسى بن محمد بن سليمان بن محمد بن سالم بن يحيي بن مهنا بن سرور ابن نعمه بن فلتيه بن الحسين العابد بن يوسف بن نعمه بن على بن داود المحمود بن سليمان بن عبد الله البر بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب أخبرنى السيد المذكور أن سكان المخلاف من الشرفاء من ولد سليمان بن على بن داود فولد لسليمان ولدان هما يحيي وعلى ومنهما انتشرت ـــ

القرون وروابى ركان الممتد إلى الحقو فالبحر من جهة الجنوب ، وبلاد بنى شعبة وربيعة اليمن ورجال ألمع ووادى حلى من جهة الغرب ، وعقبة شعار ووادى تيه والسهب الممتد إلى بلاد بالأحمر من الشمال ، وسلسلة الهضاب والسهوب المتصلة ببلاد شهران من الشرق . وإذا قست المسافات بالساعات للمشاة كانت المسافات من شعار فى الشمال إلى تمنية فى الجنوب ثلاثاً وعشرين ساعة بالمشى السريع .

وأما المسافة من الشرق إلى الغرب فإنها تقرب من المسافة التى من الشمال إلى الجنوب إلى أن قال : وعلى هذا الاعتبار تكون قبيلة بلاد عسير عبارة عن بقعة من الأراضى الجبلية يبلغ طولها خمسين كيلو مترا وعرضها أربعين كيلو مترا .

أهل الكهف أو موتى الكهوف

وعلى ذكر جبل تمنيه الواقع جنوب بلاد عسير ، ولا يبعد عن أبها بأكثر من ثمان ساعات أذكر أن به غاراً فيه بضعة أموات يقول أهالى أبها إن لهم أمداً طويلا وهم فى هذا الغار تيبست جلودهم عليهم ، ولم يتطرق إليهم البلى والانحلال ، وعد صاحب كتاب فى «بلاد عسير» أن وجود الغار ومن فيه من الأموات زعم من أهل البلاد وليس الأمر كذلك ، فان الغار ومن فيه حقيقة قائمة فقد ذكر لى ذلك كثير من أهالى أبها أثناء وجودى بها ولكن لم أعر الموضوع اهتماماً ولم يتيسر لى وصول تمنيه فأتحقق مما قيل ، غير أنه منذ سنتين

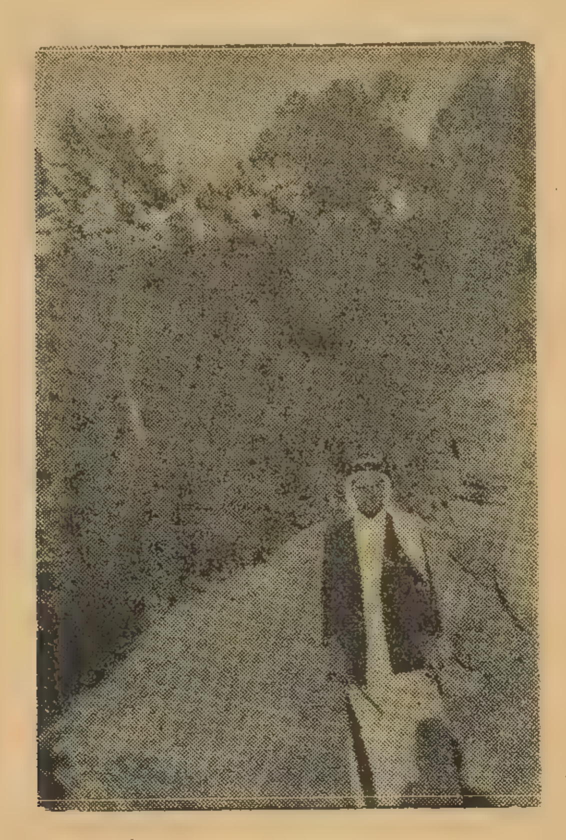
= الذرية فمن ولديحي أبو الطيب غانم ومنهم أمراء بيش وجازان وباغته إلى آخر ماجاء فى الورقتين المنوه عنهما .

كما أنى عثرت فى معجم ياقوت للأدباء ص ٨٦ ج ١٤ فى ترجمة على بن عيسى بن وَهَّاس «الأمير نقلا عن دَهْمَس بن وَهَّاس بن عَشُود بن حازم بن وهاس الحسنى أن على بن عيسى مات فى مكة فى سنة نيف وخمسماية ، وكان فى عشر الثمانين وكان أصله من اليمن من مخلاف بن سليمان » مما يدل أن تسميتها بالمخلاف السليمانى قديمة جداً .

ذكر لى صديق يعمل مفتشاً فى مديرية المعارف بأنه تيسر له فى أثناء دورة تفتيش قام بها فى تلك الجهة الوصول إلى الكهف ، ومشاهدة من فيه من الأموات فأثار قوله هذا . الرغبة فى استجلاء حقيقة أمر هذا الكهف ومن فيه ، وكان صديق وزميلى الأستاذ عيسى فهيم لا يزال يعمل موظفا فى تلك الجهات وهو الآن معتمد للمعارف فى أبها ، فكتبت إليه راغباً الوصول إلى الكهف والتحقق من أمره ، وما يحاك حوله من أساطير فقام بهذه المهمة وبعث إلى بالبيان الآتى .

تقع تمنيه فى الجنوب الشرقى عن أبها وتبعد عنها سبع ساعات على الدواب وساعة أو تزيد على السيارة وذلك لصعوبة طرقها .

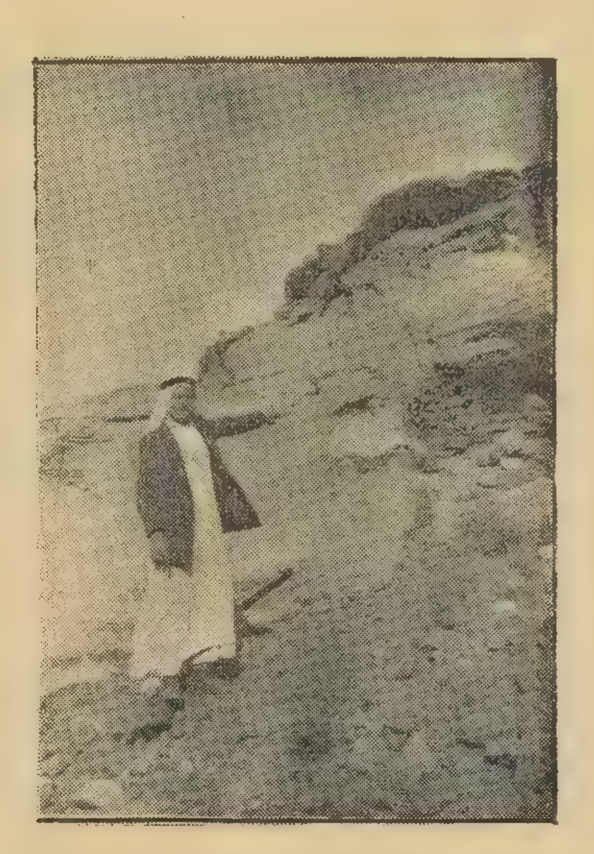
وتمنيه عبارة عن واحة خصبة تتفجر منها ينابيع المياه بغزارة ، وأرضها



« منظر من مناظر الطريق إلى تمنية والكهف »

صالحة جداً للزراعة ، وهى مرتفعة عن سطح البحر بثمانية آلاف قدم تقريباً أما أهلها فتغلب عليهم السذاجة والبساطة فى كل شىء .

والغار المشهور يقع فى موضع يسمى «الشرحة » أو «أم شرحه» كما يسمونه أهل تمنيه ، والشرحة هذه جبل شامخ فى العلو يفصل بين تمنيه وتهامة وفى قمته يقع الغار متجها نحو الجنوب الغربى واتساعه ثلاثة أمتار فى مثلها .



« صورة الغار والأستاذ عبد الرحمن البجاوى يشير إلى فتحته بعصا فى يده »

ويبلغ عدد الأموات الموجودين داخله أربعة نفر فقط ، أولهم مما يلى فم الغار رجل مستلق على ظهره شاخص ببصره ، عظيم الجثة ضخم الجسم ، فطفل صغير، يليه امرأة مضطجعة على شقها الأيمن ومحتضنة هذا الطفل ، وفى احدى

أصابع يدها خاتم صغير قد بلى جداً ، فشاب طويل نحيف خلفها ، وهو أيضاً مضطجع على شقه الأيمن .

وجميع هؤلاء الأربعة عراة ليس عليهم أكفان أو ثياب البتة ، وليس هناك ما يدل على أنه كانت عليهم أكفان أو ثياب ، وقد ضمرت أبدانهم ويبست جلودهم حتى أصبحت كالشن القديم ، وانمحصت أشعارهم فليس لها أثر فى الجمجمة ، أما جلدة الوجه فقد زالت كلياً غير أن الأسنان لازالت سليمة — أما العينان فهما غائرتان ، أو أن الحدقتين قد يبستا فى داخل العين ، وبالجمله فليس صحيحاً كل مايقال عنهم ، واعتقد أنه لا يمكن حملهم إلى مكان بعيد إلا بمشقة كبيرة إذ أنه يخشى تحطم هيكل الجسم من المفاصل التى أصبحت عارية عن اللحم والعصب .



« منظر قدم أحد الأموات بادية من طرف الكهف »

ولا يعرف جميع أهل تمنيه عن هؤلاء الأموات شيئاً البتة ، وقد سألت أحدهم وهو يبلغ من السن سبعين سنة ـ فيما زعم — عن أصل هؤلاء الأموات وعن الشائع عنهم ، فأجاب بأنه وجميع عشيرته لا يعرفون شيئاً عن هؤلاء

الأموات وعن الشائع عنهم ، كما أن والده ومن فى عصره لا يعرفون شيئاً أيضاً عنهم .

وقد تحسست الأخبار من كثير منهم فلم أظفر بنتيجة ، فكلهم لا يعلم شيئاً ولا يروى عن آبائه خبراً .

وتبعد الشرحة عن تمنيه بكيلو متر تقريباً وليس فيها مقابر عدا هذا الكهف غير انى قد عثرت على كهوف أخرى جنوب تمنيه تبلغ الثلاثة مملوءة بالأموات رجالا ونساء وأطفالا ، وبعضهم فوق بعض على غير ترتيب وقد ميزت الرجال عن النساء بثيابهم البيضاء ، كما أن النساء معروفات بثيابهن السوداء ومعهم « قرب » للماء قد استشنت . وأما هذه الكهوف فتتجه نحو القبلة ، وقد سألت أهل القرية عنهم فاجابوا أيضاً بأنهم لا يعلمون عنهم شيئاً . الأمر الذى حقق لى جهلهم وغباوتهم المشتهرين بهما . وسكان تمنيه من بنى مالك وهم ملحقون بعسير ، كما أنهم غير بنى مالك المعروفين شمال أبها ، أما أسماء القرى التى يمر بها القاصد إلى تمنيه فأولها الشرف وتبعد عن أبها بثلاثة أرباع الساعة ، وهى تابعة لقبيلة بنى مغيد فبلاد آل سرحان التابعة لقبيلة شهران ، ثم تبدأ تشاهد القرى الصغرى المتبعثرة عن يمينك وشمالك ووراءك ، وبعضها لا يحتوى إلا على بيت أو بيتين حتى تصل « المسق » ، وذلك بعد ثلاث ساعات متواصلة ، وبعد المسق بكيلو واحد يكون سوق يوم الاثنين الذى يجمع كل هؤلاء السكان فى الأسبوع مرة واحدة ، وتكون تمنيه بعد هذا السوق بساعة واحدة

هذا ماجاء من زميلى المشار إليه ، والذى اعتقده فى أمر هؤلاء الأموات أنهم أناس من أهل هذه الجهة فى أثناء موجة من موجات الأوبئة التى كانت تجتاح هذه النواحى ، لاسيما فى العصور السابقة ، علق بهم المرض وهم يسيرون فاقعدهم عن القدرة على المشى فالجأوا إلى هذه الكهوف محتمين فيها من عوارض الطبيعة وعوادى السباع ، وأرهقتهم العلة فماتوا وظلوا بالكهف ، على أن الظاهرة التى تستلفت النظر هو عدم تحلل أجسادهم بالسرعة المعتادة ، وحبذا لو أن الحكومة عنيت بنقلهم ودفنهم لينقطع ما يخامر عقول بسطاء البدو وجهالهم من شأنهم ، فيحوكون حولهم الأوهام والأساطير

أبها مركز مواصلات هامة

وتتفرع من أبها أربعة طرق رئيسية . أحدها مما يلى الشرق ومنه تأتى السيارات القادمة عن طريق بيشه وخميس مشيط ، ويوصل إلى وادى الظهران ووادى نجران .

وثانيها : وهو فى الجهة الشمالية يوصل إلى قرية مَحايل فالقنفنده على الساحل فى تهامه وإلى قبيلة بللحمر وما يتلوها إلى الطائف عن طريق السراه ، وفى هذا الطريق إلى محابل عقبة تسمى « شعاراً » هى رأس وادى تَيَّه

وثالثها : وهو فى الجنوب الغربى من أبها يوصل إلى درب بنى شعبة ومنه إلى صبياً فجيزان على الساحل ، وفى هذا الطريق عقبة تسمى ضلع ، أو . ضلاع هى رأس وادى باسمها ينصب فى وادى عتود الغربى ويلتق به

ورابعها : وهو فى الشمال الغربى من أبها عن طريق قرية السودا يوصل إلى قرية الشعبين حاضرة قبائل ألمع ومقر الأمارة لهم فى الوقت الحاضر ، وفى هذا الطريق عقبة تسمى « الصماء » هى رأس وادى العوص وهى أكبر مما فى الطرق الأخرى من عقبات ومنها كان طريقنا إلى رجال

فى طريقنا إلى رجال

أقمنا فى أبها ثمانية أيام ، وفى يوم السبت ٢٣ من ذى القعدة سنة ١٣٥٩ شددنا رواحلنا قاصدين رجال ورافقنا فى طريقنا هذا ، الأستاذ عبد المالك مدير مدرسة أبها ، وكانت حركتنا حوالى الساعة السادسة أى قبل الظهر بقليل ومراكبنا الحمير بعد السيارة

سرنا فى طريق جبلى نهبط تارة ونعلو أخرى ، حتى شارفنا قرية (البَدْلَه) بعد ساعتين تقريبا وهى قرية على مسيل شعب شهدنا فيه غديرا مترعا بالماء

تركنا البدلة ولا زلنا فى ارتفاع مستمر ومنظر الجبال أجرد من الخضرة على مثال ما تركناه خلفنا إلى ان وصلنا قرية صغيرة تسمى (غاوَهْ)

من هذه القرية ابتدأ اخضرار الجبال مما عليها من شجر العرعر وغيره من النباتات ، وفى الساعة العاشرة بعد العصر وصلنا قرية « السُّودَا » بعد أن مررنا بقرية صغيرة أخرى تسمى (محصان)

قرية السُّودا

والسُّودَا قرية ململة بيوتها من الحجارة ملزوز بعضها فى بعض ، كأنها كومة واحدة من البناء ، مؤلفة من طابق واحد قائمة على قمة جبل وهى من أرفع قرى عسير ، فارتفاعها عن سطح البحر يبلغ على ما قيل لى ألفين وأربعمائة متراً[1] وهى تتبع قبيلة علكم احدى قبائل عسير كما مر .

وتحيط بالقرية مروج خضراء من سلسلة المزارع التى أنشأها أهلها فى الوهاد الواسعة والمصاطب العريضة المحدقة بالقرية

وكان الموسم موسم زرع الشعير فشهدنا حقوله بعد أن شقق الأرض واستوى بقدر شبر كأنها بسط سندسية فى غاية البهاء وحسن المنظر

ومزارع السودا مشهورة بجودة ما تنتج من الحنطة ، وأتذكر أننى قرأت فى معجم صغير ألفه الأستاذ رشدى ملحس عن قرى الجزيرة أن فى قرية السودا أو على مقربة منها منجم للحديد عظيم

لم نعرج على جمهرة بيوت القرية ، بل قصدنا بيتا متطرفا فى منحدر من سفح الجبل كما استحسن ذلك لنا المكارى ، حططنا رحالنا وبيتنا ليلتنا ، ومن حسن الحظ أنها كانت ليلة دافئة نسبيا ولم تكن شديدة البرودة كما كنا نتوقع فقد خبرت درجة الحرارة فى السحر فلم تهبط عن ست درجات فوق الصفر

---

(١) ذكر صاحب كتاب « فى بلاد عسير » أن ارتفاع قرية السودا عن سطح البحر ١١٤٢٠ قدما وذكر المستر فلبي فى مصوره أن ارتفاعها ٢٩١٠ أمتار

مع انه اخبرنا من نحن فى بيتهم من أهل القرية أن الماء كثيرا ما يجمد لديهم وهو لا يجمد إلا إذا انخفضت درجة الحرارة إلى الصفر فما تحت

وهواء السودا هواء منعش ، وهى جيدة المناخ لأرتفاعها ورغم ذلك فان أهل البيت الذى حللناه كانوا مرضى بنوع من أنواع الحمى الخبيثة المعدية أظنها « التيفو » أو براتيفو ، وهم يسمونها « الهفة » تأتيهم على شكل وباء ماحق ، فقد قالوا لى إن هذا الوباء اجتاح قريتهم منذ شهرين فاستؤصلت منهم أسر وخليت منهم الدور

شهدت فيهم غلاماً لم يتجاوز العاشرة ، أبل من مرضه كان مضطرب النظر كالمشدوه وقد أمسى من الضعف كأنه هيكل عظمى يتكلم

وكم يأسف المرء للجهل المطبق على أهل هذه الجهة ولما هم فيه من قذارة وعدم اعتناء أو تحرز ، رأيتهم يتركون ما لديهم من آبار ويستقون الماء من النجول والمستنقعات ، غير آبهين بما هى عليه من وخامة وتلوث ولا أظن انتشار هذا الوباء لديهم إلا من هذه المياه الملوثة

جبـــل تَهْلَلْ

روضة ومفاتن

تناولنا الفطور وحزمنا أمتعتنا على الحمير ، وفى الساعة الثانية بعد الشروق استأنفنا السير وبعد برهة وجيزة انفسح أمامنا الطريق ، وبدت لنا سطحة تهلل المشهورة[1] وهى سطحة واطئة الذرى تنتشر عليها أشجار العرعر وشجيرات الشث وما شاكله من النباتات البرية ، كالضيراء والبعيثران ذى الرائحة الزكية الفياحة ، وكان لمنظر أشجار العرعر المتشابكة فى بعضها البعض وما يزاحمها من الشجيرات المنبثة تحتها وسجع القمارى وأغاريد مختلف أنواع الطير وسكون الهواء إلا من نسيم عليل رطب ـ أثر سرور عميق فى النفس ، فيه

(١) ذكر صاحب كتاب « فى بلاد عسير » أن ارتفاع سطحة جبل تهلل عن البحر ١١٠٠٠ قدماً .



« منظر من مناظر سطحة جبل تهلل »

من المتعة والاستئناس ما لايمكن لمثلى تصويره ووصفه ،والتعبير عنه أصدق تعبير ، وأبهج مارأيناه من المناظر الخلابة الرائعة ـ منظر قطع السحاب وهى تتماوج على ذرى جبال تهامة الواطئة عنا ، مماخيل لنا معه ونحن ننظر إليها أن السماء أقرب إلينا من الأرض

مناظر فيها من الحسن والمفاتن ما يجعلها جديرة بعبقرية الشعراء وأرباب الخيال الواسع السامى والحس الرهيف لتصويرها بما تستحقه من وصف

سرنا مأخوذين بهذا المنظر الساحر حوالى نصف ساعة ثم بدأ الطريق يتلوى بين صعود وهبوط مع بقاء اخضرار الجبال والربى إلى أن وصلنا قرية صغيرة تسمى الشرف حوالى الساعة الرابعة والنصف نهاراً

وقرية الشرف هذه تخص سكان وادى العوض من قبائل المع وهى فى رأس عقبة الصماء عبارة عن بضعة بيوت متناثرة سقيا مزارعها على المطر وفى أول العقبة بئر عذبة الماء منها يشربون

وقفنا هنيهة ريثما أحكمنا حزم أمتعتنا على الحمير ، ثم سقناها أمامنا

واستأنفنا السير مشاة لأن الطريق فى أول العقبة بل وفى كثير من أقسامها لولبى ضيق ، شديد الانحدار يسير المرء فيه على حافة مهاو — لايعدو عرض الحافة نصف الذراع — سيراً مريعاً يكاد يصل درجة الخطورة .

ظللنا نتابع السير مشاة ونحن على حالة من الهلع خشية السقوط والانزلاق فمشينا كان صَبَباً وترنحاً بما تطأعليه أرجلنا من ضروس الأحجار النائتة نطمئن تارة ونضطرب أخرى إلى أن وصلنا نهاية العقبة فى حوالى ساعتين ونصف من الزمن فوجدنا سلسبيل ماء ينساح على صخرة ويتدفق منها يسمى (العُرقُوب) .

جلسنا عند السلسبيل تحت ظل بعض الأشجار النابتة بين الصخور والأحجار وتسارعنا إلى الماء نرشف منه بأفواهنا فكان عذبا فراتا زاده لذة وهناء ما لاقيناه من عناء وجهد فى العقبة .

وبعد أن تناولنا طعامنا وأوقدنا السموار[1] لنصنع الشاى ـ اتكأ كل منا على مرفقه فوق الأحجار مصوبا بصره إلى معارج هذه العقبة الكؤود نشهد سير الجمال التى تركناها خلفنا بأحمالها الثقيلة ونزولها من حيث نزلنا تجمع أرجلها مرة وتبسطها أخرى حسبما تتبينه من المواطئ ، والجمال المسكين آخذ بذنب الجمل يتمطع فيه تارة ويندفع معه أخرى موازنا سيره خوفا عليه من السقوط والانقلاب .

وعجيب أن يتأتى للجمل مع ضخامته وسموقه وما عليه من حمل ـ أن يسير فى هذه الطرق الوعرة المتكسرة الضيقة المسلك .

فى مثل هذه الديار والطرقات التى لا يستطيع المرء أن يحمل فيها نفسه

---

(١) السموار كلمة روسية معناها المتوقد من نفسه ومن روسيا عن طريق التركستان عرف اهل الشرق الأدنى والأوسط هذه الآلة لغلى الماء خصيصاً فى صنع الشاى .

فضلا عن متاعه تتجلى له منة الله تعالى ويلمس معنى قوله « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » .

ونحن فى مجلسنا هذا لمحنا بعض الرعاة وصبيتهم يسيرون ركضاً خلف أغنامهم فى جوانب الصخور والشعاب التى لامسالك فيها بالمرة لجمع ما تفرق من الأغنام بكل خفة وسرعة كمشى أحدنا فى طريق معبد مستقيم .

ذلك فضل المران والاعتياد وما يكسب النفس من قوة العزيمة والاطمئنان .

وبعد أن شربنا الشاى شددنا على الحمير ما كنا قد أنزلناه من أمتعة لنرتفق

به . وبدأنا السير فى وادى العوص واخضرار الجبال بالأشجار لم يزايلنا إلا أن شجر العرعر تلاشى ونحن فى أوائل العقبة ، لأن العرعر لا ينبت إلا فى الأماكن الباردة المرتفعة وهو شجر يشبه فى منظره شجر الصنوبر المعروف وخلفه شجر الأثب وهو شجر غليظ الساق دوحى الأغصان قاتم الخضرة يشبه ورقه ورق الدفلى فى عرض عنه .

وادى العوص

ووادى العوص واد طويل كثير الأشجار البواسق فشجر الأثب والسدر ، والجميز ويسمونه (إبرا) منتشر فيه بكثرة تتخلله شجيرات خضراء داكنة كأنها القباب الصغار تسمى « المَضْ » فالوا أن فيه شروا[1] وجنياً للنحل جيداً فاستطلعت زهرة من أزهاره فوجدت فى أسفل محقنها قطرة لزجة فيها شىء من الحلاوة .

سرنا فى وادى العوص حوالى ساعتين باغتنا أثناءها ونحن نسير حنش خلت طوله ثلاثة أمتار تقريباً أسود الأعلى والأسفل أصفر الوسط فى غلظ

---

(١) الشرو والشرو بالفتح والكسر لغة العسل .

زند الطفل نفر من خشخشة أرجل الحمير وانساب بين الأشجار فتركناه كما تركنا .

قرية الشعبين

وفى الساعة العاشرة وصلنا قرية الشعبين وحططنا رحالنا ضيوفاً على دار الأمارة ولم يكن الأمير موجوداً لأنه على رأس الحملة التى ذهبت لتأديب قبيلة الصواعقة لتأبيهم عن دفع الزكاة المشروعة (١) . فاستقبلنا ابنه وأنزلنا فى دار تقابل دار الأمير وبعد أن استقر بنا المقام أخذنا أحد ُخوِيّا الأمير إلى مجلس الأمارة وهو عبارة عن حجرة أرضية مفروشة بالحصير فيها دكاك من اللبن يمتاز مجلس الأمير فى صدرها بناتئتين كساعدى الكرسى . وعلى الدكاك ِشمال (٢) مستطيلة لم تواجه صفحتها المكنسة منذ أيام .

وبعد أن تقهوينا علمنا أن الهيئة المختصة للتجوال والتفتيش على سير الأعمال الإدارية فى هذه الانحاء قد انتهى بها المطاف إلى قرية الشعبين صباح يوم وصولنا إليها فخففت والأستاذ عبد المالك للسلام عليهم لأنى أعرف بعض أعضائها وهما الشيخ صالح قزاز والشيخ محمد الحابس وبعد السلام والتحية تعارفت بالعضوين الآخرين وهما الشيخ محمد البيز والشيخ فيصل المبارك وقضينا لديهم برهة سألونا عن سير الحرب القائمة إذ ذاك وحوادثها لقرب عهدنا بالمذياع «الراديو» فى أبها فاخبرناهم بما لدينا منها ثم رجعنا وتناولنا العشاء بدار الأمارة وكان عبارة عن صفحة من الأرز وسليق اللحم ليس إلا .

---

(١) الصواعقة بطن من قبيلة شحب إحدى قبائل ألمع .

(٢) الشمال وأحدها شملة بسط من الصوف مستطيلة ومربعة معروفة فى الحجاز تشبه الكليم إلا أنها أخشن وبراً وأغلظ خيطا .

والشعبين قرية بيوتها من الحجارة قائمة على حواف شِعب من الشعوب المنحدرة من الجبال المطلة على القرية تشرف على ملتقى وادى العوص بوادى حلى . ولذلك فأفق الناظر منها فسيح أمامه .

وهى قليلة الدور لا يتجاوز سكانها الثلاثمائة نفراً .اجتاحها الجدرى فى هذه الأونة فأهلك من أهلها ما يناهز السبعين شخصاً وفيها يقام سوق يوم الأحد من كل أسبوع عظيم بالنسبة لبقية أسواق قبائل المع . جئته مراراً لشراء ما يلزمنا وشهدت فى معروضاته الموز يجلبه إليه « بنو زيد » سكان وادى « ثاهْ » لوفرة المياه فى واديهم .



« منظر سوق الشعبين أثناء قيامه يوم الأحد »

وأغلب ما يعرضونه منه حبات مفروطة يبيعون الحبة منه فى الأغلب بقرش والقرش من ابها إلى جيزان هو نصف قرش سعودى .

ولا يزال للريال الفرنسى قيمة ومدار فى البيع والشراء بل كثير من البدو يستنكفون عن قبول غيره ويعرفونه (بأبو صرة السلطانى) (١).

وماء آبار الشعبين أقل حلاوة مما تركناه خلفنا من مياه .

(١) الريال المذكور ليس من عملة حكومة فرنسا وإنما هو ريال نمساوى ـــ

الوصول إلى رُجَالْ

بتنا ليلتنا ولما أصبحنا رأيت والأستاذ عبد المالك أن نترك الأمتعة وبقية الرفاق ونذهب منفردين إلى قرية رجال وهى قريبة من الشعبين لا تفصلهما سوى عقبة تسمى « رَزْ » تماثل عقبة النقب الأحمر فى طريق الطائف الجبلى أو تزيد عنها قليلا فى صعوبة المسلك .

كارينا على حمارين ركبناهما ركوباً « صدق أو لا تصدق » المشى أفضل منه وبعد أن اجتزنا العقبة وسرنا بضع دقائق وصلنا قرية رُجَال واتصلنا فيها بالشريف عبدالله الحازمى مأمور المالية إذ ذاك فاستقبلنا أحسن استقبال لايزال طيب أثره فى نفوسنا وقررنا واياه أن يكون مقامنا فى رجال فى إحدى دورها كيفما اتفق ثم بعد أن يستقر بنا المقام نتخير الدار الصالحة لأن تكون مدرسة

وتغدينا على مائدة المشار إليه وقدم بقية الرفاق بالأمتعة آخر النهار ، فأمعن الشريف فى الاكرام وأبى إلا أن يكون عشاؤنا جملة عنده أيضاً

رتبنا أمتعتنا فى المسكن المؤقت الذى تحصل لنا عليه الشريف عبد الله وبتنا ليلة ذلك اليوم على حالة عادية وبات معنا الأستاذ عبد المالك تلك الليلة وليلة أخرى قفل فى صبيحتها عائداً إلى أبها . وأخذنا نحن فى افتتاح المدرسة واستقبال الطلبة وما إلى ذلك

قرية رُجال[1]

وقرية رجال فى صدر واد صبب يسمى « وادى كِسان» يمتد بقدر مرحلة

= أخال أنه عرف التعامل به فى الجزيرة والحبشة على عهد استيلاء البرتغال لبعض سواحل الجزيرة فى عام ١٥١٥ م ولكنه الآن قد انقرض أو كاد فقد شددت الحكومة فى تحظير استعماله والتعامل به .

(١) رجال على وزن غراب هكذا وجدتها مضبوطة فى رسالة « نفح العود فى سيرة الشريف حمود » لحسن بن أحمد بن عبد الله الهكلى وهى مخطوطة اطلعت عليها عند بعض الحفاظية من سكان رجال وهكذا ينطقها سكان القرية .

ولا يخلو محيطها من شجر الأثب والجميز والسدر ، ولهديل الحمام المطوق على أغصانه وتغريد الطيور لا سيما المعروفة عندنا (بالنُّغْرِى) — أصوات شجية مطربة خصوصاً فى الصباح الباكر مع لطف الهواء وبقية طراوة نسمات الليل .

وقد مضت علينا فى رجال أول ما قدمناها بضعة أشهر كانت غاية فى الاستئناس والابتهاج .

فقد كان المطر لا ينقطع عنا أثناءها أياماً متتالية بل قد يدوم تهتانه أسبوعاً كاملا على وضع فى نهاية اللطف والجمال .

فما أن تزول الشمس حتى نشهد قطع السحاب قد بدأت تنفلت من خلف ذرى الجبال المحدقة بالقرية متجمعة متكاثفة على سمائها فاذا ما أطبق السحاب عليها من سائر الجهات أرسل مطره منهملا أحياناً ورذاذاً أحياناً إلى ما قبل الغروب بساعة أو ساعتين ثم تنقشع السحب وتصحو السماء .

وكنا قد انتقلنا من البيت المؤقت إلى بيت من أجمل بيوت القرية واقع فى فم شعب على نهد من السفح مؤلف من طابقين فى كل طابق حجرتان متسعتان تتقدم البيت ردهة براح وتعلوه حجرة صغيرة تنفذ إلى سطحه .

فكنا بعد أن تصحو السماء نبرز بالكراسى والدكاك ، إما إلى ردهة البيت أو على السطح ونجلس مستمتعين بالنظر إلى ما خلفه نزول المطر من نقاء وصفاء وانتعاش فى الحجر والشُجر وكل مافى القرية .

وقد يستمر بنا الجلوس والسمر فى الليالى القمراء إلى آخر الربع الأول من الليل وكثيراً ماكان يضوى إلينا قاضى القرية وبعض وجهائها فنتجاذب شهى الحديث فى مختلف المواضيع . سويعات وليال مرت ماكان أحلاها .

بيوت قرية رجال

وجميع بيـــوت رجال من الحجارة منها ذو الخمس طبقات ويقل منها ذو الطابق والطابقين .

قائمة على حفافى الوادى من الجانبين متراكب بعضها على بعض . ترى البيت الواحد موزع الملكية بين عدة أشخاص لكل شخص طبقة مخصوصة وبعضها قبيح المدخل وكثيراً ما ترى سطح بيت مجازاً وممراً لبيت آخر ونوافذها ضيقة رغم أن لا شدة للبرد فيها فدرجة الحرارة طول فصل الشتاء لم تهبط عن العشرين بكثير .

ويسمون النافذة « كُتْرَه » كأهل ابها .

على أن بعض بيوت أثريائها ووجهائها لا بأس بترتيبه وهندسة بنائه وهى على العموم منقوشة من الداخل على طراز ما وصفت لك من نقوش فى بيوت أبها بل إن أشكال النقوش فى رجال وأوضاعها أجمل وأتقن مما فى ابها وقد علمنا أن أهل ابها اقتبسوا هذه النقوش من أهالى رجال وعرفوها عنهم .

وهم أكثر تحلية وتنميقاً للبيوت من أهالى ابها . غير أن الخضار المتخذ من عيدان البرسيم لا يتخذ فى بيوت رجال لأن البرسيم لا يوجد فيها ولا قريباً منها فمزارعها كلها على المطر لا تصلح لزراعة البرسيم . وليس فيها سوى بئرين للشرب فقط . والمراحيض معدومة فى بيوتها بالكلية عدا بيت أو بيتين لأنهم يستكرهون ما يفوح فى بعض الأحيان منها من الروائح ويستعيبون غشيانها ، وأول من صنع بيت خلاء مأمور للمالية من أهل الحجاز صنعه فى البيت الذى سكناه موقتاً ولكنه كان بيت خلاء وجوده أضر من عدمه لما ينبعث منه من الروائح الكريهة فى كثير من الأحيان . وكان حجة قائمة على صواب رأى أهل القرية فيما يأبونه منها . وغرف البيوت لا تفرش أرضها عادة كما هو فى ابها بل تبلط بالطين ثم يخدد

وهو طرى بجر أربعة أصابع اليد مقوسة بترتيب ظريف يشكل أرض الغرفة بشكل جلد السمك .



محلة مناظر فى رجال وترى البيوت متراكبة على بعضها البعض
وأشجار الجميز بادية بجوار مسجد القرية

وفى أطراف الحجر تدور كراسى من الشريط يسمونها أمقعايد (القعايد) مطلية قوائمها بالقطران أو الُحسن .

وللقطران النباتى شأن عظيم فهم يطلون به قوائم السرر والنوافذ والأبواب ومواعين الماء فهو فى مقام (البويا) وبصفوة القطران وزيته يغسل الرجال والنساء رؤسهم ويدهنونها لقتل ما يتولد فيها من القمل .

وفى استعمالهم للقطران هذا الاستعمال توفيق من الله إليهم لما فى القطران من خاصة قتل بعض الجراثيم وابعاد الهوام والحشرات فهو يلعب دوراً مهما فى الوقاية من بعض الآفات التى لولاه لما أمن انتشارها .

ولابد للقعايد من ارتفاع عن أرض الغرفة بدعائم من الخشب ملبسة

بالطين المبيض المحلى بخطوط مختلفة الألوان وتحت القعائد مما يلى الجدار دكاك فى عرض شبر يضعون عليها بعض الأوانى والمرافق البيتية .

وفى واجهة كثير من البيــوت خوارج مربعة مسقوف بعضها وبعضها مكشوف يظنها الرائى لأول مرة (رواشين) أو (بلكونات) وما هى إلا نواتىء من الأعواد الرفيعة مرصوصة بعضها مع بعض تستعمل إما مغسلا أو مطبخاً ويسمونها (شَنَنَعَة) .

ولا يزيد مافى رجال من الدور عن المائتى بيت موزعة إلى أربعة أقسام: قسمان كبيران يسمى أحدهما (مناظر) والثانى (النَّصُبْ) أو الـكدَحة وقسم بأعلى القرية يسمى (الحرَجَة) وقسم بأسفلها يسمى (عسلة) لا تزيد بيوته عن عدد أصابع اليد . ولا يخلو بيت فى رجال من شىء من البق وله من شريط القعائد خير مأوى وأقوى حصن .

أما بيتنا الذى نزلناه لأول مرة فله الحظ الوافر منه كأنه مقر سلطنته فى هذه البلد .

ولولا ما كان معنا من وسائل الوقاية لما غمضت لنا فيه عين ولما عرفنا معنى الليل على أنه قد يندفع علينا نهاراً فترى الواحد منا شغله الشاغل اللقط والجمع ونفض الثياب للبحث عنه ، حالة كم ضحكنا منها على بعضنا البعض .

وآبار قرية رجال بعيدة الغور وماؤها كماء زمزم حمدناه لما فيه من إدرار ومقاومة للأمساك .

والرياح القوية قليلة الهبوب فيها لشموخ الجبال المشرفة عليها ولذلك ولتراكب بيوتها على بعضها البعض كأنها فى منظرها بعض بيوت مكة يقول أهلها إدلالا بها « رُجال إبْر مكة »[1] .

وتستملح الأرض التى لاهوى بها ولا ماؤها عذب ولكنها وطن

(١) إبر بمعنى ابن فانهم يقلبون النون راء فى النطق كما سيأتى بيانه .



« صورة بعض بيوت رجال وترى الخوارج « الشنعة » بادية فيها »

السوق فى قرية رجال

وللقرية سوق يفد عليها من حولها من القبائل فى كل يوم جمعة واثنين على شكل أسواق القرى وفيها بضعة دكاكين مفتوحة على الدوام .

واعتماد أهلها فى القوت على الذرة والقهوة وأثرياؤها ومتوسطو الحال منهم لا يخلو طعامهم من اللحم فى أغلب الأيام .

واللحم يباع بالأقسام ـ لا بالميزان ويسمونه (شِرْكَهَ) . ـ على شكل ما وصفت لك عند الكلام على (تربه) وأغلب ما يذبحون الماعز

وأسعار الحبوب والسمن اللحم وما شاكله من الانتاجات الداخلية أرخص مما فى ابها .

وطقسها رطب معتدل الحرارة كثير الطل والندى لا سيما فى الليل .

وبعد أن طالت إقامتنا بها وأنسنا بمـــا لاقيناه من طيب المعاشرة فى بعض أهلها حمدناها على ماهى عليه .

بلاد ألفناها على كل حالة ۞ وقد يؤلف الشيء الذى ليس بالحسن

سكان رجال

وسكان رجال عموما لا يزيدون عن الألف معظمهم من بنى ظالم وفيها بيت يعرف أهله بالهنود يحترفون صناعة الحلى من الفضة والمعدن وقد اندمجوا فى أهل القرية وأصبحوا منهم فى كل شيء لايمتازون إلا بمايلمحه المرء فى أفرادهم من استقامة وطول فى الأنف يختلف عن السحنة العربية ويغلب على ظنى أن أصولهم إما من السنود أو البشاورين ومن سكان رجال العائلة الحفظة التى سيأتى التعريف بها .

تقاليـــد وعادات

ولأهل رجال ولع وتفاخر بتزيين غرف بيوتهم بما لديهم من أمتعة بيتية وغير ذلك فتراهم يحيطون سائر جدار الحجرة برفوف ينصبون عليها الكثير من الأوانى كالأطباق والغضائر[1] والأكواب وتحتها (جبنات) القهوة و (دلالها) من مختلف الحجـــوم والأنواع وبعض الأطباق من الصاج المدهون (الشينكو) مخرقه ومعلقة بخيوط فى سائر الجدار مضافا إلى ذلك ما لدى الشخص منهم من مصابيح وفوانيس وسيوف وجنابى وبنادق وما شاكل ذلك . مما يخال للمرء معه أنها دكاكين للعرض لا حجر للسكن .

وهذا ما لم نشهده فيما دخلناه من بيوت ابها حاشا أننى دخلت بيت صديق

---

(١) واحدها غضارَه وهى فى اللغة (على ماجاء فى المنجد) القصعة الكبيرة «فارسية» وأهل نجد وعسير يطلقونها اليوم على ما نقول له نحن فى الحجاز (الزبدية) وفى مصر (السلطانيه) .

أعرس حديثاً . فوجدت ملابس العروس وبعض الأمتعه منثرة فى المكان للعرض ولما سألت قيل لى هى عادة فى أوائل أيام الزواج وهكذا عرفت مثل هذه العادة لدى سكان جبال الحجاز الأدنى للطائف فقد شهدنا زفاف خمس من الصبايا أقيم فى قرية الشعاعيب من قرى وادى ميسان من بلاد ناصرة عرضت ملابسهن وأمتعتهن فى أوائل أيام العرس كهذا العرض .

وأهل رجال فى خلقهم وأخلاقهم وملابسهم لا يختلفون عن أهل تهامة إلا بأشياء خالطتهم من عادات أهل السراه لتوسطها وقربها من السراه ولا يبعد عن الحقيقة من يعدها من أطراف السراه . ومنذ أن هبطنا من عقبة الصماد أخذ يخالط بعض السحن شيء من السمرة الشاحبة .

ألبسة الرجال والنساء

والملابس إلا النادر مئزر وصدرية ذات أكمام والرؤس حاسرة وافرة الشعر غير معقوص ولا مضفور بل مرسل ومفروق من الوسط ومحاط إما بفتيل من النبات ذى الرائحة الفياحة أو بسير من الجلد محلى بقصدير (اكليل) . ويضعون فى وسط الرأس بل على احد جوانبه لفة من نبات الريحان يغرسونها بين الاكاليل والرأس يسمونها (غِرَارَة) . ولابدمن (الـمُعَـيَّـرة) الجنبية فى الوسط فقليل جداً من لم يحل وسطه ولو بسكين على الأقل .

أما النساء فلباسهن خليط أغلبهن يتزر على القميص ولهن بالمآزر تفاخر ومنها ذات الثمن الغالى تجلب لهن من اليمن الأقصى وهى المعروفة عندنا « بالمصانف » . ويلبسن قمصانا أيضاً هى الفساتين المعروفة .



« صورتين بدويتين تمثل بعض فتيان القرية فى لباس الفتوه والأناقة »

ومما يتفاخرن بلبسه ثياب يسمونها الحلل يتخذنها فى الغالب من الحرير وشكلها كثياب الدرابزون التى كانت تستعملها قديماً نساء مكة . وهى ثياب واسعة الأردان تتخذ من رهيف النسيج .

ويعتدن فى حليهن (التى لا تختلف عن حلى سكان جبال الحجاز وكلها من الفضة والمعدن) . لبس الخلخال ويسمونه « حجل » و « الدملج » ولكنهم يلبسونه فى العضد بدل الزند ، ومعظمهن مخرق الآناف لتحليتها بأزرار من



« صورة بدوية أخرى تمثل فتى من فتيان القرية فى شكل آخر من اللباس » .

الفضة ، يسمونه « الزمام » . ورؤسهن مدثرة بالخمر ويسمونها « مقالم » كأهل ابها .

وليس على المرأة فى رجال سوى شؤون البيت إلا ما ندر منهن أما الاحتطاب وسقى الماء فأغلب ما يفعلنه منهن الفقيرات وطبقة الموالى وهم كثير فى رجال .

ونساء من حول رجال من القرى سافرات ولباسهن مختلف ، فمن كن من سكان الجبال المصاقبة للسراه فلباسهن الثياب كأهل السراه وهن أنضر وجهاً وأجمل ألوانا ، ومن كن من أهل الوديان والأماكن الواطئة فلباسهن



« منظر بعض نساء تهامة وعلى رءوسهن القبعات المستطيلة »

الصدر والمآزر . وبعضهن يلبسن ثيابا واسعة الأكمام والأردان كثياب أهل شنقيط .

وعلى رؤسهن جميعاً القبعات الخوص التى سبق ذكرها عند الكلام على من يرد منهن سوق ابها ويسمونها « طفَـشَـة » .

والطفشات على ثلاثة أنواع نوع واطىء واسع الدائرة صلبها ، ونوع طويل واسع الدائرة مع تهدل واين فيها ، ونوع طويل ضيق الدائرة صلبها كأنه برانيط بعض رجال كوريا من اقليم الصين .

وقد لاحظت أن الطفشات ذات القبعات الطويلة يتخذنها لابساتها مستودعاً لما لا تترك المرأة مصاحبته كالمشط والمرآة والمكحلة فهى كحقيبة اليد عند المرأة المتحضرة .

وأغلب أهل قرية رجال من المتكسبة بالبيع والشراء لضيق الوادى لديهم وندرة الأماكن الصالحة للزراعة فيه .



« صورة امرأة من سكان تهامة الجبال على رأسها الطفشة »

لغة قبائل ألمع ولهجاتهم

والطمطانية والكشكشة شائعتان فى لغة قبائل ألمع عموما بأظهر مما هى فى السراه من جبل عسير ، ويستعملون كلمة الرواح فى معناها الفصيح بمعنى الأوبة والرجوع مما يشكل فهمه وإدراكه على المكى لأول وهلة للضد فى الاستعمال عنده .

ويقولون « ميد » بمعنى أريد ، ومدار النفى فى كلامهم جميعه على ليس .

فإذا ساومت إحدى البائعات ولم يوافقها الثمن قالت « لست ميد » أما ما فلا أثر لها فى أفواههن مع أنهن يرون « ما قتل المحب حرام » .

ويقولون « أهريت » بمعنى بعثت وأرسلت كأهل ابها ولم أدرِ اشتقاقهم هاتين الكلمتين فقد طالعت مادة (ماد يميد) (وهرى يهرى) فى المنجد فلم أقف على

ما يمت إلى هذا الاستعمال بصلة . ولعل من له اهتمام بذلك أن يغوص فى مادتيهما من أمهات كتب اللغة عله يطلع منها بما يثبت صحة الاستعمال .

ويقولون « سُعَيِّلْ و سُعَيِّلة » بمعنى صغير وصغيرة ، ويبدلون النون فى ابن وابنة بالراء فيقولون « امْليلةَ عرس إبْرَة فلان على إبْر فلان .

ولهم فى حفلات الزواج عادات غريبة بعضها ما يضحك وهاك قصتها .

حفـــلة زفاف

تنن تنن تنن

تساءلنا ماذا ؟! — فقد خيل إلينا لأول مرة أنها أجراس تدق — فقيل لنا أن عروساً تزف إلى بيت زوجها وأن هذه أصوات المفراز « الهاون » يقرع إيذانا بتحركها من بيتها إلى بيت الزوج .

كان الوقت قبيل المغرب فتسارعنا نشهد هذه الزفة فإذا جمهرة من النساء عليهن المآزر المزركشة وعلى رؤسهن الخمر ذوات الهدب بألوانها المختلفة والعروس تتهادى وسطهن على سيارة لكنها من نوع « حمار ليت » معتمدة من جانب على أحد أقاربها ومن الجانب الآخر على إحدى قريباتها . ومقود الحمار فى يد إحدى الموالى يمشى به الهوينا بين ضجيج الزغاريد وقرع الطبول (ولا تنس الهاون فإنه هو أيضاً يرن صوته ويدوى) . إلى أن قاربت بيت الزوج فدوى صوت الهاون منه أيضاً وبرز آله وأقاربه مصطفين ينشدون أناشيد الترحيب والاستقبال .

فلما أن رأى الوجه الوجه ترجلت العروس صامتة لا تتكلم ولا تتحرك « مَا بِشْ مَانْتِ مِيند » [١] وهى لا تجيب بكلمة .

فاختطف أحد الحاضرين ملحف العريس من على كتفه ومده بساطاً على الأرض ، عندئذ تحركت العروس بالمسير تتبختر على هذا البساط خطوة خطوة ثم وقفت « مابش » فقال أحدهم ما كيفت « تِشْتِي قهوة » تريدى قهوة

(١) أى مابك ؟ ماذا تريدين ؟

وفى لمح البصر قدمت لها القهوة ، وبعد أن تناولت فنجانا وهى واقفة وطابت نفسها بما نالت مما يعتبر بينهم من مظاهر التقدير والتكريم — مشت مشياً متباطئاً والزغاريد تعلو والهاون يقرع من الجانبين .

فلما أن بلغت باب الدار برزت من بين الجمع أم الزوج ومولاة لها وأجلست العروس على (أمْقَـعَـادَه) ودارت الألسنة بكلمات الترحيب والتبجيل وأخذت أحداهن تصب الماء والأخرى تغسل قدمى العروس ثم دخلوا بها جميعا إلى الدار .

بهذا انتهى الفصل الأول من فصول الزفاف وبدأت الموائد تنصب وهى عبارة عن صحاف خمير الذرة الملثوث بالمرق بعد خبزه ، عليه قطع اللحم المسلوق ولا تخلو المائدة من بعض أطباق الخضر المطبوخة .



« صورة بعض الموائد »

بعد أن أكلوا هنيئا وشربوا مريئا بدأ دور الرقص والطبل على اهازيجهم واغنيتهم الوطنيه تتخللها زعقات يطلقون عليها « جَخْـرَةَ العِـرْس » تركناهم فى لعبهم يخوضون وذهبنا . وفى وقت السحر قرع الهاون قرعا عاليا مدوياً فانتبهنا منزعجين من نومنا وسألنا جارتنا العجوز (فقد تنبهت هى أيضا) ماذا ؟ فقالت لنا أنه جازها . فقلت وما معنى جازها فقالت :

بعد أن ينتهى اللعب وتطيب نفوس اللاعبين منه ويذهبون إلى دورهم يخلى بين العروسين فيمد الزوج يده متلمسا . «لا وَرَبِّى مَا حَلتْ وِزْرَتِى

أو تهب لى عشرين ريالا » وبعد مساومات وبيع وشراء وجذب وامتناع يقح الاتفاق على مبلغ ترضاه العروس وهنا يسدل الستار على الفصل الثانى من رواية هذا العرس .

ويسمون ما يدفعه الزوج عندئذ « حَلّ الوزْرَهْ »[١]

فلما أن جازها على ما وصفت لنا الجـــارة علت الزغاريد وبدأ دق الهاون الذى أطارعنا النوم فى أعذب أوقاته ، وأخذ المفرش الذى شهد المعركة ملطخا ونشر على حبل فى احدى غرف الدار ليشهده فى صبيحة تلك الليلة من تجىء من النساء للتهنئة . واجتمعن فى ذلك اليوم للغناء واللعب

الْبيضْ فَالِشْ[٢] وكِســَـهْ لِخَالِشْ يانَاشِيَهْ[٣]

إلٰى بَدَى الْمُوجِبْ رُدَّى سَلفْنَا يا نَاشِيَهْ

دَفْرَتِشْ تِمْلا ثَلاثَةَ فَرَايَقْ يا نَاشِيَهْ[٤]

أَمَّا فُلانَةَ بَيَّضَنْ وَجْه ابُوهَا عَيِّنُو يا شِيعَة وَاتْبَعُوهَا

وأهل هذه النواحى يعنون بحفلات الختان أكثر من عنايتهم بحفلات الزواج ولقد شهدنا حفلة ختان برجال أقيمت لأحد أبناء اثريائها كانت الغاية فيما يفعلون من ذلك .

---

(١) هذه العادة معروفة فى اليمن أيضاً فقد ذكر العلامة الشيخ عبد الواسع اليمانى فى تاريخه ص ٣٠٤ : ويلزم الزوج أن يدفع للزوجة حق الافتضاض ليلة الدخلة ويسمى فى اليمن حق الصياح ، ويظهر من كلامه أنها فى غير ما اشتراط ومساومة ، وتذكرت بهذه المناسبة بيتا لشاعر قديم وهو :

قف واستمع ما قاله ملك الهوى لجليسه
تككك الملاح يحلها من حل عقدة كيسه

(٢) فالك (٣) لخالك يا ناشئة أى يا صبيه .

(٤) دفرتش يعنى دم بكارتك والفرايق واوحدها فرقهو ماعون من الخوص تعبأ فيه المنتوجات من الذرة والحنطة والدخن يسع حوالى اربعين كيله مكية .

حفلة ختان

ففى أول جمعة من جمع شهر ذى الحجة ونحن خارجون بعد الصلاة من المسجد لحظت فتى فى اقبال من شبابه ودنياه يسعى نهبا بخطى سريعة متوجها نحو احدى الدور لفت نظرى اليه مئزره الحريرى المخطط اللماع والصديرى من الحرير الأخضر وشعره المرجل فى تمام الزينة وما يحمله من سيف مفضض ذى حمائل حريرية ظننته لأول وهلة عروسا فى صبيحة ليلة الزفاف

ولما سألت عنه قيل لى إنه ابن أحد تجار القرية وأن اباه يريد أن «يُعَلِّيهْ» بعد عيد النحر تذييلا واستكمالا لأفراح العيد. فقلت يعليه ماذا ؟ أيرفعه على قمة جبل من هذه الجبال ؟ فضحك محدثى وقال بل يختنه والختان عندنا إعلاء وترفيع فان الشخص لايعتبر رجلا يسرى عليه مايسرى على الرجال إلا إذا ختن ولو بلغ سنه خمسين سنة(١) وسيقام لهذا الولد «هُود كَبِير فَايِت»(٢)، فقد دعى اخواله من الشام والشام عندهم كل ما كان فى الجهة الشمالية مما يليهم وفى مساء هذا اليوم قرع الطبل، والطبل اذا قرع فى مثل هذه القرى تسابق اليه الناس وبعد برهة وجيزة من قرع الطبل برز الشاب من بيته وانضم اليه من اجاب الداعى وأخذوا فى الرقص واللعب على طريقتهم، فقفزات بهلوانية

---

(١) اعرف مثل هذه العادة والتقليد فى بعض قبائل هُذَيل القاطنة على بعد ثلاث مراحل من مكة وجنوبا عنها مما يلى سفوح جبال السراه، فانهم لايعتبرون من لم يختن كامل الرجولة يجب عليه مايجب على الرجل الكامل بل لا يحق له أن يرجل شعره على عادتهم فتكون له حفة كحفة النساء ولو بلغ أربعين سنة وكان له أولاد، ويسمون الأغلف «مرغول» وكثيراً ما إذا هبط أحدهم إلى مكة ببعض منتوجاتهم من الفحم والحطب وما شاكل ذلك وأراد بعض أوباش أهل السوق أن يطنز عليه ناداه «يامرغول» أويا (أبو رغله) فيجن جنونه ولو وجد سبيلا لقتال من يقول له ذلك قاتله، وهم أيضا فى عملية الختان ويسيرون على طريقة قبائل المع التى سيأتى وصفها : (٢) هود بمعنى حفل وفايت بمعنى فائق .

وركض فى ميدان اللعب وضرب بالأرجل على الأرض، حالة لم أذق لهاطعما .

ظلت هـذه الألعاب دائبة آحيانا ليلا وأحيانا نهاراً حوالى عشرة أيام طلعت أثناءها إلى ابها متنهزاً عطلة العيد لمخابرة الأهل والأصحاب باللاسلكى ومبادلتهم التهانى بعيد الأضحى .

وفى أثناء وجودى بابها حدث يوم السبت ١٢ الحجة سنة ١٣٥٩ زلزال شديد تصدعت فيه بعض البيوت والمبانى المستعدة للتصدع وتواردت الأخبار فى أمسية ذلك اليوم بأثره الشديد فى بعض الجهات التى حول ابها مما يلى الجنوب فقد قيل لنا أن الكثير من الأطوار ومشارف الجبال تدكدكت على بعض الرعاة والمحتطبين فأودت بهم وأن أشد أثر للزلزال حصل على الحدود اليمانية وفى البلاد اليمانية نفسها .

وأذاع الراديو فى تلك الليلة أن زلزالا شديداً وقع فى جهة « أدنه » من بلاد الترك على الحدود السورية .

ولا أطيل القول عن هذه الكارثة الطبيعية فحسبنا ما نحن فيه من زلزال الأفكار ومايقرع الأسماع من أهوال الحرب القائمة وفظائع القتال ، ولأعد لوصف حفلة الختان . فقد كان من محاسن الصدف أننى رجعت من ابها إلى (رجال) فى صبيحة يوم الختان .

وقال لى الرفاق إن أمس كان يوما مشهوداً فى برنامجه .

فقد قدم أخوال المحتفل باختتانه من الشام . وما أن بدت تباشير مقدمهم من أعلى عقبة « رَزْ » المشرف على القرية حتى تجمع أهلها وأعيانها واصطفوا وسط الوادى مسلحين فى أكمل زى يرونه وهرع المحتفل به يصحبه قارعو الطبول واستقبل أول دلفة منهم وعاد بهم والطبول تقرع وهو محمول على أكتاف عبد من العبيد فحيوا وحيوا وتقدم أحدهم واستدعى المراد ختنه وقال إنْ مَاجِينَا به شَىْءٌ مَا يُذْكَرْ فَاحْمِلُونَا عَلَى السَّلَامَة) .

ثم تقدم شخصان وأمسكا بطرفى إزار حريرى[1] فاخر نشراه وأخذ مقدم من أتى يلقى فيه بالريال إثر الريال ومُصيِّح[2] القرية يعد ذلك .

وكلما بلغ العدد عشرة رفع صـــوته بها عالياً إلى أن بلغت الريالات المطروحة ثلاثين ريالا فطوى الأزار وعاد الولد وأتى بالدلفة الثانية على ما سبق من الوصف .

كان فى الدلفة الثانية جد الولد لأمه وبعد عبارة طلب التجاوز والمسامحة وأن ما أتوا به من عون ليس بالشيء المذكور وأنه لا يساوى حتى قيمة ثور قد أرادوا إخفاءه لولا العادة والتقاليد.

نصب المئزر وأخذ المقدم يلقى فيه بالريال تلو الريال ومصيح القرية يعلن العدد ، حتى بلغت ثلاثمائة ريال فرانسى وبذلك انتهت مراسم الاستقبال وذهب الضيوف إلى ما أعد لهم .

وفى صباح اليوم التالى قرعت الطبول وبرز الشاب فى زيه الذى وصفته لك لأول مرة مستلا فى يده جنبية يلعب بها وسار محفوفا بأهله وذويه فى أيديهم السيوف وعلى أكتافهم البنادق وصـوت الزغاريد ينبعث عالياً من الأماء والنساء المشتركات فى الحفل بأيديهن المناديل كالرايات يلوحن بها إلى أن وصلوا ربوة فى أحد شعاب الوادى .

طفر إليها الفتى وأحدق به أهله وذووه وأبعدوا غيرهم من الحشد وقشع عنه المئزر الحريرى وألحف بقطعة من « الدوت » [3] وجاء الخاتن .

وهنا علت صيحات من حوله بكلمات التشجيع هازين فى وجهه السيوف « محمد يا محمد جَمِّلْ يا محمد » .

فأفرج محمد عما بين فخذيه وجمد فى مكانه جاحظ العينين مأخوذاً بما حوله وتقدم الخاتن بمدية طولها فتر لا أدرى مبلغ حدتها ثم قبض على جلدة نحو

---

(١) المعروف عندنا (بالمصنف) (٢) « المنادى »

(٣) هو الدمور فى اصطلاح المصريين

ثلثى القضيب من الأعلى فاجتزها بسرعة ، ثم تناول مثل ذلك من الأسفل وجزها فتدفق الدم والولد مبحلق عينيه إظهارا لثبات الجَنَانْ وعندى أن ذلك ثبوت الجنون فليس هو إلا فى حالة فقد الشعور والإحساس مما توالى على مسامعه من الصيحات والزعقات وما توحيه إلى نفسه من خزى الدهر لو طرفت له عين أو بدا عليه شيء من الاضطراب «منوم نفسى قام مقام البنج »

عندما انتهى الخاتن دوى صوت البنادق وصاح من حوله « جَمَّلْ جَمَّلْ » ثم انهال الحشد من الربوة فى رقص ولعب والولد المسكين يرقص بينهم غير آبه بما يتدفق منه من الدم إلى أن توسطوا الوادى ورقصوا برهة ثم نادى المنادى يدعو من حضر لحضور المأدبة .

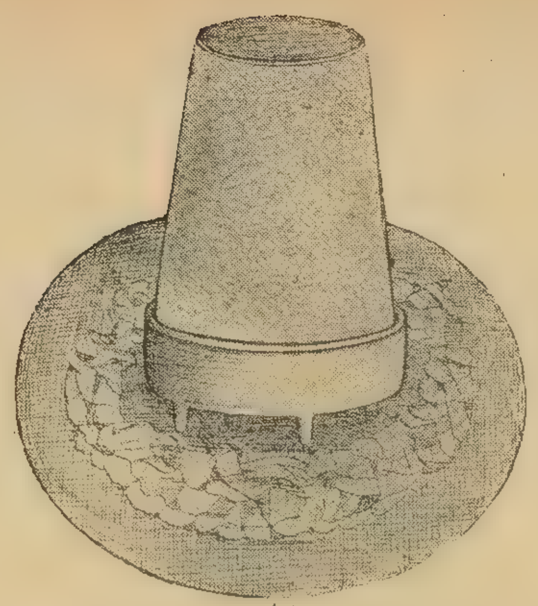
فساروا وسرنا وراءهم فلما شارفوا البيت تجدد الرقص فى شكل دائرة رقص الولد فى وسطها يشاركه أبوه أحيانا وجده لأمه أحيانا كأن ذلك من تقاليد العادة .

انتهى اللعب وأخذ الولد إلى مقر الحريم ، وسيق المدعوون إلى غرفة المائدة زمرة زمرة كلما انتهت زمرة أدخل غيرها .

المائدة الألمعية

وكان الطعام من الدخن على طريقة ألمعية لا يماثلهم فى صنعه أحد من القبائل فى تلك الجهة كما قيل لنا . وذلك أنهم يخبزون عجين الدخن أقراصاً ثم يدهكونها بالأيدى إلى أن تختلط وتكاد تعود عجيناً كحالتها قبل الخبز .

ثم يأتون بصحفة من الخشب سعتها بحسب كمية الطعام المعجون من خبز الدخن ثم يكبسونه فيها كبساً قوياً متعالين به على شكل مخروطى واسع الأسفل ضيق الأعلى قليلا فإذا ما استوعبوا وضع الطعام فى الصفحة جعلوا فى أعلاه قدحاً من الخشب غاطسا فيه ثم يملأنه سمناً ويجعلون الصفحة وما حوت وسط « مفته » مفرش مستدير من الحصير ويحيطونها بقطع اللحم المسلوق ويسمون هذا الغذاء مَرْزومَهْ .

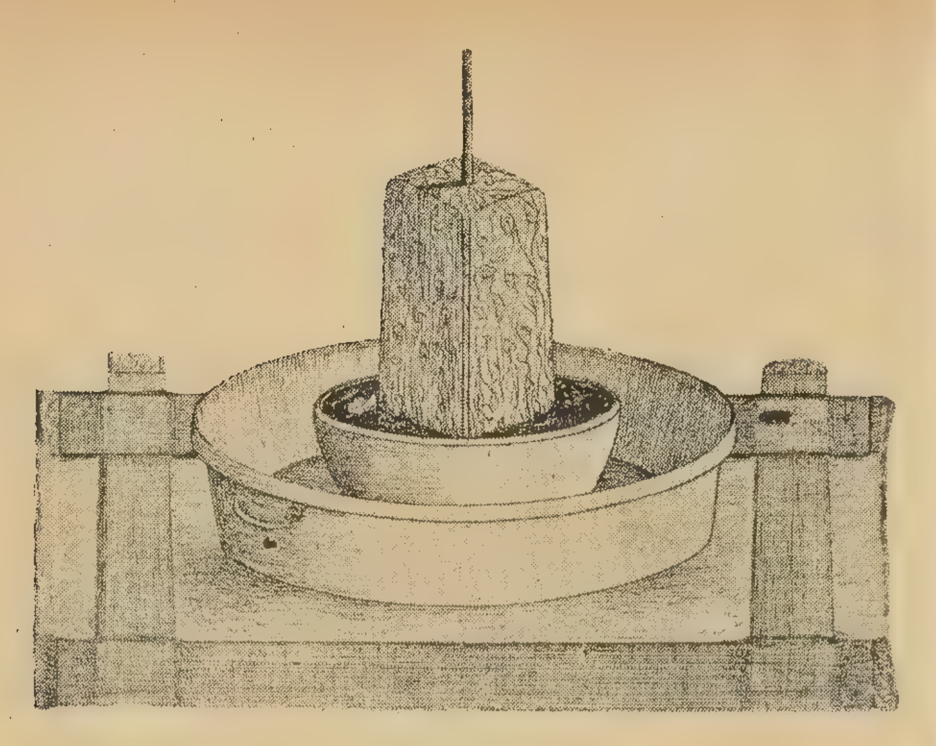


صورة يدوية لطعام « المرزومة » .

وطريقة الأكل من أسطوانة الدخن هذه هى أن يدعى الحاضرون إلى الحجرة القائمة فيها الأسطوانة جماعة جماعة بقدر ماتسع دائرة المفتة فيتناول كل منهم قطعة بقدر مسكة الخمسة الأصابع ويغمسها فى قدح السمن ويردفها بقطعة من اللحم المسلوق المنبث حول الصفحة وهكذا حتى ينتهى الآكلون وتنهدم الأسطوانة. وقد تتعدد الأسطوانات بحسب كثرة المدعوين أو قلتهم.

وفى صبيحة اليوم الثانى دعينا إلى فُطور من طعام يسمى «المؤزَّرَة» صنعه أحد أبناء عم المختون وهو خاص بالقبائل الألمعية أيضاً .

وصنعته أن يخبز دقيق البر ويصنع به كما صنع بالدخن إلا أنه يجعل برجا مربعاً تغرس أحيانا فى وسطه عصا تبدو من أعلاه ويوضع السمن فى الصفحة الموضوع فى وسطها الطعام فإذا ماتهيأ المدعوون للأكل صب العسل من أعلى البرج إلى أن يسيل ويختلط بالسمن فى أسفله .



صورة يدوية لآكلة المؤزرة كما شهدناها

أكلنا منه كما أكلنا من أسطوانة الدخن بقدر ماساغ لنا وسألنا عما ذا فعل بالمختون وما هى طريقة تلافى تلك الجراحة ومعالجتها فاعلمنا أنهم يقعدون المختون ثم يربطون احليله على ما به من جراحة بحبل مما يلى الحشفة ثم يشدون ذلك الحبل إلى عصا توضع فى مقابل مجلسه ولا يزالون يلفون عليها الحبل شيئاً فشيئاً ما طين بذلك القضيب إلى أن تتوتر عصبتاه مما يلى المشعر . يتلافون بهذه الطريقة تقلصه وانكماشه بعد أن تقشع عنه الجلد .

والعلاج الذى يستعملونه لهذه الجراحة ورق نبات يسمى « الصَّلَعْ » . يدهنونه بالسمن وبعد أن يبخروا القضيب بروث البقر الجاف يسخنون الورق على النار ويلفون به القضيب ، ثم يعصبونه بقطعة من القماش بالضفر والتعقيد ليحتفظ بحالته التى مطوه بها بعد اطلاقه من الحبل السابق ذكره وقد يبطى شفاء بعضهم إلى عدة شهور بل سنة .

فتصور ما يحسه المختون من آلام شديدة من هذه العمليات فى الختن والعلاج وما كان اغناهم عنها لو اقتصروا على المسنون والمتعارف ولكنها الجهالة والعاده ومالها من سلطان قاهر على النفوس وقد قيل لى إن بعض القبائل منهم ومن غيرهم فى تلك الجهات لا يقتصرون على ازالة جلدة القضيب وحده بل يبدؤن السلخ من أعلى العانة حتى لا ينبت بها الشعر [١]

مقبرة رجال وحفلات المأتم

ومن أعسر الأشياء وأشقها حفر القبور فى البلاد الجبلية فهى مصيبة تعترض فى مصيبة الموت

فمقبرة رجال ـ ويسمونها « المَجنَّة » لضيق الوادى وكونه عرضة للسيول فى أغلب الأحيان ـ قائمة على صفح جبل من الجبال المشرفة على القرية وقد مات بعض نسائها ونحن بها فظل ذووها يحفرون القبر من الصبح حتى العصر

وأهل قرية رجال يسمون الجلوس للعزاء « فِرَاشًا » فبعد أن ينتهوا من الدفن يذهب المشيعون إلى بيت المتوفى ويتلاحق بهم من لم تسعفه ظروفه بالمشاركة فى التشييع وهناك توزع عليهم أقراص خبز الذرة والدخن يأتى بها أولياء المتوفى وجيرته مشفوعة بالقهوة .

ويستمر العزاء على هذه الحالة ثلاثة أيام فى نهايتها يقرأون ويهللون ويختتم الحفل بدعاء للميت وتوزع على من حضر أعواد الريحان الطرية وتنتهى مراسم العزاء والمأتم .

---

(١) إن الحكومة الحاضرة تحظر هذه العملية وتندب فى مواعيد الختان من يرقب العمل على الوجه المسنون فقط وإذا علمت أن شخصا أجراه على العادة وخالف الأمر جازته ولكن هذه العادة متأصلة ولها عندهم مقام فهم يتوسلون بكل ما أتوا من حيلة فى سترها والجرى بها على مألوف عادتهم والأمر يحتاج الى مزيد من الحزم والعناية والقسوة فى الجزاء

وقسا ليزدجروا ومن يك حازما فيلقس أحيانا على من يرحم

رجالٌ فى رُجالْ

وقرية رجال على ما قيل لنا لم تنشأ قبل عام الألف وأن أول من بنى فيها رجل من أهل مدينة « بيت الفقيه » من مدن تهامة اليمن يسمى موسى بن جشم ، من ذريته الحفاظية بعض سكان رجال اليوم .

وأول من نجم فيهم واشتهر أحد احفاد موسى ويسمى الشيخ بكرى وهم يعدونه الجد الأعلى لأسرتهم وكثيراً ماتنسب القرية اليهفيقال قرية الشيخ بكرى.

ومن الشائع بينهم فى شأن تأسيس القرية واطراد العمران بها كثير من الأساطير ، والحفاظية الآن يناهزون المائة وهم بيت علم ولهم حرمة ومكانة بين قبائل المع موروثةعن اسلافهم فقد كان فيهم علماء اعلام متكلمون ومنهم من ناصر الدعوة الاصلاحية التى قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى عهد آل سعود الأول،وسعى فى نشرها بين قبائل المع وألف فيها الرسائل والقصائد[1]

ولكل واحد منهم الآن حق التلقب بالفقيه ولو كان أمياً فكثير منهم يمتهن الآن البيع والشراء وبعضهم متكل على ما لأسلافه من حرمة دون التصدى لها والتحلى بها بصدق وحق .

ولوجود مثل هؤلاء لاسيما المتعلمون منهم فائدة تذكر فى تخفيف أثر الجهالة وما ينجم عنها خصوصا بين قبائل بدائية تكاد تكون متوحشة مثل قبائل المع فتسرب أفراد هذه العائلة بين القبائل للأرتزاق بالوعظ والأرشاد فيه على الأقل استبقاء صور الديانة وعلوق بعض تعاليمها فى أذهانهم .

ومن أميز من عرفته منهم قاضى رجال بل وقبائل المع عموماً الشيخ ابراهيم زين العابدين الحفظى وهو شيخ فى آخر سن الكهولة بشوش الوجه خفيف الروح على جانب وافر من الذكاء الفطرى والمام تام بفقه الشافعى

---

(١) وهم الأستاذ فؤاد بك حمزة فى كتاب «فى بلاد عسير » صفحة ١٥٤ بأن جعل الحفاظيه من السادة ويعنى بذلك من العلويين فالصحيح ماذكرته كما قال لى ذلك الشيخ زين العابد بن قاضى رجال .

عبادة ومعاملة ، ومعرفة بالعربية والشعر لها قيمتها وهو بذلك كوكب الحفاظية اللامع وبدرهم الساطع

ومن ألفناه وألفنا ابنه محمد الهلالى شاب وافر الأدب حي حرص أبوه على تعليمه بما استطاع وقد عينته المعارف أستاذا بمدرسة محايل

ومن أنبل من عرفناهم برجال الشيخ فايع بن ابراهيم أحد تجار القرية وعين أعيانها فقد نالنا من عطفه ورعايته لنا وحسن تقديره ما اوجب له علينا جزيل الشكر .

قرى قبيلة المع

وحدود منازلهم

وقرية رجال أعمر قرى قبائل المع وأكثرها سكانا وحضارة ويليها فى ذلك قرية الشعبين ثم البتلية

أما باقى القرى فهى عبارة عن بيوت متناثرة فى صدور الأودية وشعاب الجبال وتبلغ نحو أربعة وثمانين قرية

وآخر ما تترامى اليه منازلهم من الشرق مشارف الجبال التى تخص سكان السراه وقبائل عسير ، ومن الغرب ، قرية المجمعة وما يوازيها ، ومن الشمال ، منازل صحر وبنى المهمال ، دون محايل بقليل ، ومن الجنوب ، الجرفة على مقربة من وادى عقبة ضلاع ممتدة إلى قرب درب بنى شعبة

منتوجات بلاد المع

ومن حاصلاتهم مختلف أنواع الحبوب . ففى الأماكن العالية المصاقبة للسراه تزرع الحنطة وما يزرع عادة فى الأماكن الباردة المرتفعة وفى الأودية الواطئة تزرع الذرة والدخن والسمسم ، والذرة أغلب مايزرعون وفى بعض الصدور الغربية لجبالهم يزرع البن ولكن بكمية قليلة ، وأغلب مايوجد فى جبل

حلبْ وفى وادى ثاه وقرية المرَار بوادى حَسْوَهْ وفى جبل القارية وقريتى شديدة وبنى عبد شحب

ومن حاصلاتهم العسل بسائر أنواعه والوانه ومنه الجيد الذى لاجيد بعده والجمال والبقر والضأن قليل فى مواشيهم بالنسبة للماعز

قبائل ألمع

وقبائل ألمع (١) سبع قبائل تنقسم إلى قسمين قسم يقال لهم ألمع الشام وقسم يقال لهم ألمع اليمن ويعنون بالشام من يسكن الجهة الشمالية وباليمن من يسكن الجهة الجنوبية .

فمن يسكن الجهة الشمالية منهم :

١ — « بنو قُطبَهْ » وحاضرتهم الشعبين .

٢ — « بنو ظَالِمَ » وحاضرتهم رجال .

ويطلق على بنى ظالم وبنى قطبه أم رفق يعنى الرفقة ،

ويسكن الجهة الجنوبية منهم :

١ — « بنو زيد » .

٢ — « صَلبْ »

ويقال لهاتين القبيلتين « بنو بَكرْ » .

---

(١) ذكر صاحب كتاب « فى بلاد عسير » صفحة ١٥١ عند الكلام على قبائل ألمع قوله أما القبيلة نفسها فلم أستطع التثبت من كونها قبيلة : ألمع : أو إنها قبيلة « آل مع » كما أرجح ثم حذفت فأصبحت ألمع : وهذا وهم منه وترجيح لما لامعنى له فان ألمع من الأسماء العربية فقد جاء فى كتاب سبائك الذهب للسويدى صفحة ٦٦ قوله : ألمع بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الميم ثم عين مهملة بطن من بنى مزيقيا من الأزد وألمع هو عمرو بن عدى بن مزيقيا أحد ملوك اليمن المشهورين وسمى مزيقيا لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما بالعشى استنكافا أن يلبسهما غيره والألمع والألمعى كما جاء فى القاموس (الذكى المتوقد)

٣ — « بنو جُوَنه » .

٤ — « بنو قيس » .

ويقال لهما بنو مسعود .

٥ — « شحب » وهذه القبيلة أكثرهم عددا .

وكل هذه القبائل تتفرع إلى بطون وأفخاذ يطول شرحها وتفصيلها ، ويبلغ عددهم على ما قيل لنا حوالى ثلاثين ألفاً وفيهم من المقاتلة ما يربو على ثلاثة آلاف ويعبرون عنهم با « الشوكة » وجميع قبائل ألمع الآن تحت إمرة أمير واحد وهو الآن محمد بن زيد من أهل نجد مرتبط إدارياً بأمارة أبها وفى كل قرية وقبيلة نائب وشيخ من نفس القبيلة أو القرية ومقر الأمارة قرية الشعبين حاضرة بنى قطبة ويرجعون فى القضاء إلى قاضى رجال وهو وإن تكن اقامته فى رجال فمجلس القضاء يعقد فى الشعبين بين يدى الأمير وغالباً ما يكون فى يوم السوق من كل أسبوع ومع القاضى موظف آخر يحمل لقب كاتب العدل مهمته تحرير صكوك المبايعات والاقرارات المحضة ، أما المحاكمات فى الغالب فليس لها سجل ولا صكوك إلا ما ندر من مهم القضايا وما تدعو الحاجة إلى تسجيله .

جلسة محـــاكمة

وقد أتيحت لى فرصة حضور بعض جلسات المحاكمة كان القاضى يجلس فيها على المصطبة بجوار الأمير والخصمان بين يديه على الأرض .

وقد أكبرت فى القاضى ما كان يتخذه من الدقة والتلطف فى استظهار الحقائق بحصافة تامة فكثيرا ما كان أحد الخصمين يروغ ويدخل ويخرج من « زقاق الملص » كما يقولون مما دل على خبرة القاضى الوافية بطبائعهم وموطن الضعف فى مداركهم .

التحية الألمعيـــة

ولا يفوتنى قبل أن أنهى القول عما عرفته من أحوال قبائل ألمع أن أذكر لك عادتهم فى التحية فان الرجال أحياناً يكتفون فيها بعد السلام بالمصافحة وأحياناً يقبلون رؤوس بعضهم البعض زيادة فى التعظيم .

أما النساء فأحياناً يقبلن أفواه بعضهن وأحياناً يقبلن أيدى بعضهن لا فرق بين أن تبدأ الكبيرة الصغيرة بذلك أو العكس ، ومن التقاليد التى لها حرمة عندهم وعند قبائل عسير أيضاً رعاية السَّمى والالتزام نحوه بحقوق لا تجب للغير ، وذلك إذا ولد لأحدهم ولد وطمع أبوه فى محالفته لشخص ذى مقام فى القبيلة أو فى غيرها من أحلافها سماه باسمه وكنيته ولقبه وبعث اليه يخبره بذلك وعندئذ يكون المسمى باسمه ملزماً باكسائه وزيارته وإذا كبر عد حليفاً ، له ما للحليف من حقوق وواجبات .

إلى الوادى الخصيب

دخل فصل الصيف وانتهت المدة المحددة للدراسة وأقفلنا المدرسة بعد أن أجرينا الاختبار النهائى للطلبة وشاركنا فيه فضيلة القاضى وأمسى لدينا متسع وفراغ من الوقت وقد سبق القول بأن (وادى ثاه) من أخصب أودية قبائل ألمع وأوفرها مياهاً وأطيبها مناخاً لارتفاعه فتاقت النفس للوصول إليه ومشاهدته ، ولكنى مع الأسف قد فشلت فى ذلك وعدت من نصف الطريق أجر ذيل الخيبة واتغصص مرارة العجز عن تحقيق الأمنية .

فانى بعد أن قطعت حوالى أربع ساعات فى الصعود إلى متن جبل لا يقل ارتفاعه عن ألف متر أتساق الطريق اليه أحياناً وأحبو أحياناً — اعترضنى طريق فيه على حافة هاوية لا تقل عمقاً عن خمسمائة متر ولا يزيد عرض الطريق وسعته فيها عن موضع القدم أو موقف الانسان وما أن خطوت فيه بضع خطوات حتى أخذنى دوار كدت أهوى معه الى الأعماق لولا رفيق سايرته فى طريق من رجال يقصد سوق الوادى ، وكان يمشى خلفى مصادقة

فصدنى على صفح الجبل من الناحية الأخرى وأمسك بذراعى ، وسحبنى إلى موضع فسيح تركناه خلفنا .

لولا ذلك لكنت اليوم فى العالم الآخر فحال أن أصل القاع وفى عرق ينبض أو عضو سليم .

فى هذا المسير لمست عظمة خلق الجبال وروعة منظرها وما هى عليه فى هذه البلاد ، وأدركت بيقين صدق تسمية هـذه الجهات بعسير ، وعذرت أهلها فيما كنت أسمعه منهم من شدة الغرور والاعتزاز بها .

أمنية وأمل

وسبح الخيال واستعرض ما نحن عليه سكان المدن المتحضرة فى الحجاز من رخاوة وطراوة وضعف لا نقوى معه على مواجهة ما تسوق إليه أحياناً بعض ضروب الحياة وواجبات الوطن ، وتمنيت لو تقوم بين شبابنا اليوم فرق للكشافة لما فى تعاليمها من التمرن وإيجاد القـدرة على مجابهة مثل هذه الأحوال وغيرها .

كان بعد أن انتشلنى رفيقى أن آوى بى إلى بيت لامرأة عانس فى بعض حواشى الجبـل على أن أنتظره إلى أن يعود من السوق ثم نرجع سوية إلى رجال ، لكن بعد أن تركنى وذهب ضقت بالبقاء لما أنا فيه من ألم الخيبة ولما كان يقرع سمعى من حين لآخر من صوت هبوب الرياح وصفقها بين جوانب الوديان المحيطة بهذا المرتفع الذى عليه البيت فقد كانت على غاية من الشدة والازعاج . فقلت للمرأة هل لك فى مرافقتى إلى أن نهبط أول وادى الميل ، وقد كان طريقنا منه إلى هذا الجبل ، ثم تبحثين لى عند بعض سكانه عن حمار أستأجره منهم إلى رجال ، فأجابتنى إلى ذلك وسرنا وأخذ منا الطريق إلى أول الوادى حوالى الساعة والنصف ، وقالت لى المرأة بعد أن وصلنا الوادى لو لم تكن معى لما أخذ منى هذا الطريق أكثر من ربع ساعة فازددت بهذا القول خجلا على خجل .

العطلة المدرسية ـ إلى مكة

عدت إلى رجال وظللت بها نحو أسبوع وكنا نتخذ أنا ورفقائى أساتذة المدرسة من التريض فى أمسية كل يوم بين الجبال وعلى الروابى القريبة من رجال متعة وسلوى ثم آنست من رفاقى رغبة فى قضاء العطلة المدرسية بين ذويهم بمكة فحرك ذلك كوامن الشوق فى نفسى لرؤية الأهل والأصدقاء فى البلد المقدس فاتفقنا على المزاملة فى الطريق على أن نعود عند ابتداء العام الدراسى الجديد سوية .

وكان من محاسن الصدف وحسن الحظ أن اعتزم الصديق الكريم الشيخ إبراهيم إسلام مدير مالية أبها السفر إلى مكة حيث رقى إلى وظيفة أعلى فدعانا إلى مرافقته وهيأ لنا الكثير من أسباب الراحة وبذل من العناية والرعاية ما جعلنا عاجزين عن شكره .

وفى يوم ٢٦ جمادى الثانية سافرنا من أبها ولم يكن طريقنا فى هذه المرة عن قرية خميس مشيط بل جد طريق آخر سلكنا إليه من جبل « شمسان » الواقع فى الشمالى الشرقى من أبها حيث يمر بوادى « ابن هَشْبَل » ولا يمر بقريتى تندحه وخيبر التى سبق القول عنهما بل ولا يلتق الطريقان إلا فى منعطفات وادى « الهِرْجابْ » وهى التى وصلنا إليها فى مأتانا ليلا وضل السائق فيها واضطررنا للمبيت كما سبق القول ويمتاز هذا الطريق بأنه أخف وعورة عما بين قرية خميس مشيط وأبها وأنه أقصر فى المسافة ببضع كيلو مترات

روضة بن غنـــام

ومما مررنا عليه فى رجعتنا هذه روضة ابن غنام التى سبق ذكرها وكانت السماء قد جادت على المكان بوابل من الغيث فكسا الأرض حـــلة زاهية وكان نبات الحشيش المعروف عندنا (بالقبا) يرتفع نحو نصف قامة الرجل قد أصفر سنبله الزغبي البراق الشديد اللمعان من لفح الشمس وحمارة القيظ .

كلما هبت عليه الريح تماوج وترجرج وبدا فى منظر فاتن غاية فى البهاء والرونق ، حتى أشجار الشوك فقد أمست مخضرة وجميلة فى نوعها مما جعلنى أعطى كل الحق لأهل هذه الجهة فى إطلاق اسم الروضة عليه

العودة إلى رجال

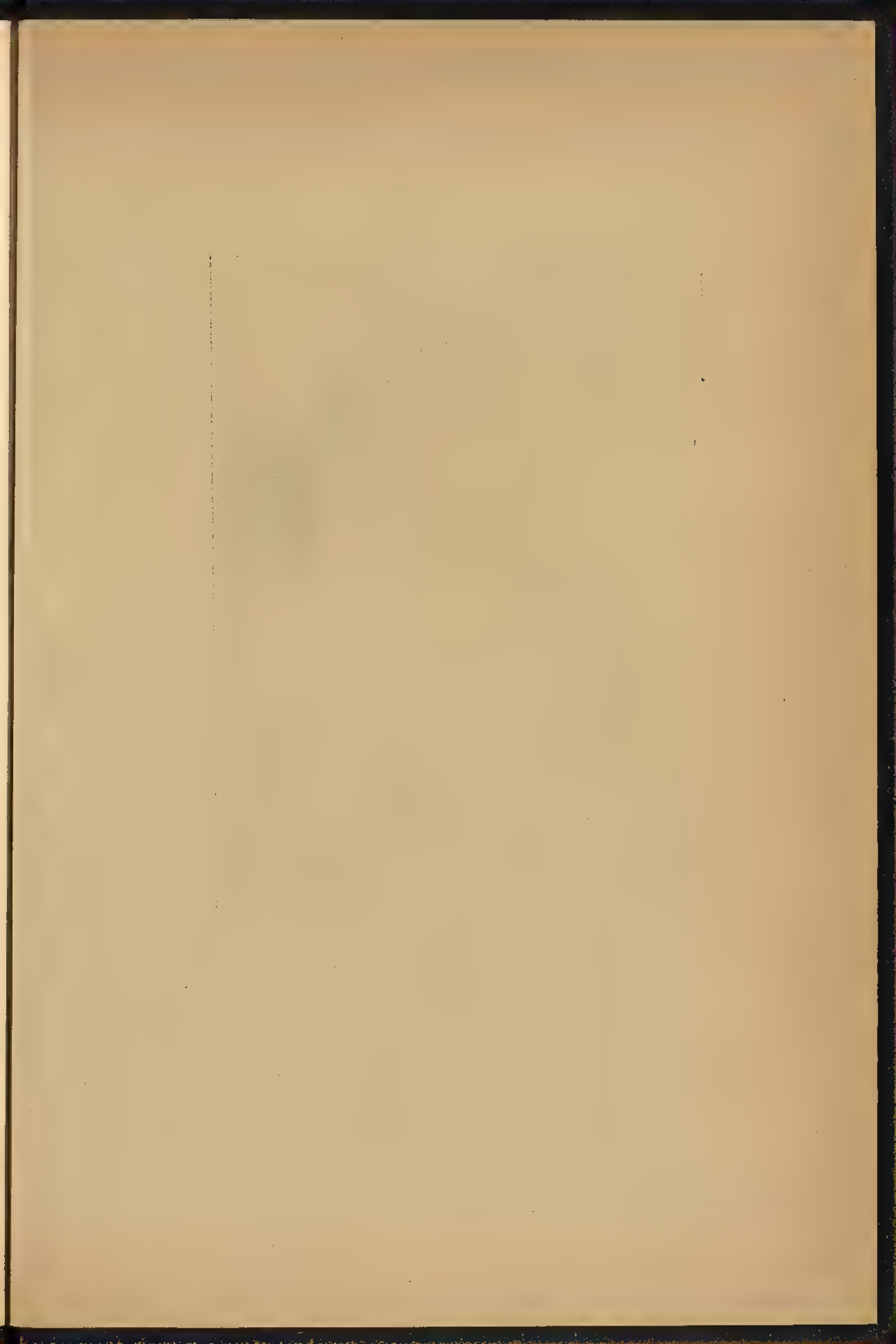
قضينا أيام العطلة بمكة . وفى ليلة السبت الرابع من شوال بارحناها إلى الطائف فى طريقنا إلى أبها على سيارة من سيارات البريد وكان المفروض أن نستأنف منه السفر صباح السبت ولكنا ظللنا فيه إلى يوم الأحد لأسباب خارجة عن إرادتنا وإرادة السائق والسيارة فلم يكن بها أى عطل مما لا يتفق وما يجب أن يكون عليه المسمى بالبريد .

غادرنا الطائف فى ضحوة النهار ونشط السائق فى المسير فلم تتوقف حركة السيارة إلا على ضفاف وادى بيشه حوالى الساعة العاشرة بعد منتصف الليل فهجعنا على ضفاف الوادى وفى الصباح من يوم الاثنين دخلنا قرية الروشن . وظللنا بها بقدر ما تزود السائق من البنزين وغيره وتناولنا الشاى ثم سرنا إلى (بئر بن سَرَّار) على بعد حوالى ثلاث ساعات بالسيارة عن قرية الروشن فقيلنا بجواره وأكلنا ما طبخناه ، وقبل المغرب فارقنا بئر بن سرار نقصد أبها ولم يتوقف سيرنا بأى عائق حتى وصلنا سفح جبل شمسان حوالى الساعة الثامنة بعد منتصف الليل فبتنا فيه إلى الصبح ثم دخلنا أبها بعد أن أشرقت الشمس بقليل وعلى ذلك فجملة ما أمضيناه من الوقت منذ بارحنا الطائف إلى أن وصلنا أبها نحو تسعة وثلاثين ساعة منها حوالى أربع عشرة ساعة قضيناها فى الإقامة بين قرية الروشن وبئر بن سرار وسفح جبل شمسان مما دل على جلد السائل وكفاءته فى مهنته .

ومن المصادفات الحسنة فى هذه السفره أننا لم نزد فى السيارة عن خمسة ركاب مما كنا معه فى راحة تامة رغم مشقة السير وسرعته . وأقمنا فى ابها يومين ثم هبطنا رجال إلى ما نحن بسبيله



الصديق الكريم الشيخ ابراهيم إسلام



حاجة فى نفس يعقوب

لما كنت بمكة كلفتنى مديرية المعارف بالتفتيش على مدرستى قريتى محايل والنماص والوقوف على سير الدراسة بهما والنظر فى شكوى قدمها مدير مدرسة النماص على أحد الأساتذة بها . فكان ذلك فرصة أتيحت لى للوقوف على أحوال تلك الجهات ومشاهدتها . وكانت محايل أقرب إلى مقرى من النماص وهى حارة المناخ وقد أشرف فصل الخريف على الانتهاء وكاد الحر أن يزول فبادرت بالتوجه إليها

رحلة الشتاء — إلى محايل

وفى يوم الأربعاء ٢٨ القعدة سنة ١٣٦٠ جَهَمْتُ(١) على حد تعبير أهل رجال فى صحبة بعض المتسوقة للبيع والشراء فى سوق الربوع(٢) وهو سوق يقع فى منتصف الطريق تقريباً بين رجال ومحايل . وبعد أن اجتزنا عقبة رز وهبطنا قرية الشعبين ملنا شمالا وأخذنا الطريق من وسط وادى (حلى) وهو واد من أخصب الأودية وأفسحها مزارع وفى أثناء سيرنا مررنا بقرية « عَشَالِفْ » ثم قرية « الجَرف » عن يسار الطريق ومنازل قرية « البِنَا » عن اليمين وبعد ثلاث ساعات وصلنا (سوق الربوع) وهو سوق يقام يوم الأربعاء من كل أسبوع على عادة أسواق البادية خاص بأهل تلك الجهة وما قاربها . مكانه على ربوة فى جانب الوادى فى طرفه بعض المقاهى . والمقهى عبارة عن خصٍّ لا يدخله المرء إلا راكعاً ولا يحجب الشمس إلا كما تحجبها الغرابيل . وهى مطاعم أيضا فلا تخلو واحدة منها من قصعة مترعة بخمير الذرة وتنور لخبزه أقراصاً أولا بأول حسب الطلب وأرحبها لا يتسع لأكثر من ستة أشخاص يجلسون القرفصاء .

---

(١) الجهُمة والجهَمة أول مآخير الليل (٢) الربوع بمعنى الأربعاء فان أهل مكة وسائر سكان جبال الحجاز وعسير ومن اليهم يقولون الربوع بدل الأربعاء والثلوث بدل الثلاثاء .

أقمنا فى واحدة منها بعد أن حجزناها (أنا ورفيقاى) لنا خاصه بقدر ماتناولنا فيها طعام الإفطار ثم قبل الظهر بساعة شددنا أمتعنا على الحمير واستأنفنا المسير . جادين تارة من وسط الوادى وآونة على حواف سفوح الجبال الممتدة على ضفافه . ولم يكن الطريق يخلو من مناطق يتكاثف فيها شجر الأثب والسدر والجبز وشجيرات المض وكثيراً ما صادفنا شجيرات الزقوم على شكل كتل ملتحمه فى بعضها مستقيمة الأغصان كأنها العصى المنتصبة . إلى أن وصلنا بلاد بنى ثوعه بعد أن مررنا بمكان يعرف بالسحر .

كانت الشمس قد أذنت بالغروب وكان السير المتصل قد أضنانا فرأينا النزول بإحدى القرى المجاورة على سفح بعض الجبال لأداء صلاة العصر والمغرب واستعادة بعض النشاط . فقصدنا قرية تسمى القاعد وهى تتبع آل غَنِيَّه ـ نخذ من بنى ثوعه ـ تشرف على واد فسيح واسع الرقعة جيد التربة مزارعه جميعها على الأمطار ولاتبعد عن محايل بأكثر من نصف ساعة فأضواء محايل ترى منها ليلا وأهلها سمر الألوان كأنهم (الجَبَرْتْ)[١] وكأننا فى قرية من قرى أواسط أفريقيا صلينا المغرب وتناولنا ما هيأ لنا أهل المنزل الذى آوينا إليه من القهوة وسرنا . وفى الساعة الواحدة بعد الغروب دخلنا محايل

فى محايل

ومحايل قرية لا يتجاوز سكانها الألف معظم بيوتها من طابق واحد من الحجر تتخللها بعض العشاش (الأكواخ) عدا ثلاثة أو أربعة بيوت كانت من طابقين ، شوهاء المنظر كريهة المرأى لاطنف لأسطحتها والكثير من أعواد سقوفها بارز عن حيطانها يزيدها بشاعة . ومعظم حظائر البيوت

---

(١) قبيل من الصومال

من أعواد شجر المض اليابس البشع المنظر . وجلها ملتف على جبل واطىء يبرز من سلسلة الجبال المحدقة بوادى القرية يسمى « شَصْعه » على قمته قلعة خربه بناها الأتراك فى عهد حكمهم .

وأغلب أهل محايل دكن الألوان ضمر الأبدان كأنهم أعواد محترقة فهى حارة المناخ ودرجة الحرارة فى مدة الثلاثة الأيام التى أقتها بها لم تهبط نهاراً عن الخمسة والثلاثين ولم تنزل ليلا عن أربعة وعشرين مع انقضاء فصل الصيف ومشارفة فصل الخريف على الانتهاء .

ولمحايل سوق يقام فى كل يوم سبت يقولون أنه من أروج أسواق هذه الجهة وأكثرها حركة لما حول محايل من القبائل الوفيرة العدد ولقرب محايل من البندر ويعنون به ثغر القنفدة الذى لا يبعد عنها بأكثر من ثلاث مراحل ومحايل حاضرة قبائل بنى موسى وفيها مقر شيخهم بن مخالد وأهلها فى سذاجة تامةوعلى سيماء الكثير منهم غباء وجمود ولباسهم الوزرة والطمرة والصديرى ولا يعدم فى أهلها من يلبس الثياب ، والرؤوس إما حاسرة أو مغطاة بالطواقى الخيزران تجلب إلى هذه الجهات من الهند عن طريق عدن واليمن وبعضهم يعصب رأسه بالأحاريم المعروفة عندنا فى الحجاز . أما البدو وسكان بقية القرى فلباسهن الطمرة(١) من السرة للركبة «وكان الله رحيما »

ولباس النساء فى محايل القميص والوزرة وعلى الرأس المقلمة التى سبق وصفها . وأما فى الأطراف والقرى الأخرى فلباسهن الثياب الواسعة الأردان وعلى رؤوسهن القبعات الخوص التى سبق لك بيانها عند الكلام على نساء رجال . وحليهن هى الحلى المار ذكرها أيضاً .

وأجمل ما فى وادى محايل ومزارع وادى حَلِى ـ التربة الخصبة الصفراء اللون اللدنة الممسكة بالماء ، ورغم أن المزارع جميعها فى هذه الجهات تعتمد على الأمطار فالقصب الأخضر لا ينقطع من أسواقها طول

(١) الطمر فى اللغة الثوب البالى وأهل هذه الجهة يسمون الوزرة من النوع الواطى الرخيص الثمن (بِالطَمْرَه)

السنة . ومن أعجب ماشهدته أغراس البامية فى بعض الحقول مع بعد عهدها بالماء يبلغ طول الغرســـة منها قامة الرجل ويكاد ورقها يقطر ماء من الارتواء وأخال أن لوفرة الطل أثراً فى ذلك ، فليالى هذه الجهات بليلة ندية فى معظم فصول السنة .

ويشرب أهل محايل فى الغالب من الغدران والمستنقعات التى لا ينقطع ولايجف ماؤها فى أغلب الأحيان .

ويوجد فى طرف الوادى فى جنوب القرية بئر تسمى « الغليلة » ماؤها عذب ولكنها بعيدة المســـافة عن القرية وماؤها قليل إلا أنه دائم النضح ولايصلح عندهم من زرع الغلال سوى الذرة والدخن والسمسم . وقد رأيت فى عدة بيوت معاصر صغيرة لعصر السمسم واستخراج زيته تديرها الجمال وحولها وعلى مقربة من القرية نخيلات متناثرات هنا وهناك . وقيل لى إنه فى عهد مضى كان نخيلها أكثر مما هو عليه الآن ولا أخال أن تمر نخيلها من التمر الجيد . وقيل لى أيضاً أن محايل كانت فى بعض ماغبر من الزمن أوسع عمراناً وأكثر احتشاداً بالسكان . وحتى قيل فيها قديماً هذين البيتين والتبعة على قائلها :

تجنب محايل لا تأتهــا وإن راقك الرطب اليانع
فأهل الفســاد بها جلس وسوق الفسوق بها شائع

وعلى بعد ساعة من القرية واد يسمى الحماطة يكثر فيه شجر السدر والجميز والأثب وما شاكله . ومما يروق منظراً ونضارة شجر الأراك المنتشر فى رقعة الوادى على سعته كأنه القباب أو ربى خضراء قائمة فيه .

أقمت فى محايل ثلاثة أيام عدت بعدها إلى رجال وظللت بها فى عملى الأصيل مترقبا انقضاء فصل الشتاء ، وحلول الربيع ، لأستطيع الوصول إلى النماص ، فإنها فى السراة ، وعلى سطح جبل من أرفع جبال الحجاز . . .

رحلة الربيع ـ إلى النماص

وفى الرابع والعشرين من شهر صفر مساءا قمت من رجال والطريق إلى الشرق أو الشمال دائماً من عقبة رَزْ فلا منفذ غيرها ، وكان معى رفيق استأجرته للوصول بى إلى أبها ونعم ما فعلت فإننى ما كدت أصل قبل الغروب نهايه وادى العوص والمكان الذى يبيت فيه عادة من يسافر فى المساء ، حتى دكنت السماء وتلبدت بالسحب ، وانهمر مطر غزير أخذ يهطل عدة ساعات ، سال على أثره الوادى سيلا عظيما . وأصبحنا والسماء تموج بالسحب ولكننا طمعنا فى السلامة منها لأن الأمطار فى الغالب فى هذه الجهات لا تهطل إلا مساء أو من بعد الزوال . فشددنا رحالنا نقصد العقبة ولما وصلنا إلى أول العقبة وجدنا الطريق على غير ما نعهد مما قذفت به السيول والأمطار من الصخور والأحجار « الجراويل » فاضطررنا أن ننزل عن الحمير وأن نمشى وإياها .

سرنا برهة وإذا أخاديد لا يتيسر للحمير بما عليها من حمل أن تجتازها فوقفنا حيارى لا ندرى ماذا نصنع وزاد الطين بلة أن أخذت السماء ترشح بالمطر رذاذاً وأصبح من الخطر وقوفنا وتمهلنا فى السير إذ لو زاد المطر وتدفقت العقبة بالماء وما يحمل ويدفع من الصخور والأحجار لحاقت بنا كارثة . ولكن الله لطف فقد ساق إلينا بعض قاصدى أبها من الركبان والمشاه وتكاملنا فى أسفل العقبة نحو العشرة من المسافرين أخذ بعضنا يعين البعض فى نقل ما على ظهور الحمير من أمتعة شيئاً فشيئاً مجتازين بها الأخاديد والأجراف التى أحدثتها السيول وأخيراً تعاونا على الحمير نرفعها ونعينها هى الأخرى على اجتيازها .

ظللنا نعالج السير فى العقبة على هذا الوضع حوالى خمس ساعات مع أن العادة أن ينتهى السير فيها فى ساعتين ونصف على أوسع تقدير .

وصلنا قرية الشرفه فى أعلا العقبة نقطر ماءا فأوينا إلى أحد بيوتها

ونشرنا أمتعتنا نعرضها للهواء التماسا للجفاف أما الشمس فكانت محجوبة بالغيوم .

قضينا فى عملية التجفيف وتهيئة ما نطعمه إلى الساعة العاشرة بعد العصر ثم حزمنا أمتعتنا على الحمير واستأنفنا السير وفى حوالى الساعة الثانية بعد الغروب وصلنا قرية البدله فرأينا البيات بها إلى الصبح ودخول أبها نهارا .

الرفيق قبل الطريق

أقمت فى أبها يومين أترقب رفيقاً أصحبه معى إلى النماص يعتمد على رفقته وخبرته بالطريق فإن المسافة إليها من أبها لاتنتهى بأقل من خمسة أيام . ومن الخطل ذهابى منفردا لا سيما بعد ما لقيت فى طريق إلى أبها ما لقيت

تيسر الرفيق والخبير بالطريق وفى صباح يوم الأربعاء تحركنا من أبها وجهتنا النماص وقاصد النماص من أبها يأخذ الطريق من شمال جبل شمسان مع ميل قليل إلى الشرق وبعد أن اجتزنا حدبة الجبل المذكور وهبطنا وادى « الرُضْف » ثم رقينا سلسلة جبال جرداء وسرنا فيها نحو ساعتين وصلنا وادى « حَمرَهْ »[1] وفى قرية من القرى القائمة على ضفافه قيلنا وصلينا العصر ، ثم استأنفنا المسير وقبيل المغرب وبعد أن مررنا بقريتى بنى رَزَام والملاحة وصلنا « قرية الفَيئَةِ » ولزمنا المبيت بها فان ما بعدها خلاء غير مسكون بقدر ست ساعات

بتنا فى أحد بيوت قرية الفيئَةِ إلى الصبح ثم شددنا أمتعتنا على الرواحل

---

(١) وادى حمرة كما جاء فى كتاب فى بلاد عسير صفحة ٩٤ ينبع من جبل تهلل ويصب فى وادى أبها عند بلدة المحاله من قرى بنى مالك عسير ويملك البلاد القريبة من راسه « علكم » من عسير ويملك ما كان فى أسفله ووسطه بنو مالك من عسير أيضا .

وسرنا وبعد ساعتين وصلنا باحة شعار . ومن أبها إلى باحة شعار طريق يكاد يكون معبداً رغم مروره على عدة حدبات وذلك لأنه أقرب طريق لوصول المعدات والمؤن الحربية من ثغر القنفذة إلى أبها مما دعى الترك أيام حكمهم البلاد إلى أعمال يد الاصلاح فيه ، ومن الميسور أن تسير السيارات من أبها إلى باحة عقبة شعار دون كبير عناء وبقليل من الاصلاح والتمهيد .

وقد بنى الترك فى عهدهم الأخير عند رأس عقبة شعار ثكنة للجند يقميون بها لحماية الطريق وتطل على الثكنة سبعة أبراج على رؤوس الجبال المحدقة بالباحة لحماية من بها من الجند يسمونها (مفاتيل) . وقد تطرق الخراب إلى الثكنة بل لم يعد منها ما يقوم على حاله السابق سوى جدار واحد .

تركنا عقبة شعارعن يسارنا وملنا شرقا وبعد أن قطعنا الباحة بدأنا نرقى أكاما تتخللها شعوب واسعة تسمى « المِسْوَحْ » فى نهايتها فم شعب يسمى « الدَّرجه » هى آخر حدود قبائل عسير السِراه من هذه الجهة

رقينا الدرجة ـ وهى عبارة عن صخار ركمتها السيول ـ وأصبح سيرنا صعوداً وهبوطاً من ذروة جبل إلى سفح آخر نحو أربع ساعات ، وتسمى سلسلة هذه الجبال « بالأشْعبْ » وهى جبال جرداء محترقة لا أثر للنبات فيها بالمرة إلا ما كان من بعض طفيليات شوكية تنبت فيما يستقر به ماء المطر من ملتقى السفوح ، لافرق بين ألوانها ولون الصخر ، وحتى منظر الجبال منذ فارقنا أبها لم يكن مخضرا بل أجرد إلا من بعض شجر الطلح وما شابهه غير أن الأشعب هذه تزيد بأنها كئيبة المنظر كمدة اللون

وادى عِبل

ومن ذروة أحد جبال الأشعب هذه أشرفنا على وادى « عبل» وهو واد

ملتو تقوم فيه نحو سبع قرى تحوى بضعة بساتين وعدداً من مزارع الشعير والحنطة والذرة . وهو واد منخفض فقد كانت درجة الحرارة فيه ظهراً نحو أربعة وعشرين درجة ستنخراد مع أننا تركناها فى أبها فى نفس الوقت خمس عشرة درجة . والجبال الممتدة على طرفى الوادى جرداء صلدة لا أثر للنبات فيها .

قبيلة بالأحمر (١)

ووادى عبل هذا هو أول منازل قبيلة « بالأحمر »(٢) قيلنا فى قرية منه يقال لها قرية ابن مِلْحِمْ إلى الساعة الثامنة بعد الظهر ثم سرنا وبعد مسير ثلاث ساعات فى سلسلة جبال جرداء مقفرة تسمى « الضَّحْيِ » أشرفنا فى نهايتها على وادى «صَبَحْ» وهو واد يخص قبيلة بالأحمر المار ذكرها وكانت سفاح الجبال المحدقه به خضراء مما تكاثف عليها من شجر العرعر وغيره

ذو العشـــيرة

وفى قرية « آل مشاعِرْ » من قرى الوادى المذكور بتنا إلى الصبح فى بيت رجل يسمى عبد الله بن عايض غبطته على ما كان له من نسل فقد أحدق بنا ونحن نتدفأ حول الموقد عشرة من أبنائه كلهم من أم واحدة وذكر لنا أن له من زوجة أخرى نصف هذا العدد مع أنه لا يزال حول الأربعين فيما تراءى لى

إلى منازل بالأسمر

وفى نحو الساعة الواحـــدة بعد شروق الشمس تحركنا من القرية وبعد أن اجتزنا عقبة « الجَعْد » وهم ينطقونها « اليعد » وعقبة آل عامر

(١) أهل هذه الجهات ينطقون هكذا بالسّْمَر وبالحّمر بدون همز وفى كتاب صفة جزيرة العرب عرفهم ببنى الأسمر .

(٢) قسم صاحب كتاب فى بلاد عسير صفحة ١٥٨ قبيلة بالأحمر إلى عشرة افخاذ وعد لهم ٣٠ قرية .

ومررنا بقرية على الطريق من قرى (وادى بيحان) وقطعنا سلسلة جبال تسمى « شعايه » - أشرفنا على وادى « عِباله » أول حـــدود منازل قبيلة بالأسمر » (١) . وكان ذلك حوالى الساعة الخامسة والنصف ظهراً .

قيلنا فى قرية من قرى الوادى تسمى « ذبوبا » ولم نطل بها المقام بل بعد ساعة سرنا فمررنا بقرية «المِضْفاه» وقرية «ابن خِرِيبْ» وبهذه القرية سوق موضعى يقام كل يوم اثنين ثم مررنا بقرية « الفرسه » ثم رقينا ذروة جبل أشرفنا منه على شِعب « حَظْوَهْ »(٢)

جمال الطبيعة

و شِعب حَظْوَه يبدأ من الذروة المذكورة منحدراً إلى وادى سَدَوان كثير شجر العرعر وغيره من الأشجار فالمشرف عليه لا يرى إلا غابة كثيفة وكتلا من الأشجار المتشابكة مد البصر .

سرنا هابطين نلتوى فى السير بين صفوف الأشجار القائمة متتبعين أيسر

(١) قسم صاحب كتاب فى بلاد عسير قبيلة بالأسمر إلى ستة أقسام وعد لها ست قرى وذكر أن لهم فى تهامة ٣٧ فرعا صفحة ١٥٩ .

(٢) قال لى بعض من تعرفت به فى عسير أن فى وداى حَظْوَه هذا وبين أشجاره المتشابكة كان الشنفرى الأزدى العداء المشهور أحد لصوص العرب وفتاكها وصاحب اللامية التى أولها .

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فانى إلى قوم سواكم لأميل

يتصيد أفراد قبيلة سلامان ويقتلهم حينما أقسم أنه سيقتل منهم مائة وأن السلامانيين تصيدوه فى نفس المكان بعد أن قتل منهم تسعة وتسعين وقتلوه ثم طرحوا رأسه اهانة له فمر أحد السلامانيين بها وضربها برجله فدخلت فيها شظية من الجمجمة كانت سبب موت السلامانى وبرت بذلك يمين الشنفرى وتم قتله مائة منهم :

والقصة مما ذكره الرواة فى كتب الأدب وقد تكون اسطورة من أساطير العرب أو أن بعضها على الأقل دخله المبالغة والخيال ولم أعثر فى كتب المعاجم التى تيسر لى البحث فيها على ذكر لشعب حظوة هذا .

مسلك فيها وصوت خرير المياه المنحدرة من فروع الشعب إلى وسطه يسايرنا وقد يهبط بنا الطريق إلى قلب الشعب فنمر على حافة غدران مترعة بالماء إذا ما داعبت الريح صفحته تجعد وترجرج فى لطف ومنظر بديع للغاية.

ومناظر الشعب كلها جميلة خلابة فاتنة فالسائر فيه لا يشعر بوهج الشمس ولا وضح ضوئها ولو كان سيره فى الظهيرة من تكاثف الشجر وتشابك أغصانه والريح لا تهب فيه إلا رخية لينة ، فكان كما قيل :

يصد الشمس أنا واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم

سرنا منتشين مبتهجين بما وصفته لك من مناظره الساحرة نحو ساعة ونصف خرجنا منه فى نهايتها إلى وادى « سدوان » .

بلاد بنى شهر[1]

وفى طرف الوادى الشمالى بتنا فى أحد المنازل إلى الصبح ثم استأنفنا المسير وبعد أربع ساعات مررنا أثناءها بجبال لا تخلو صفاحها الغربية من إخضرار تسمى با « الدهناء » وهى الحد الفاصل بين منازل قبيلة بالأسمر وبين قبيلة بنى شهر . وصلنا قرية آل زخران فجزناها إلى باحة « تنومه » .

وفى قرية من قرى الباحه يقال لها قرية « ابن العَرِيف » قيلنا إلى الساعة التاسعة عصراً ثم شهدنا سوق السبت وهو سوق يقام فى باحة تنومه كل يوم سبت أكبر أسواق بنى شهر ومع ذلك فلم يكن شيئاً بالنسبة لسوق الأحد بالشعبين أو لسوق أبها .

وباحة تنومة باحة واسعة تشتمل على عدة قرى والجبال المحيطة بها جرداء إلا ماواجه الغرب فلا يخلو من بعض الأشجار ومناخها دافىء فدرجة

(١) الشائع على السنة أهل هذه الجهات بنى شهر بكسر الشين ولكنى وجدتها فى كتاب صفة جزيرة العرب للهمدانى طبع ليدن مضبوطة فى عدة مواضع منه بالفتح

الحرارة كانت ظهراً عشرين درجة . وفى طرفها الغربى عقبة تسمى (ساقين) بعد أن قضينا حوائجنا من السوق استأنفنا السير مترفقين فمررنا بوادى « ملَيَّحْ » وفيه عدة منازل ولم تخل جباله من شجر العرعر لا سيما قرب عقبة القامة . قطعنا الوادى ورقينا عقبة القامة فى نحو ساعة وربع ، ومررنا فى سطحها على قرية الظهارة فاجتزناها واجتزنا بعدها قرية « آل مشهور » أو بنى مشهور وفى نحو الساعة الواحدة بعد الغروب وصلنا قرية النماص . وكانت طريقنا من باحة تَنُومَهْ إلى النماص فضة[1] فكنا نضطر إلى المشى على الأقدام فى كثير من الأحيان على أن الطريق جميعه كان وعراً شاقاً اعترضتنا فى أثنائه عدة عقبات كنا نمشيها تحرزاً واحتياطاً من السقوط عن الدواب .

النمـاص

والنماص باحة تشبه سطح الهدا[2] ولكن ، تزيد عليه فى السعة والقرية كائنة فى الطرف الشرقى من الباحه لا تتجاوز بيوتها المائة بل عدتها بيتاً بيتاً فكانت ثمانية وتسعين لا غير .

وأكثر البيوت من ثلاث طبقات وبيوت العسابلة شيوخ بنى شهر مجصصة من الداخل والخارج وجميعها من الحجارة بل وجميع بيوت قبائل بالأحمر وبالأسمر التى مررنا عليها فى قراهم من الحجارة أيضاً عدا بعض بيوت فى وادى عبل من منازل بالأحمر فقد كان نصفها الأسفل من الحجارة ونصفها الأعلى من اللبن .

---

(١) الأرض الفَضَّة هى المنثورة عليها الصخار والأحجار بعضها فوق بعض

(٢) الهدا هو سطح جبل كرى فى الطريق الجبلى بين مكة والطائف عليه عدة قرى وبساتين فيها مختلف الثمار ويكثر فيها شجر الورد .

وسكان قرية النماص لا يتجاوزون الخمسمائة على أكثر تقدير معظمهم من الكلاثمة بطن من بنى شهر .

والبيوت إلا النادر غير نظيفة من الداخل ولا تحوى الحجرة سوى نافذة واحدة مربعة لا تتجاوز سعتها ثلث المتر لشدة البرد فى النماص ولهذا ففى أغلب الأوقات تجد الغرفة ضعيفة الضوء ويسمون النافذة « بَدَّايَهْ » . وليس فى البيوت مراحيض ولا هى مزخرفة من الداخل كبيوت أبها أو رجال بل مليطة بالطين فقط .

ولا يوجد فى القرية سوى دكان واحد غير واف بما يحتاجه المرء ولولا أننا صحبنا معنا مقداراً من السكر والشاى لما ذقناه مدة مقامنا بها .



« صورة بعض بيوت قرية النماص »

واللحم لا يعرفونه إلا مرة فى الأسبوع ففى القرية سوق صغيرة جداً تقام يوم الثلاثاء من كل أسبوع . وأكثر ما يذبحون يوم السوق ، البقر على أن المواشى الأخرى موجودة لديهم لكنهم لا يذبحونها إلا فى المواسم والولائم ولضيف عزيز يطرقهم .

وعادات أهل النماص وبنى شهر عموما تتقارب وعادات أمثالهم من سكان جبال الحجاز كغامد وزهران وغيرهم .

واستبدالهم أم بأل قليل جداً فى كلامهم أما الجيم فضائعة لا تجد لها أثراً فيقولون ياء بدلا من جاء والياعه بدلا من الجماعه .

وألوانهم هى الألوان العربية على أن منهم من هو أبيض البشرة وردى الوجنات لبرودة المناخ وارتفاع النماص وعلوها فهى تعلو سطح البحر على ما قيل لنا بألفين وثمانمائة مترا .

ودرجة الحرارة فى الأيام الخمسة التى أقمنا فيها لم ترتفع نهاراً عن ثمانية عشر درجة وتهبط ليلا إلى العاشرة مع أننا كنا فى أشهر الربيع .

ولباس سكان النماص الثياب البيضاء للرجال والسوداء أو الملونة للنساء مع فارق بالطبع فى الشكل فيما يختص بكل جنس .

أما التهاميون منهم وهم كثير فلباس الرجال الوزرة على غرار سكان تهامة عسير حتى الرؤوس فانها حاسرة وافرة الشعر .

أما النساء منهم فيلبسن الثياب ويعتدن لبس الطفشات التى سبق وصفها لشدة الشمس والحر فى تهامة . ولم يتسن لى مشاهدة شىء من ألعابهم وأفراحهم واخالها لا تختلف كثيرا عن عادات من يجاورهم مما سبق وصفه .

وفى سطح النماص عدة مزارع للحنطة والشعير والعدس والذره والسياله وليس بها من أشجار الثمار ومن الخضار ما يستحق الذكر . ولكن حول قرية النماص نحو سبع عشرة قرية تنخفض عنها قليلا يوجد بها كثير من الأشجار المثمرة والخضار بسائر أنواعها وفى بعض بساتين العسابلة فى قرية النماص توجد بعض شجرات للجوز « القعقع »

ومن مزرعات قرى بنى شهر التهامية الدخان الأخضر والبصل والثوم وهى وافرة لديهم يصدرونها إلى من جاورهم من القبائل والقرى ولا تخلو صدور جبالهم المواجهة للغرب من أشجار للبن ولكنها قلة

حدود بنو شهر

وبنو شهر قبيلة وافرة العدد تمتد منازلهم شرقاً إلى قبائل شهران وغرباً تصل منازل من يرجع فيهم من سكان التهائم إلى قرب ثغر القنفذه وشمالا تحدهم قبيلة بنى عمرو وجنوباً منازل بالأسمر التى سبق ذكرها

وممن يصاقبهم من القبائل التهامية مما يلى الغرب أهل وادى الريش وآل موسى والِجمده وربيعة المقاطِرْ .

ومن أرفع الأمكنة فى بلاد بنى شهر جبلان فى مواجهة النماص يعرفان بِـ « بَللَّحْصنْ » كنا نراها من النماص فى الجهة الجنوبية الغربية منه شاهقة الذرى معممة رؤوسها بقطع السحاب .

وأمام عقبة النماص مما يلى الغرب إلى تهامة ثلاثة جبال شاهقات إلا أنها منفصلة عن سلسلة جبال السراه فهى تحسب من جبال تهامة العالية وسكانها يعدون فى بنى شهر واسم أحد هذه الجبال « ثَرَبانْ[١] » والثانى « نَهْوَ » والثالث « رَيْمان[٢] » وذرى هذه الجبال على ما قيل لى لاتقل ارتفاعاً عن سطح النماص .

---

(١) جاء فى صحيح الأخبار للعلامة بن بليهدفى تعليقه على أقوال البكرى . قوله وهناك جبل ثان فى بلاد زهران منهم من يسميه تربان ومنهم من يسميه ثربان بالثاء ، ولا أدرى هل يعنى هذا الجبل أم غيره لأن موقع هذا الجبل لايوازى منازل زهران بل يوازى بلاد بن شهر .

(٢) ذكر هذا الجبل وأنه من الجبال المشهورة الهمدانى فى كتاب صفة جزيرة العرب ص ١٢٥

رجال الحِجْر

وبنو شهر ينقسمون إلى قسمين : سلامان واثله ويقال لهم ولبالأسمر وبالاحمر « رجال الحِجْر » وأخال انهم ابناء عمومة يتقاربون فى الاصول غير البعيده .

الحضـارة تغزو

ومع خلو النماص من كثير من الضروريات فضلا عن الكماليات وبعدها وعسر الطريق إليها فقد سمعت فى ليلة من الليالى الست التى قضيتها بها « الراديو » فى بيت شيخ بنى شهر وكانت ليلة فريدة تشنفت فيها أسماعنا بصوت بلبلة الشرق الآنسة أم كلثوم .

فى طريق العودة إلى رجال

قضيت مهمتى فى النماص واعتزمت العودة إلى مقرى برجال وفى صباح يوم الجمعة فى نحو الساعة الثانية تقريباً شددنا رحالنا وبارحنا القرية نقصد « تنومه » وبعد أن اجتزنا عقبة القامة تعرض لرفيق أصهاره وألزمونا بالمبيت لديهم فلم تر بدا من القبول والاستجابة للدعوة ولم يقصر مضيفنا ، فقد ذبح لنا كبشاً ، وذلك يعد فى هذه الجهات غاية الإكرام ، وقد لاحظت أن طريقتهم مع الضيوف فى تقديم الضيافة تختلف عن عادة أهل عسير وطريقتهم ، فشهران وعسير وألمع يقدمون الطعام ويتركون الضيف وحده يتصرف كيف شاء ، بل يغلقون عليه الحجرة كما سبق القول عند الكلام على قرية الخميس فى شهران .

تقـــاليد وعادات

أما بنو شهر كما شهدته من مضيفنا ، فإنهم يشاركون الضيف فى الجلوس على المائدة ، وبعد أن يحضروا كامل الذبيحة يخرج الضيف قسما منها لأهل البيت ويسمونه قسم المعزبة ثم يوزعون الباقى من الذبيحة على الحاضرين من الضيوف ومن شاركهم الجلوس من أهل البيت على المائدة .

بتنا وأصبحنا وقدم لنا مضيفنا طبقاً من التمر تناولناه صرفاً على القهوة ثم استأنفنا المسير، وبعد ساعتين وصلنا باحة تنومة ، وشهدنا قيام سوق السبت مرة ثانية ، وظللنا فى تنومة حوالى أربع ساعات ،كنت أراود نفسى خلالها أن لا نعود عن طريق السراه التى قدمنا منها ، بل نهبط إلى تهامة ، فان فى باحة تنومة عقبة تسمى ساقين ، كما سبق القول توصل إلى قرية تسمى نَعْـُص[1]

وقيل لنا أن العقبة رغم طولها فانها سهلة المسالك ، وأن المسافة فيها إلى نعص خمس ساعات ، ومن نعص نسير وسط واد إلى محايل حوالى خمس ساعات أخرى ، ومن محايل إلى رجال عشر ساعات فى طريق سهل بالنسبة لطريق السراه التى طالما اضطررنا فيها المشى على الأقدام . ولكنى لم أتبين فى رفيق الارتياح لهذه الرغبة ، فرأيت رعاية ما يريد وعدنا من حيث جئنا .

استضفناهم كرها

كان رفيق يحرص كل الحرص على أن لا يمسى علينا الليل دون أن نكون فى بيت من بيوت أحد القرى التى نصادفها فى طريقنا حتى أنه فى ما تانا أدركنا الليل فى أثناء المسير قبل أن ندرك أحد البيوت ، فنزل عن حماره يستحثه وحمارى على السير إلى أن وصلنا بيتاً من البيوت فطرقناه لنستضيف أهله فأبوا فتحه ، لأنهم يخشون أمثالنا لما يلحقهم من البعض من أذى ، غير أن صاحبى كان جريئاً فتسور الجدار وفتح باب الحظيرة من الداخل وأدخلنا دوابنا فيه واستضفناهم كرها ، ولكنهم حمدوا حالنا بعد ذلك واطمأنوا إلينا .

---

(١) أسفل عقبة ساقين واد يسمى « بَقَرَه » والقاصد محايل يمكن له ألا يعرج على قرية نَعْـُص ، بل يأخذ طريقه من وادى بقره إلى قرية المَنْظَر ومنها إلى قرية حضن التابعة للريش ومنها إلى محايل ، وهو طريق أقصر من طريق قرية نَعْـُص على ما قيل لى .

وكنت كرهت هذا الفعل من رفيق ، وأبديت له ذلك فاعتذر لى بأن الموقف كان حرجاً وقال أن فى المسير بعد الغروب فى هذه الديار مخاطرة ، فهى كثيرة السباع المفترسة وبالخصوص النمور . والنمر حيوان لا يقل خطراً عن الأسد ، بل هو أكثر غدراً وختلا وأخف حركة منه .

وصلنا أبها سالمين وبقيت فيها يومين استجم بعض ما فقدته من الراحة ، ثم نزلت إلى رجال .

نظرة عامـــة

هذا كل ما عرفته من أحوال جبل عسير وسكانه ومن جاورهم ممن جاء ذكرهم ، وأرى قبل أن يقف البيان وينتهى بى القول أن أذكر ما لمسته وتبينته من أخلاقهم ومزاياهم النفسية ، ومدى استعدادهم الطيب وما أكسبتهم البيئة من طبائع وأخلاق . فالعسيريون على العموم أصفياء السريرة فى سذاجة فطرية بالغة ، أذكياء ، دقيقوا الملاحظة سريعوا الإدراك كرام مضيافون حريصون على حسن السمعة فى هذا السبيل ، شجعان شديدو الأباء لما لم يألفوا ، يرتابون فى الغريب الطارق منازلهم ويألفونه إذا اطمأنوا إليه . وبالاختصار فان الطباع والسجايا العربية متجلية فيهم بكل وضوح .

ومما يحمد لهم ويدل على دماثة أخلاقهم ، إطلاقهم كلمة الجار والجارة على من يستخدمونه للعمل تكريما وإعزازا له عن كلمة خادم .

وفى بعض نطقهم فصاحة تذكر بكلام العرب القدماء ، ولا يزال فى ألفاظهم كلمات على نطقها الصحيح ، فيقولون فى الاستفهام لِمَ ولِماذا ، وإذا كان استنكارياً قالوا فِمَ ، مستعينين بحركة الوجه وتجهمه ، ويستعملون ثَمَّ بمعنى هناك وسمعت منهم بعض كلمات أظن أن استعمالها قد اندثر عند غيرهم

فقد كنت عند جار لنا فى رجال وانفلت له ثور وهرب يقصد أعلى الشعب الموالى للبيت ، وكان رفيقاً له فى أسفله ، فأخذ يصيح فيه إدرك اللاى إدرك اللاى ، مما لم أفهمه إلا من مشاهدة الحادث ، فان اللاى فى اللغة الثور

الوحشى ، وكثير غير ذلك مما لايحضرنى ذكره الآن (١) .

وقد لمست فى أبناء قرية رجال من فرط الذكاء وسرعة الفهم والأدراك لما يتلقونه من دروس ما أعجبت به جداً . وعندما تقدمت لمديرية المعارف بمكة بنتائج أختبارهم النهائى فى السنة الثانية لقيام المدرسة ، وأطلعت على مبلغ ما وصل إليه معظم الطلبة من إجادة فى رسم الحروف وصحة الاملاء وصواب الاجابة فيما قدمته لها من أوراق الأختبار التحريرى ، بعثت إلى بمذكرة شكر وتقدير لما لمسته من ذلك .

الأقبال على التعليم فى رجال

وقد كان الأقبال على الالتحاق بالمدرسة من أهل القرية فائقا جداً فلم تنته السنة الأولى إلا وقد بلغ تلامذتها مائة وأربعين تلميذاً مع صغر القرية ، وهذا الأقبال وهذه الوفرة تضافرت على إيجابها أسباب عدة .

أولا — ان أهل القرية معظمهم بل جميعهم من المتكسبة بالبيع والشراء ، فهم فى حاجة إلى الإفادة من تعليم أولادهم القراءة والكتابة والحساب ، ولأن منهم العائلة الحفظية ، وهم أولو سابقية فى تقدير العلم والعرفان ، وبيتهم بيت علم .

ثانيا — اننى لم أتقيد فى قبول الطالب بما اشترطته المعارف من سن ، بل تساهلت بعض التساهل غير المخل ، كما لم أراع ما يقتضيه المنهج من أوقات الدراسة ، بل راعيت فى ذلك وضع سكان القرية فى حياتهم اليومية .

---

(١) كان المرحوم مصطفى صادق الرافعى يسمى الشيشة «الأركلية» الكركرة ويقول أن العرب فى بعض الأحيان تسمى الشىء بصوته ، وهكذا سمت الشيشة عربيةلم تتجاوز السادسة فقد كنت فى أمسية بعض الأيام جالسا فى الغرفة فى البيت الذى نزلناه أول ماقدمنا أبها أدخن الشيشة وحولى صاحبة البيت وأبناؤها الثلاثة ، فسألت الأم إحدى البنات ، ماهذه ياظبية؟ فقالت على الفور الكركرة ، ورحم الله الرافعى .

فكنا نبدأ الدرس الأول مع شروق الشمس ، وجعلت الفسحة الكبرى والتى تكون عادة بعد صلاة الظهر لتنال الغذاء ـ فى ضحوة النهار ، يتناول فى أثنائها الطلبة طعام الأفطار ويسمونه «قَرُوعاً» .

كما قصرت البرنامج اليومى من وقت الدراسة إلى ما بعد الظهر بقليل فى سائر فصول السنة وطول أيام الدراسة . مما يسَّر لأولياء الطلبة أن ينتفعوا بهم فى مصالحهم الخاصة فى نصف النهار الأخير .

ثالثا — حببت للطلبة وأوليائهم التعلق بالمدرسة والحرص على الانتساب إليها ، فانى عندما علمت أن جلالة الملك (عبد العزيز آل سعود) حفظه الله تفضل فنح أعانة شهرية قدرها ريالين لكل يتيم من أبناء مدرسة أبها، تقدمت بطلب مثل ذلك لأيتام مدرسة رجال ، ولما حصلت الإجابة لم أتورع و نظمت معظم طلبتها فى سلك الأيتام ، مراعيا فى ذلك من كان وليه فقير الحال .

رابعا — جعلت من غرفة الادارة وفناء المدرسة منتدى للسمر والاجتماع بأهل القرية وايفاع الطلبة فى معظم أيام الأسبوع ولياليه .

حاجة القرية الى طبيب

كنت قد جلبت معى مقدارا من الأدوية البسيطة والنباتية ومالا حرج من الاشارة به من غير الطبيب وأشياء من وسائل الأسعاف كالمراهم ومستلزماتها من قطن ولفائف معقمة وغير ذلك من أدوية التطهير ، فلم أقتصر فى استعمالها علينا فقط ، بل اشركت مع الطلبة أولياءهم من أهل القرية فى الانتفاع بها .

ولما رأيت التهافت على ذلك وشدة الحاجة إليه ، كتبت لمديرية المعارف لتكتب إلى إدارة الصحة لتمدنى بقسم وافر من العقاقير ، ففعلت وزودتنى إدارة الصحة بالكثير مما ذكرت .

وخصصت ساعتين بعد الظهر لممارسة تطهير وتضميد جراح من به جراحة . وكنت أتعاون وزميلى مراسل المدرسة على هذا العمل . مما جعل المدرسة عيادة صحية أولية ، وشىء خير من لا شىء على كل حال ، ولعل الحكومة

وفقها الله كما عنيت بتأسيس مدرسة فى هذه القرية أن تعنى بتأسيس مصحة ، ولو بطبيب واحد ، فان فى قرية رجال وما حولها من القرى من يعدون بالألوف من الناس والعناية بصحة الأبدان وسلامة المجتمع من العلل السارية لا يقل وجوبا عن العناية بصحة الأذهان وتثقيف العقول وترقيتها ، بل لا يكون العلم الصحيح إلا فى الجسم الصحيح .

العطلة الصيفية والرجوع إلى مكة

أنقضت الدورة الدراسية وحل وقت العطلة ، فرجعت إلى مكة والنفس لا زالت عالقة بالتوسع فى ارتياد هذه الجهات وزيادة التعرف عليها ، فقررت الاستمرار فى عملى ، وما أن انتهى وقت العطلة حتى رجعت .

مهمة جديدة ــ رحلة إلى تهامة

وفى أثناء عودتى وأنا بأبها لم أهبط رجال بعد ، تلقيت برقية من مدير المعارف يكلفنى بأن أقوم بدورة تفتيشية على مدارس تهامة فى صبيا وأبو عريش وجيزان . فصادف ذلك هوى فى نفسى وكانت فرصة سنحت لمشاهدة تلك الجهات والاصقاع .

وصلت رجال وأقمت بها نحو شهر رتبت فى أثنائه شؤون الدراسة على ما تقتضيه غيبتى ، وعهدت إلى زميلى الأستاذ عيسى فهيم فى إدارتها .

فى الطريق إلى الساحل

انتهزت فرصة سفر بعض أهل قرية رجال إلى درب بنى شعبة الواقع فى طريق لأن لهم مزارع فى منطقة الدرب يتملكونها ويجبون حاصلاتها فى مثل هذه الفصول واستاجرت حمارين لى ولزميلى مراسل المدرسة محمد الحربى الذى رأيت أن يصحبنى بعد ان أقمت شخصا من أهل القرية ينوب عنه فى عمله بالمدرسة .

وفى يوم الاثنين الخامس عشر ذى القعدة سنة ١٣٦١ سافرنا من رجال فى رفقة من ذكرت من أهلها ، وبعد أن تجاوزنا قرية البتيله أخذنا وسط وادى كِسان منحدرين إلى سوق السبت الواقع فى آخر الوادى نمشى بين مخرفة منَ أشجار السدر والجميز والأثب كانما قامت على تنظيمها يد الانسان .

وبعد أن سرنا ثلاث ساعات فى طريق كله على ماوصفت ، وصلنا « بئر ابن داحة » واختار الرفاق أن ننزل عندها ونتناول عشاءنا ، ثم نستأنف المسير لأنها آخر بئر تصادفنا فى طريقنا إلى الدرب .

قضينا فى تناول العشاء وماليه حوالى ساعتين ، ثم استأنفنا سيرنا منحرفين الى الجنوب تاركين وراءنا آخر حدود قبائل ألمع من هذه الجهة .

ولا زلنا فى سير متواصل مررنا أثناءه بمكان يقال له « الرَّهْوَة » ، ثم « بالجوْفاء » ثم با « الَحمَّة (١) » ثم « الِجبِيل » ثم بالمْدَارِية » فا « الَجعْرَه » . وفى نحو الساعة التاسعة ليلا وصلنا وادى « رِيمْ » .

وهو واد نخل تكثر على حفافيه أشجار الدوم ، والدوم من الأشجار التى يكثر وجودها فى هذه الجهات .

وعلى جانب إحدى غدران الوادى بتنا إلى الصبح ، وفى الساعة الحادية عشرة أستيقظنا ، وبعد أن أدينا الفريضة وتناولنا ما تيسر من الطعام استأنفنا المسير .

---

(١) جاء فى كتاب صحيح الاخبار ص ٦٥ ج ٤ نقلاعن ياقوت ج ٢ ص ٣٤١ قال ابن شميل الحمة حجارة سوداء تراها لازقة بالأرض تغور فى الليلة والليلتين والثلاث والأرض تحت الحجارة تكون جلد وسهولة والحجارة تكون متدانية ومتفرقة «وهى فى هذا المكان كذلك» وقدعدد ياقوت أماكن كثيرة تسمى بالحمة وقال والحمة الاسود من كل شىء . وروى عن نصر (الحمة جبل أو واد بالحجاز) ولعلها تكون هذه الحمة فإنها فى أطراف جبل الحجاز .

درب بني شعبة

وفى الساعة الواحدة والنصف بعد شروق الشمس من يوم الثلاثاء وصلنا الدرب « درب بنى شعبة » ، فاختار أحد من أنس به من الرفاق أن أصحبه فى النزول عند قيم مزارعه التى يملكها فى الدرب وبئس ما اختار .

فقد دخل بنا أحد أكواخ القرية ، وهو وإن لم يختلف عن أمثاله من مساكنها ، إلا أن أهله كانوا فى غاية القذارة . فما كادت أقدامنا تخطو باب الكوخ حتى هاج علينا الذباب من داخله فى كتل كأنها قطع الليل .

ولم يكن فى وسعى لما أنا عليه من تعب ونصب أن أعدل عن الاقامة فيه . وأحتمل عناء البحث عن منزل آخر غيره ، فقد أضنانى السير والركوب مدة لا تقل عن اثنتى عشرة ساعة إن لم تزد . فإننا منذ أن بارحنا بئر بن داحة فى آخر وادى كِسان لم ننزل عن ظهر الحمول كما يسميه أهل هذه الجهات إلى أن وصلنا وادى ريم . ولم يكن اغفاؤنا فى وادى ريم نوماً بمعناه الحقيق ، كما كان والطريق وعرا متعبا للراكب يكاد يكون معظمه أرضاً فضة تتلقاها بالهبوط والصعود من ربوة إلى أخرى ، ومن ظهر إلى شِعب ملتو .

دخلت الكوخ أو العشة ، كما يسمونها وعلى أحد الأسرة من الشريط ويعرفونها بالقعايد ، طرحت بجسمى وتلفلفت بغطاء أحتمى به من الذباب رغم حرارة الطقس ، وأسلمت عينى للكرى ، فلم أتنبه من نومى إلا قبيل العصر بقليل .

موضع الدرب

والدرب ، أو درب بنى شعبة ، قرية فى وسط وادى عتود المنحدر مما يلى عقبة ضَلَعْ وغيرها من جبال السراة . ومعظم مساكنها على حافة الوادى اليمنى ، وسكانها حوالى الألف .

من هم بنو شعبة(١)

وقد كان بنو شعبة هؤلاء فى سابق الزمن أولى بأس وشدة ، والمقول أنهم ليسوا من البدن اليمانية ، بل يرجعون فى قيس . نزحوا من نواحى وادى الدواسر شرقى جبال الحجاز جاءوا منتجعين فاستطابوا المقام على هذا الوادى

(١) ذكر صاحب نفح العود فى سيرة الشريف حمود ما يأتى :

درب بنى شعبة ويعرف قديماً « بدرب ملوّح » سماه هكذا أهل السير عند الكلام على غزوة المهدى أحمد بن محمد إلى الحجاز إلى سرح من آل حب بن انمار حين سبا نساءهم فى أيام المتوكل على الله اسماعيل ، وأن بنى شعبة هؤلاء اختلف الناس فى تسميتهم منهم من يزعم أنهم من تغلب بن وائل بن قاسط بن هيت بن قصى بن عمرو بن أسد بن ربيعة بن نزار وليس على هذه الدعوى شاهد . وانما هم يسمون بنى شعبة تغلباً . وفهمت من بعض رؤسائهم أنهم من أكلب وأكلب من خثعم يمانية وليست نزارية على أصح الأقوال . لأنى رأيت محمد بن قتيبة ذكر أن من ولد ربيعة أكلب نزار وربيعة منهم أناس دخلوا فى خثعم وهم قبائل وبطون ليست الى خثعم .

ويمكن أن بنى شعبة من أكلب من ربيعة الداخلين فى خثعم . بالحلف وظهر لى من بعد أنهم ليسوا من بنى شعبة هؤلاء ، وانما هم من بلاد شهران و بلاد بيشة ، وقيل أن هناك محل يسمى شعبة نسبوا إليه وجاءوا الدرب وتغلبوا على أهله وسكنوه ، وكانوا قبل وصول دعوة ابن عبد الوهاب أهل عز ومنعة يحمون الجار والذمار وما كان أمرهم فيهم إلى رجل منهم لعظمة نفوسهم كل رجل يرى نفسه أميراً ، بل عند حدوث حادث ينصبون شيخا منهم يتقدمهم فى الأمر ولم يكن لهم كسب سوى بالخيل العتاق والبيض الرقاق والسماهر الطوال والسوائر الثقال اه .

ويقول صاحب كتاب قلب جزيرة العرب ص ١٥٩ - ١٦٠ بنو شعيبة ، تقيم هذه القبيلة حول « أتود » الى مرتقى ضلع ومعظم القبيلة بالرغم عن ادعائها أنها من قحطان - من أصل سودانى ومن القبائل الرحل فيها آل خضرة وآل حشان . »

وأخال أن ما ذكره صاحب نفح العود أقرب الى الحقيقة الا أن عوادى الزمن هصرتهم وهضمهم الإقليم واندمجوا فيمن جاوروهم كما سبق القول ، وقد جاءت فيما ذكره صاحب قلب جزيرة العرب كلمة « أتود » محرفة عن عتود وكأنه نقل ذلك عن بعض كتب الفرنجة .

وتأصلوا فيه . وكانت لهم شهرة فى اقتناء الخيل على عادة أهل المشرق ، وكانوا أولى فروسية وشجاعة ، أما الآن فقد أمسوا مزارعين لا أثر لما عرف عنهم فيما سبق ، فقد اختلط بهم غيرهم ، وصهرتهم بوتقة الأقليم وهضمهم فتلاشوا فيمن جاوروهم وفقدوا ما كان لهم من خلال .

بنو شعبة اليوم

وهم الآن ينقسمون إلى تسعة أفخاد « آل حَدْرَهْ » و « آل نَخْله » و « الصبخة » و « الصبانية » نسبة إلى صبيا و « الأشراف » و « آل الياس» « والرهاوية » نسبة لسكنى الرهوة آخر منازلهم من جهة قبائل ألمع ، وهى التى سبق أن مررنا عليها فى طريقنا .

والدرب أكبر قراهم ، متوسطة بينها على طول وادى عِتودْ ، وتبعد عن البحر الأحمر بنحو ساعتين أو أكثر قليلا على الدابة مما يلى الشِقيقْ » » .

قرى بنى شعبة

وقراهم تسع قرى : وهى عبارة عن منازل فى جوار المزارع على طول الوادى وامتداده . واليك اسماؤها

١ — « الدَّرْب» ٢ — « الفِرَارْ » ٣ — « النُّشْبِى » ٤ — قائم آل زيد » ٥ — قائم النعجة ٦ — «رملان» ٧ — «القضب» ٨ — «السداد» ٩ — «الزبارة»

الزراعة والمزارع فى الدرب

وأهل الدرب يطلقون على المزارع كلمة « المعامل » ويسمون الركيب « معاد » وهو الوحدة الزراعية لقطع الأرض المزدرع كالفدان ، إلا أنه كما هو الجارى فى الحجاز فى الركيب أيضاً لاضابط لمقاسه فقد يكون المعاد كبيرا وقد يكون صغيرا (١) .

---

(١) جاء فى تقرير حضرة الأستاذ السيد عبد الله الدباغ الخبير الزراعى عن هذه المنطقة بأن المعاد يتراوح عادة بين ٣٥ فى ٣٥ باعاً : والباع مقاس بدائى وهو قدر ذراعى الرجل العادى منفردتين أى طول متر و نصف متر .

وأغلب مزارعهم الذرة بأنواعها(١) ثم الدخن ، وأرضها جيدة النبات بل أغلب أراضى تهامة كذلك ، ولقد قست أحد أعواد الذرة ، فكان طوله سبعة أذرع (٢) .

وإذا ماسال الوادى وسقى المزارع وكان السيل قوياً أمكن زرع الأرض ثلاث أو أربع مرات فى السنة بتلك السقيا فقط دون الحاجة إلى غيرها .

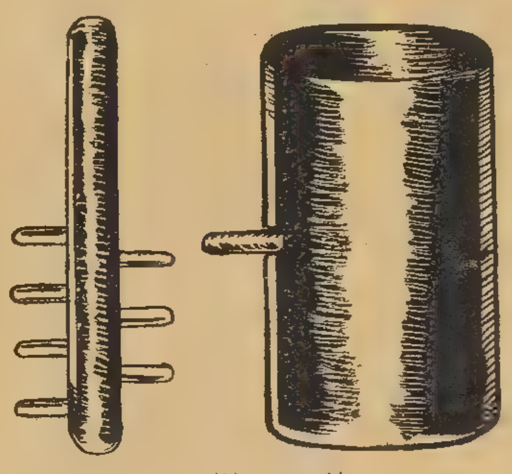
ومما شهدته فى الدرب « ويوجد فى غيره من جهات تهامة نبات يسمونه « الحـوَرَة » ورقه ونبته يشبه ورق ونبت السنمكى أو أدق قليلا له بذر فى حجم حبة الدخن أدهم اللون يستخرجون من أوراقه صبغاً أزرق اللون «النيلة» ويستعد نبات الحورة للجنى بعد تسعين يوماً من زرعه . ويدوم شجره خمس سنوات يصرمونه فى كل خمس وأربعين يوماً مرة كالبرسيم وطريقة إخراج الصبغة منه بسيطة جدا فهم بعد أن يصرمون النبات يخرطون الورق من من الأعواد ثم يجففونه فاذا ماجف تماماً وضعوه فى ماعون من الفخار مثقوب من نحو الثلث منه، ثم يسدون الثقب بعود ويملؤن الماعون ماء ويأتون بعصاذات شخانب متخالفة ويبدأن بعصد الورق فى الماعون بالعصا مدة ساعتين

(١) جاء فى تقرير الأستاذ الدباغ أيضاً أنها أربعة أنواع : الحمراء والزبدية والقهرية والشهلاء ، وأن الزبدية والقهرية كليها أبيض اللون . الا أن سنبل الزبدية يجىء عادة منعكفا على عوده . أما القهرية فان سنبلها يكون مستقيما الى أعلا والشهلاء بين الأبيض والأحمر :

وجاء فى تقرير البعثة الأمريكية عن المنطقة فى ص ١٩١ أن الذرة البيضاء ضعيفة فى التغذية لنقص مادة الفيتامين فيها سواء أكلت بالخضار أو بدونها ، إلا أنها سرت عندما رأت أهل هذه الجهة يخلطون معها فى عمل الخبز الذرة الحمراء وهى غنية بالفيتامين ، وسبحان الملهم .

(٢) جاء فى تقرير البعثة الأمريكية المشار اليها ص ١٣ تحت عنوان تهامة . الدرب . بيش . صبيا . أبو عريش . قولها أن هذه الأماكن الفسيحة الامتداد تزرع بمياه السيول فقط . وتنبت من محاصيل الذرة والدخن نباتاً يدعو الى الدهشة .

أو أكثر على حسب اللزوم ، فاذا تبينوا خروج الصبغة من الورق بعد العصد تركوا العصد ريثما ترسب المادة الصابغة المنفصلة عن الورق فى أسفل الماعون فيطلقون الماء من الثقب ولايزالون يروقون الراسب مرة بعد مرة ثم يفرغونه على حصيرة ويعرضونه للجفاف . وبعد ذلك يجمعونه ويبيعونه ، أما بالقطعة أو بالوزن .



« المعصدة والماعون »

ويستعملون هذه الصبغة فى صبغ ملابسهم ، وقيمة العيبة من الورق الجاف وهى توازى ملء كيس من الخيش تساوى ثلاثة ريالات وتهبط أحياناً إلى نصف ريال حسب جودة المحصول ووفرته ، أو ضعفه وقلته .

مساكن الدرب

وعدد مساكن الدرب لا يتجاوز الثلاثمائة جميعها بل معظمها عشاش . (أكواخ) تحاط أفنيتها بحظائر من الوشيع ، والعشاش من الداخل مبلطة بالطين كما لو كانت مبنية بالحجارة ، وفى القرية خمسة مساجد من الحجر ، أعظمها المسجد الجامع ، ولكنه خرب مخرق السقف وغير معتنى به .

وجوها حار ، فدرجة الحرارة فيها فى فصل القوس آخر فصول الخريف ترتفع ظهرا إلى خمس وثلاثين درجة ، ولاتهبط ليلا عن الخمس والعشرين .

عادات وتقاليد فى تهامة

وأهل الدرب يطلقون على الأولاد كلمة « الجهلة » . والسرر التى يجلسون عليها داخل العشة كلها من المجدولة بالشريط من الخوص ، وما كان منها واطئاً قريباً من الأرض ، قالوا عنه شبرية وإذا كان السرير عالياً لامساند له ، سموه « كرسى » ، والقعائد إذا كانت مزخرفة ومحلاة قالوا عنها « تركية » .

ويعتمدون فى طعامهم على الذرة والقهوة ، ولا بد أن تكون وجبة العشاء من « الحِيَسة » وهى عبارة عن فتيت خبز الذرة مسقى بالحليب ومحلى بالسكر إن تيسر وذوو اليسار منهم يضعون عليه مقدارا من السمن ، ويطلقون على طعام الإفطار كلمة « فتُوَالْ » واستعمالهم للخضار قليل جدا ، والدباء بأنواعها والطماطم ، مما يوجد عندهم بكثرة ، ويسمون الفحم « بَخْشْ »

وأوانى الطبخ والطعام عندهم جميعها من الفخار « الخزف »

وأهل الدرب سمر الألوان نحاف الأبدان ، عدى شيخهم « الشيخ محمد



« صورة بعض الاوانى الخزفية »

ابن هادى بن هزاع ، فانه عريض جسيم فى غاية الطول . يزيد منظره ضخامة دقة أجسام بقية أهل الدرب وضموزها مما جعله طرفة بينهم وشيئاً عظيما .

ولباس الرجال صدر ذات أكمام يسمونها «كُورْتَه» أو صديرى ، وأسفل ذلك الوزرة ، مما تيسر من قماش ، كل بحسب سعة حاله . أما الرأس فعليه طاقية من الخيزران ، مما سبق القول بوصفه عند الكلام على محايل ، ويسمونها «قُبْعْ» .



« صورتان يدويتان تمثلان معظم لباس أهالى الدرب من الرجال »

على أن الكثير من الرجال يكتفى بالوزرة فقط ، ويكون نصفه الأعلى عارياً لشدة الحر التى تجعل اللباس عبثاً ولا حاجة إليه .

أما النساء فلباسهن ثياب لا أكمام لها واسعة الأردان مصبغة بالنيلة إذا حسرت المرأة الثوب عن كتفها بان طرف ثديها وجنبها ويجعلون الثياب قصيرة للركبة وتحتها إزار مصبوغ أيضا ، ويتلفعن بالخمر ويلبسن القبعات الخوص أحياناً لا سماحين العمل فى الشمس .

يبش أو أم الخشب

أقمنا فى الدرب إلى مساء اليوم الثانى واستأجرنا بواسطة شيخ القرية ، حمارين وشخصاً يدلنا على الطريق ثم سرنا نقصد « أم الخشب(١) »

والطريق من الدرب إلى « أم الخشب » معظمه أخاديد وأراضى رملية ومسايل ضيقة لا تصلح بها عمارة . وأشجار الدوم والسلم منتشرة فيه بكثرة . وبعد سير نحو خمس ساعات وصلنا واد يسمى « سَمَرَهْ » بعد أن مررنا بمكان يقال له « الجبلين » لأن الطريق عنده بين جبلين صغيرين . ومكان يقال له « رملان » وآخر يسمى « الدّبرْ » وواد يقال له « بِيضْ »

ووادى سمرة كائن فى منتصف الطريق . نزلنا فيه على حافة نبع من الماء كائن فى بطن الوادى وتعشينا ، وفى الساعة الثالثة استأنفنا السير مارين بمكان يقال له « الْمَعْفَرْ » ثم بخبت البقر إلى أن وصلنا « بئر على » فى الساعة السادسة والنصف فأقمنا عندها إلى الصبح ثم سرنا مغذين وفى حوالى الساعة الثانية والنصف صباحا وصلنا أم الخشب ويقال لها يبش(١) باسم الوادى جميعه من باب إطلاق الكل على الجزء ، وهى بذلك أشهر .
لم نكن نعرف بالقرية أحدا أو بيتاً نقصده ، فأرشدنا مرافقنا من الدرب أن

---

(١) جاء فى كتاب المستر فلبى *Arabian Highlands* ص ٦٥٤ إن ارتفاع أم الخشب عن سطح البحر ٤٩٠ قدما تقريباً .

نقصد مجلس الامارة ، ونستضيف الأمير ، فتلك على ما قال سيرة معروفة متبعة لا سيما ممن يمت إلى الحكومة بصلة .

لم نر بدا من اتباع ما أشار إليه رفيقنا فوافقناه مكرهين ، وقصدنا مجلس الأمير كما قال ، فكان عبارة عن عشه لايتجاوز وسعها المترين فى مثلها وفى صدر العشة كرسى من الشريط « قعاده » ولم يكن بها أحد ، فحططنا رحالنا وربطنا حميرنا فى ردهة بجانب العشة تتصل ببيت من الحجر الرضم من طابق واحد خلناه فى أول الأمر مسكن الأمير الخاص ، ثم تبين لنا أنه لأحد أقربائه ، ثم جلسنا فى العشة على القعادة ننتظر من يأتى ، وبعد نصف ساعة قدم علينا فتى فى ريعان شبابه حاسر الرأس مرجل الشعر متزر بإزار من « المصانف » عليه صديرى ومتمنطق بخنجر أو شامية كما يقولون على سيمائه شهامة ، وفى خلقه وسامة ، تبينا منها أنه الأمير فقمنا لتحيته فحيانا هاشاً باشاً ، وبعد التعرف والاستئناس طلب لنا القهوة ثم الشاى وأبدى استعداده لتأمين ما يلزمنا ، ولم يكن سوى أن نتحصل على حمير تنقلنا إلى صبيا ، فان ما استأجرناه من الدرب لم يكن إلا لأم الخشب فقط .

وهو أمر من أعسر الأمور ، لأن أهل المنطقة جميعاً يرتاعون من تأجيرها على أمثالنا لكثرة مرافقنا وحملنا ولما يفعله البعض بها من اعنات وارهاق فى السير وضرب مبرح ، فأبدينا له حاجتنا هذه ، ومن فوره كلف أحد جلا وزته أن يحضرها فأحضر لنا حمارين

جلسنا مع الأمير مدة نتحدث ثم دعانا لنتناول الطعام ، ودخل بنا البيت الرضم المجاور للعشة ، وقدم لنا مقدارا من اللحم مطبوخاً فى صفحة من الفخار وقليلا من التمر وأقراصا من خبز الذرة . وبعد أن تناولنا ما طاب لنا مما تقدم عدنا الى العشة فى مجلسنا السابق

النعمة الصغرى والنعمة الكبرى

سألنا عن اسم الأمير فقيل لنا أنه الأمـــير « محمد بن قاسم » ممن

يعرفون بآل النعمة الصغرى ، فانه يوجد فخذ آخر منهم يعرف بآل النعمة الكبرى ، وقد كان للأشراف الحسنية فى سابق العهود امارة على المخلاف جميعه .

المساكن والسكان فى أم الخشب

وقرية أم الخشب أكبر قرى وادى بيش(١) ، وفيها من المساكن « العشش » ما يقارب الألف ، وسكانها حوالى ثلاثة آلاف نسمة ، وحول القرية الكثير من المزارع أو المعامل كما يسمونها .

ومعظم المزروعات من الذرة والدخن والسمسم على شاكلة الدرب .

وسقياها مما يسيل به وادى بيش فى موسم المطر ، وبها بضعة آبار للشرب وهى من القرى المشهورة المطروقة دواما فيما بين السراة ومدن تهامة وقراها .

فى الطريق إلى صبيا

بعد أن انتهينا من ضيافة الأمير كما سبق القول وتهيأت لنا المراكب أستاذناه للسفر فأذن لنا . ورغب إلينا شخص من جهينة - أحد قبائل شمال الحجاز اتخذ جيزان مقراً له وقدم بيش مكلفا من أحد تجار جيزان بشراء مايتيسر له

---

(١) وادى بيش معروف منذ القدم بهذا الاسم فقد ذكره اليعقوبى المتوفى عام ٢٨٤ أو ٢٧٨ فى كتابه « البلدان » المطبوع فى النجف بالعراق ص ٨٠ عند ذكره لمراحل الطريق بين مكة وصنعاء . فقد قال أنها احدى وعشرون مرحلة على تقدير المرحلة ثمانية فراسخ : ذكر منها بيش ثم العُرُش . ثم قال فى صفحة ٨١ « بيش أهلها الأزد وبهاقوم من بنى كنانة » والفرسخ ١٢ ألف باع ، وعلى التقريب ثمانية كيلو مترا كما جاء فى المنجد . وكلمة الفرسخ فارسية .

وجاء فى كتاب صفة جزيرة العرب للهمدانى عند الكلام على مدن اليمن التهامية فى ص ٥٤ قوله : ثم بيش وبه موالى قريش وساحله عَثَّر والى حازة عثر تنسب الأسود التى يقال لها أسود عثر وأسود عتود وهى قرية من بواديها وقد ذكرها ابن مقبل فقال : جلوسا بها الشم العجاف كانهم أسود بِتَرج أو أسود بعتود

شراؤه من الحبوب والظلال رغب إلينا هذا الشخص فى أن يرافقنا فى المسير إلى صبيا فرحبنا بذلك . وفى الساعة العاشرة والنصف من بعد العصر تحركنا وبعد أن سرنا نحو نصف ساعة وأشرفنا على قرية تسمى « السلامة العليا » ، أشار علينا الجهينى أن نعرج على قرية السلامة ، وأن نبيت بها إلى الصبح ، لأن الطريق - وهو الخبير به - معظمه بين المزارع كثير المداخل والتعاريج وقد نتعرض فيه مع سواد الليل للتعثر والضلال وأننا لو سلكناه سالمين ، فلزاما أن نبيت على مقربة من صبيا فاننا سنأتيها حوالى الساعة السابعة ، أى فى منتصف الليل وليس من الرشد دخولها فى ذلك الوقت .

قال لنا ذلك وتذكرنا المثل « وعند جهينة الخبر اليقين » فوافقناه لاسيما وقد ذكر لنا أنه يعرف أحد سرات القرية ، ومن الممكن أن نبيت فى رحابه ، فملنا إلى القرية وقصدنا دار من ذكر ، فلم يقصر أهله فى بذل ما استطاعوا من إكرام وعناية بنا وطيب ملاقاة .

وقرية السلامة هذه ومايليها من القرى إلى صبيا عبارة عن مساكن للزارعين فى جوار مزارعهم ، فهى أشبه بالعزب على حد تعبير المصريين .

أصبحنا ووجهتنا صبيا وبعد أن سرنا نصف ساعة مررنا بقرية «أم مَخْرِج» أى المخرج ثم بعد نصف ساعة أخرى مررنا بقرية « الملاحة »(١) ، ثم بعد ساعة تقريبا مررنا بقرية الشاخر » . ومن قرية الملاحة إلى قرية الشاخر هبط بنا الطريق إلى وادى صبيا ومسيل السيل اليها تاركين المزارع التى لم تنقطع عن شمالنا ، ولم تخل حافة الوادى وروابيه من أشجار الأراك منتشرة هنا وهناك ، أما بعد أن تجاوزنا قرية الشاخر ، فقد عاد بنا الطريق إلى حفافى المزارع وخلجان مشاربها من الوادى الفحل .

---

(١) هى غير الملاحة التى بالسَّراة وغير الملحة التى فى وادى تيَّه .

سرنا نحو ساعة وصلنا بعدها إلى قرية (الأخْبَصِيَّة) وهى من أكبر القرى القريبة من صبيا وأجودها تربة وأوسعها مزارع.

مررنا بها وبعد حوالى ساعة شارفنا صبيا، فلم نواصل السير، بل عرجنا على منخفض من الأرض كثير شجر الأراك والسدر والجين، فيه بئر للسابلة.

فى صبيا

حططنا رحالنا وتناولنا بعض الطعام وشربنا الشاى ، ثم دخلنا صبيا(١) وجهتنا مدرستها للنزول بها مؤقتا إن اتسعت لذلك، فلما وصلنا المدرسة وجدناها عبارة عن حظير من الوشيع فى إحدى جوانبه عريش من الوشيع أيضا موزع إلى ثلاثة أقسام دون حواجز هى فصول الدراسة فى المدرسة ، وغرفة الأدارة عشة متواضعة لا تتسع لأكثر مما فيها من مكتب المدير وكرسى جلوسه. وكان الطلبة والمدرسون قد انصرفوا وليس بالمدرسة أحد سوى الحارس، فبعثناه أو أهريناه كما يقول أهل عسير السراه ليأتينا بأحد الأساتذة نستعين به فى دلالتنا على مكان نأوى اليه . فذهب وجاءنا بالأستاذ مدنى زكرى من أهل صبيا، وبعد أن حيانا وحييناه وعلم ما نرغب أبى إلا أن يكون منزلنا بيته، ولم يكن مناص من موافقته: فسرنا معه، وبذل لنا من الاكرام والرعاية ووافر العناية طيلة الأيام التى أقمناها بصبيا ما نعجز عن واجب شكره عليه .

---

(١) قال ياقوت فى معجمه ص ٣٣٧ ج ٦ صبيا من قرى عشر من ناحية اليمن : لعل عشر اسم الوادى وهو ما يعرف الآن بوادى صبيا منحدرا من جبال هروبه الى ساحل البحر . وممن ذكر صبيا صاحب كتاب صفة جزيرة العرب ص ٥٤ على أنها من مدن اليمن التهامية .

حارات صبيا ومساكنها

ومدينة صبيا على نهد فسيح من الأرض[١] سكانها على وجه التقريب حوالى ستة آلاف نسمه وتنقسم إلى خمس محال، وهم يسمون المحلة «مركز» ويعرفونه إما بالجهة أو بالنسبة إلى أشهر أسرة فيه ومراكز صبيا هى :

١ ـ الشامى ٢ ـ اليمانى الأسفل ٣ ـ اليمانى الأعلى ٤ ـ المقامى ٥ ـ الخواجى . وهذه الأخيرة تشمل ما يعرف بصبيا الجديدة .

ومعظم مساكن صبيا وبيوتها أكواخ يسمونها «عششا» تتخذ من أعواد مختلف الأشجار الموجودة فى المنطقة، ويلبد ظاهرها بحشيش الضرم الصلب العود وتجدها من تساقط الطل عليها ليلا وسطوع الشمس نهاراً كالحة مضرة اللون كئيبة المنظر . أما من الداخل فجميلة فى غاية البهاء فانها مبلطة بالطين ومنورة بالجص الأبيض الناصع ومحلاة برفوف من الخشب موضوع عليها ما لدى أهل البيت من نفيس المرافق . وبعض عشش وجهائها فى غاية السعة والتجميل .

وعدا ما فى العشة من رفوف خشبية ، فان بهامشاجب يعلقون فيها زنابيل من الخوص المصبغة بمختلف الألوان والمعنى بزخرفتها ، يضعون داخلها ملابسهم وما إليها ، فهى بمقام الدواليب فى المـــدن المتحضرة . كما يعلقون فيها شباكا من الخوص يسمونها « مسْـَقالَهْ » يضعون داخلها أكواب القهوة ومواعين طبخها من الفخار ، ويسمون ماعون طبخ القهوة « جَـبَـنَـهْ ». ولا يعتادون فرش أرض البيوت بشىء ما بل هى مبلطة بالطين بعد خلطه بروث البقر الجاف ، ويسمونه ضفاع ويخططونها خطوطا مقوسة

---

(١) يقول المستر فلبى فى كتابه *Arabian HiGhlands* أن صبيا ليست مرتفعة عن سطح البحر بكثير ولعل ارتفاعها لايتجاوز ٥٠ قدما على وجه التقرب وقدر سكان صبيا القديمة والجديدة وبيت السيد بـ ٢٥٠٠٠ نسمة ص ٤٦٣ و٤٦٥

بشكل جلد السمك على نسق ما وصفت لك فى أرض غرف بيوت رجال . وجلوسهم فيها على سرر يسمونها قعايد كما سبق شرح ذلك وبيانه فى الكلام على الدرب . وحتم أن يكون أمام باب العشة عرصة ناهدة عن الأرض على غرار أرض العشة يسمونها (طُراحه) يبرزون إليها بالكراسى ذات



« صورة يدوية تمثل شكل العشة »

المساند أيام الصيف . ولا تخلو صيبيا من بيوت من الحجر لبعض سراتها وأغنيائها لا تتجاوز الخمسين بيتاً بعضها مجصص من الداخل والخارج ومزخرفة حفافى أبوابها بنقوش لا بأس بأشكالها ولكنها لا تعدو فى الارتفاع الطابق الواحد ونادر منها ما كان من طابقين .

وقد رأيت أحدها مبنيا بالطوب على شكل عشة يخاله الناظر لأول وهلة قبة ضريح أو جامع .

وعلى مقربة من محلة الخواجى بضعة بيوت من الحجر ومسجد جامع وهى المعبر عنها بصبيا الجديدة ويغلب على ظنى أنها من انشاء الأدارسة إبان أماراتهم لهذه النواحى جعلوها مساكن خاصة لهم شهدت منها بيتاً من طابقين واسع الأرجاء ولكنها جميعها الآن خالية خاوية تطرق إليها الخراب وتهدم بعض جدارها .

وفى صبيا حوالى ثلاثين مسجداً أكبرها المسجد الجامع مربع الشكل فى وسطه ردهة مكشوفة تحيط بها الأروقة .

والطرق والأزقة بين بيوت صبيا ليست ضيقة ولكنها كثيرة التلوى والتعاريج .

السوق فى صبيـــا

ولصبيا سوق دكاكينه خليط بعضها من الحجر وبعضها من الأخشاب تبلغ نحو مائة دكان فيها الكثير مما يحتاجه سكان المدينة على اختلاف أنواعه وشهدت فى وسط السوق فى العراء ثلاث معاصر لإستخراج زيت السمسم تديرها الجمال ولا تخلو البلد من غيرها .

وفى طرف السوق مما يلى الشرق قلعة أو ثكنة مهدمة قديمة العهد من أبنية الشرفاء آل خيرات أمراء الأقليم فى العهد الأسبق ، تعاقب عليها الأصلاح والترميم من الحكومات السابقة ، أما الآن فهى خراب مهملة وقد شهدت على مقربة منها مدفعا قديم الطراز مدفون بعضه فى الأرض يسمونه المدفع العربى .

اللباس

ولباس أهالى صبيا فى الغالب الأزار والصديرى ذو الأكام ، أما غطاء

الرأس فطواقى من الخيزران من جنس ما وصفته لك عند الكلام على محايل والدرب.

ولا تعدم من أهلها من يلبس الثياب والمعاطف « الأكوات » ويعتم بالأحاريم[١] المعروفة والمعتاد عندنا استعمالها فى الحجاز . هذا فى الرجال ، أما النساء فلباسهن القمصان ذات الأكمام القصار إلى المرفق ، ولا يعتدن لبس السراويل بل المآزر تحت القميص ومعظمهن محجبات وحليهن معظمها من الفضة لاتخرج فى أشكالها وأنواعها عما وصفت لك عند الكلام على حلى نساء رجال

أهالى صبيا

وأهل صبيا على العموم سمر الألوان نحاف الأبدان فى بشرتهم صفاء وفى قوام بعض نسائهم سمهرية مستملحة :

اللهجة

والطمطمانية جارية فى كلامهم إلا أنهم أحيانا ينطقون بلام التعريف على الوجه الفصيح غير انهم يستفتحون كلمة الفعل المضارع دائما بحرف الشين سيما ماكان منها على وزن أفعل فيقولون فى أفعل شَفْعَلُ وفى أنام شَنَام وفى أقول لك شاقولك ويقولون شَنَجِى بمعنى نجىء[٢] ومن التراكيب التى

---

(١) مناديل مربعة كبيرة تتخذ من الحرير أو القطن المطرز أغلب ما تصنع فى سوريا وهى شائعة الأستعمال فى مدن الحجاز

(٢) قرأت فى الأهرام عدد ٢٤١٨٤ وتاريخ ٣٠ - ١ - ٥٣ م تحت عنوان فى (لغتنا العامية) بحث الأستاذ عبد العزيز مطر فى صدد أصل الفعل « شَنْكَلَ » جاء فيه أن (أفعل) فى اللغة العربية يقابله « شفعل » فى اللغة الأكادية كما يقابله « هفعل » و « سفعل » فى المعينية والسبئية . ولا يبعد كما تبادر لحضرة الباحث أن عنصر الشين فى بعض الكلمات السامية أثر من آثار اللغة الأكادية السامية انقرض استعماله فى اللغة العربية الفصحى يؤكد ذلك ما ذكرته لك بل ومعظم سكان الساحل الجنوبى للجزيرة العربية ينطقون هذا الفعل مسبوقاً بحرف الشين حتى اليوم .

يستعصى فهمها على غيرهم ما سمعته من قولهم « شَـيِـنْشِـقْ الفانوس » بمعنى يشعل الفانوس « مالك مَـكْـبَـرْ » يعنى لأى شىء جالس ويبدلون العين بالألف فى النطق فأبدالله بدلا من عبدالله وأم سؤدية يعنى السعودية .

ومن غريب ما سمعته من شخص كان يسايرنا من أم الخشب إلى صبيا - كلمة « أَبَاوْ » وهى كلمة يؤكد بها المتكلم مايقول ومن كلماتهم الغريبة « بَبَـحْ » بمعنى ثق

الطعام وأوانيه

ومن أطعمة صبيا . الخُـضَـيْر : يصنعونه من فتيت خبز الذرة مضافا إليه السمن والعسل أو السكر و : الـعَـكِـيدْ : وصنعه كالخضير إلا أن دقيق خبزه متخذ من الذرة الخضراء المجنية قبل أن تيبس فى عودها .

والمعصوب : ويتخذ من دقيق البر الخالص يخبزونه كالقطائف ثم يدقونه بآلة حادة إلى أن يمسى كقطع اللحمة المفرومة فيضعونه فى صفحة الأكل كالقبة ويضعون حوله السمن والعسل وأحيانا يضعون على القبة قطعة وافرة من إلية الكبش المسلوقة ، يرون فى ذلك امعانا فى اكرام الضيف ، ويسمون صحاف الطعام « المفَـانِى » ومن أسماء أوانى الطبخ عندهم - المِخْـفَـشَـه والـكُـزْ مَهْ - والجَفْـرَه وكلها . عبارة عن قدور من الفخار أو الحجر على مختلف الأوضاع لكل وضع اسمه المخصوص .

مناخ صبيا

ومناخ صبيا حار رطب ، ودرجة الحرارة كانت تبلغ أثناء وجودى بها فى فصل القوس ظهراً فى الظل ستة وثلاثين درجة ، وتتراوح فى طرفى النهار بين الثامنة والعشرين والرابعة والعشرين ، أما ليلا فتهبط إلى الخامسة عشر درجة لأن ليلها كثير الندى والطل . والماء فى صبيا عذب المذاق .

وادى صبيا وقراه

ووادى صبيا واد فسيح ينحدر من جبال تسمى « كَهرُوب » تمده كثير من الأودية المجاورة . وعلى مقربة من صبيا فى جنوبها الشرقى غابة من شجر السدر النبق ريانة رائعة المنظر جداً . تمتد شرقا إلى قرية المغرض ، وغربا إلى قرية الباحر ، وحول صبيا عدةقرى منها الـعَدَايَا : وُحوتِينْ ـ والـبَاحِرْ ـ والقَـرَى ـ و ـ صُلـْهَبَـهْ ـ و ـ الأخـبْـصِيَّة .

الحاصلات الزراعية

ومنتوجاتها الزراعية من الحبوب فى الأغلب الذرة ، ومن منتوجاتها السمسم والدخن والدجر «الـكشرى » وأهل مكة يفضلونه على مايردهم منه من الهند وينسبونه إلى جيزان ، واللوبيا ويقولون عنها (دجر) أيضا .

ومن منتوجاتها من الخضر : القرع ، والفجل ، والطماطم ، والباميه ، والملوخيه ، وغير ذلك من أنواع الخضروات التى يصلح زرعها فى المناطق الحارة

ومما يكثر فى صبيا غراس الفل والريحان والمرزنجوش[1] ، ويسمونه « الوُزَّابْ » والبابونج ، ويسمونه « سُكَبْ »

ومما يجلب من الفواكه والثمار إلى سوق صبيا من البلاد اليمنية الملاصقة للمنطقة الموز والأترج والفافوى ويسمونه عنبروت ، أو عنبة فلفل . والأنب[2] ويسمونه (عنبة كوع) والقشطة ويسمونها « شَفَلحْ » يجلب إليها ما ذكر من قرية النَّضير وهى على مرحلتين من صبيا كما قيل لى .

كما يجلب إليها من صعدا أحيانا العنب والرمان والسفرجل .

---

(١) يقول له الحجازيون : الدوش (٢) المنجة

واخال ان ما يجلب إليها مما ذكرت لا يصل فى حالة صلاح عدا الموز والسفرجل لأن النضير بعيدة كما ذكرت وصعدا أبعد ، والقوم لا يحيطون بمعرفة ما يوجب وصوله سالماً جيداً .

ومما يوجد فى هذه الضواحى ثمر كأنه صغار البطيخ أو كبار الحنظل يكاد جوفه كله يكون بزرا فى شكل بذر البطيخ ـ الجبجب ـ يأكلونه محمصا كما يؤكل بذر البطيخ الأخضر ، ويسمونه « زَعْقَهْ » .

ومما يزرع فى ضواحى صبيا ، البطيخ الأخضر ، وقد ذقته فكان لا بأس بحلاوته والخربز وقالوا لى أنه يكون شديد الحلاوة .

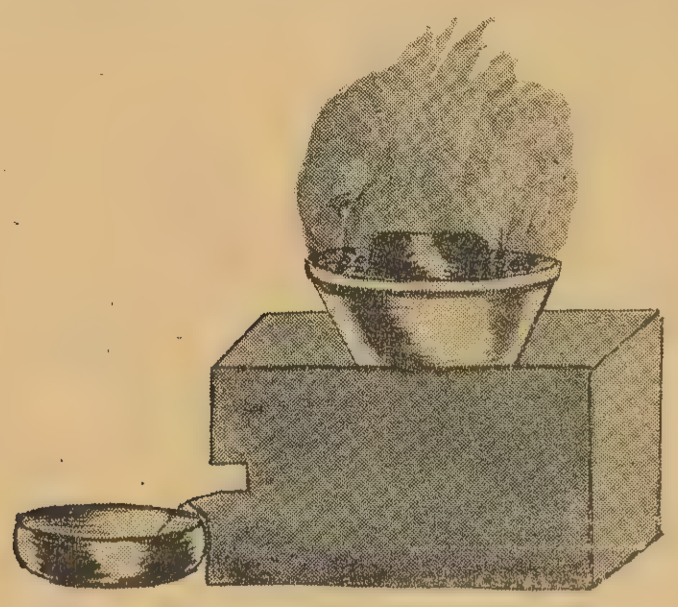
عملية استخلاص القطران النباتى

ومما شهدته فى طرف مدينة صبيا طريقة استخلاص القطران النباتى ، وذلك أنهم يأتون بجرة من الفخار ضيقة الفوهة فيحشونها بأعواد العتم الطرية الدقيقة أو ما شاكله من أنواع الشجر المستعد لافراز المادة المذكورة ثم يضعونها مقلوبة على بناية خاصة مربعة ترتفع عن الأرض بقدر شبر داخلها مفروش بحجر واحد خفيف يجعلون طرفه بارزا من جهة كالميزاب ثم يحكمون سد مابين الجرة والبناية المربعة مما أحاط بفوهة الجرة وبعد ذلك يحيطون القسم البارز من الجرة بدائرة من الصفيح تعلو أطرافه ظهر الجرة المغروسة فى البناء ، ثم يضعون على الظهر الفحم أو القش أو أى مادة قابلة للاحتراق كبعر الجمال أو روث البقر ، ثم يوقدونه فتنصهر الأعواد فى داخل الجرة من أثر الحرارة ويتقطر ما فيها من ماء ومادة سائلة من فوهة الجرة على الحجر ، ويسيل من طرفه البارز إلى الخارج فيتلقونه بقدح أو أى ماعون . ولا يزالون يوقدون على أعلا الجرة إلا أن يكف السائل وتحترق الأعواد تماماً .

يخرج السائل على ثلاثة أنواع : ماء محمر أصهب ومادة دهنية وسائل

عبيط هو القطرأن المعروف . ينشلون المادة الدهنية ويسمونها « صفا » ، ويزيحون الماء ويسمونه « صفوه » .

أما القطران فمعلوم جهة استعماله ، وأما الماء والدهن فانهم فى هذه



صوره يدوية تمثل استخراج القطران

الجهات يستعملونه فى غسل الرأس ودهنه لقتل ما يتولد فيه من القمل ، كما سبق القول عند الكلام على رجال .

إمارة الأدارسة ـ نجم يتألق

ولما كانت مدينة صبيا قبل بضعة عشر من السنين عاصمة للإمارة الأدريسية سلف الحكومة الحاضرة ، فسأستعرض لك بياناً موجزاً مقتضباً عما سمعته من بعض أهلها عن الأدارسة وكيف نشأت إمارتهم وكيف تلاشت

ينتسب السيد محمد الأدريسي رأس الأمارة الأدريسية إلى السيد أحمد الأدريسي المغربى الذى قدم من المغرب فى أوائل العقد الثالث من القرن الثالث عشر إلى الحجاز ، ثم انتقل منه فى سنه ١٢٤٤ إلى تهامه .

فهو السيد محمد ابن السيد على ابن السيد محمد ابن السيد أحمد المشار إليه .

وكان السبب فى نشوء إمارة السيد محمد ومبعث طموحه إلى تأسيس حكومة فى هذه المنطقة ، أنه بعد عودته بمدة وجيزة من رحلة إلى السودان ومصر قضى فيها بضع سنوات منتسبا إلى الأزهر الشريف بمصر لطلب العلم توفى أبوه السيد على وكان السيد محمد أكبر أولاده ، فخلفه فى طريقته الصوفية وأمست له نفس الحرمة والمكانة التى كانت لوالده . وكان سكان الأقليم إذ ذاك فى حالة من الفوضى والجهالة لتقصير الحكومة العثمانية وإهمالها . وقبائل تلك الجهة فى حالة جاهلية يعتدى بعضهم على بعض ، وينهب بعضهم بعضا ، ولم تعد للضعيف حرمة أو حماية بينهم . وكان بين سكان صبيا وقبيلة الجعافرة بصفة خاصة ضغائن وإحن رأى بعض عقلائهم من الطرفين أن يوسطوا السيد محمد فى إزالتها وتصفية الخواطر مما علق بها من الحقد صيانة لما بينهما من حقوق الجوار والمصالح المتبادلة ومنعا لتعدى بعضهم على بعض فتوفق السيد إلى أن يصلح بينهما ورضى كل منهم بخفارته وضمانه على صيانة الحقوق وعدم التعدى . ومضى زمن والأمور مستقيمة والحقوق بينهما مصونة ، غير أن بعض سفهاء صبيا من أهل مركز الشامى «إحدى محال صبيا» فى أحد أيام السوق الذى يقام عادة فى صبيا فى كل أسبوع ويأتيه الجعافرة وغيرهم لتبادل العروض والمنافع اعتدوا على امرأة جعفرية ونهبوا ما معها مما كانت أتت به لتبيعه فى سوق صبيا . فاستعدت المرأة عليهم السيد محمد وشكت إليه ما حصل عليها وبمقتضى خفارته وضمانه بعث إلى المعتدين يطلب رد ماسلبوه من المرأة وتعويضها على ما تقتضيه القواعد والعرف المرعى بينهم فأبى الفعلة وأنكروا ما حصل منهم مما أغضب السيد والجأه أن يستنفر أهل مركزه ويستنهضهم لحماية ضمانه ولو بقتال أهل مركز الشامى فاستجابوا لما يريد ، فان حرمته حرمتهم وانتهاكها انتهاك لحرمتهم .

ولما علم عقلاء مركز الشامى بالأمر وما اعتزمه السيد وأهل مركزه من قتالهم ، خافوا أن تتطور الأمور إلى ما لاتحمد عقباه لما للسيد من حرمة ومكانة دينية ، وبادروا بارغام الفعلة على الاعتراف ورد ما أخذوه من المرأة ، ولكن السيد لم يعد يرضيه ذلك بعد أن لمس صدق العزيمة من أهل مركزه فى شد أزره واستجابتهم حتى للقتال معه ، بل أصر على قتل من أخاف السبيل وانتهك حرمة السابلة وخفر الذمة والعهد .

وبعد مداولات وأخذ ورد تنازل السيد بأن يكتفى بجز نواصيهم على ملأ من الناس فى يوم السوق إذلالا لهم وتشهيراً بهم . وجز النواصى عند العرب أشد مرارة من القتل ولكنهم لم يجدوا بدا ولا مناصا من الاستجابة لجزت نواصى المعتدين يوم السوق وشهر بهم أعظم تشهير .

هذه الحادثة أضفت على السيد فوق حرمته الدينية سطوة الحاكم وزادت من هيبته فى النفوس ، وكان السيد حصيفا فاستغل الحادث بأوسع معنى الإستغلال

ووسع دائرة الحلف والتعاقد على صيانة الحقوق وحرمتها مع غير الجعافرة ممن له مصلحة فى ارتياد سوق صبيا الأسبوعى من القبائل الأخرى .

وأعان السيد على ذلك ما كانت عليه نفوس القبائل من السأم والملل من حالة الفوضى التى هم عليها وتعدى بعضهم على البعض مما أدى إلى ضياع مصالحهم ، فقد كان الناس جميعا من أهل الأقليم فى تعطش لحالة الاستقرار والأمن اللذين فقدوهما بسبب ضعف الحكومة التركية وإهمالها وسوء إدارتها .

فتوافد على السيد كثير من رؤساء القبائل المجاورة يطلبون منه الدخول فيما دخل فيه أمثالهم من حلف ، وذاع صيت السيد بينهم ، وانتشر ذكره بالثناء والحمد . مما لفت نظر والى الحديدة إذ ذاك ، فكتب إلى أصحاب الشأن

من رجال الحكومة العثمانية فى استانبول ينبههم ويلفت نظرهم إلى السيد وما يخشى منه .

لكن رجال الحكومة فى استانبول حينئذ كانوا فى شغل شاغل عن مثل هذه المناطق النائية عنهم بما هو جار بينهم من تنافس وتحفز بين كل من رجال حزب الاتحاد والترقى وحزب الائتلاف للوصول إلى كراسى الحكم والسلطة بعدما أعلن ما أسموه الدستور فاكتفت بأن تبعث مندوبين من طرفها لاستطلاع حقائق الأمور وجَلِيِّ أمر السيد محمد ونواياه ، وكان السيد لبقا حكيما مع من اتصلوا به من المندوبين مما جعلهم يطمئنون إليه ويسندون إليه رتبة قائمقام لصبيا وما جاورها .

اشتد ساعد السيد محمد وازداد نفوذه انتشاراً وأصبحت له صفة الحاكم الشرعى ومضى على ذلك سنتان والأمور مستقرة والسيد موظف من موظفى الدولة

فلم يرق هذا لبعض أشراف المخلاف ممن كان لهم سابق سلطان ونفوذ فى البلاد وحسدوه على ماوصل إليه ، وكان أبرزهم فى إظهار ما يضمر من الضغينة والمجاهرة بها الشريف أحمد الخواجى من الإشراف الخواجية آل مهنا ولم تعد تخفى على السيد محمد حاله ومنافسته إياه فتربص به والتمس عليه بعض الهنات وأرسل له رسلا يدعونه للحضور إليه فامتنع وحصلت بين رسل السيد وبعض خدم الشريف مشادة أدت إلى تراشق بالبنادق على عادة مايجرى بين اتباع رؤساء القبائل والعشائر .

فانتهز السيد محمد فرصة هذه الحادثة ، واتهم الشريف أنه ممن يريدون الافساد وإثارة الفتن والقلاقل وجد حتى تمكن من القبض عليه وسجنه ثم قطع يديه من المرفقين .

بعد أن حصل على الشريف ما حصل استطاع أن يهرب إلى الحديدة ومنها إلى استانبول شاكيا على رجال الحكومة ما حصل عليه من بغى

وبسط لهم ما أصبح عليه السيد من نفوذ وسلطان مما أوجب لديهم الريب والشك . فى نواياه مرة أخرى .

فكتبوا إليه يطلبون منه الحضور إلى استانبول بصفته موظفا من موظفى الحكومة للتحقيق معه فى الحادث ومحاكمته ، فامتنع عن إجابتهم إلى ما طلبوا معتزا بمن التف حوله من القبائل وبما أصبح له من مكانة وحرمة فوق حرمته الدينية متمثلا لسان حاله بما قاله أحد أمراء مكة فى أواخر العهد العباسى فى قصة مماثلة .

ولى كف طرغام أصول ببطشها واشرى بها بين الورى وابيع
أأجعلها تحت الرحى ثم أبتغى خلاصا لها أنى اذن لرقيع
وما أنا إلا المسك فى أرض غيركم أضوع واما عندكم فاضيع

كبر ذلك على الحكومة العثمانية فجهزت قوة من الجند تحت رآسة المدعو محمد راغب وأرسلتها إلى جيزان وهو الثغر الوحيد الذى لا يزال لهم فيه نفوذ بفضل من كان يعسكر فيه من الحامية وأمروه باقتفاء أثر السيد والقبض عليه والآتيان به إلى استانبول .

وصلت القوة جيزان وعلم السيد بأنها ليست من الكثرة والاستعداد إلى الحد الذى لا يمكنه معه مقاتلتهم .

وما أن وصل القائد المذكور جيزان حتى كاتب السيد محمد يرغبه فى الاستجابة لأوامر الدولة . وجرى بينهما أخذ ورد وتبودلت بينهم الرسل ولكن السيد أصر على الامتناع فزحف محمد راغب بما أتى به من قوة وكان السيد محمد قد استعد لملاقاته وقتاله وفى مكان يقال له الحفائر يبعد عن جيزان بأربعة كيلو مترات ، التقت القوتان ونشب القتال بينهما وانتهى بتراجع القوة التركية إلى جيزان ومطاردة جنود السيد محمد لها مما أوجب عليها الهرب فى المراكب الشراعية والألتجاء إلى الحديدة واستيلاء السيد على جيزان وانقطاع دابر الحكومة التركية من المخلاف جميعه

فى تلك الأثناء كانت الحكومة الايطالية قد اعتدت على طرابلس الغرب من ممالك الحكومة العثمانية واحتلتها وأعلنت على العثمانيين الحرب .

ومن المعلوم أن للحكومة الايطالية مستعمرة أرتريا الحبشية وثغرها مصوع وهى واقعة على الساحل المقابل لسواحل تهامة عسير فانتهزت حصول الفتنه والثورة من السيد محمد وأخذت تبذل له بعض المعاونات وتمده بالمال والسلاح لأنها كانت تطمع يوما ما فى الاستيلاء على هذه الجهات والتسلط عليها مما تجلى على أتم وضوح فى عهد موسولينى وكاد يقع لولا تصدى الانكليز وممانعتهم استبقاء لانفرادهم بالنفوذ والسيطرة على الجزيرة وأمرائها .

ظلت المناوشات بين السيد وبين الحاميتين التركيتين المعسكرتين فى الحديدة وأبها قائمة مستمرة . وكان من أهمها محاصرة السيد محمد لمدينة أبها حوالى تسعة شهور وتصدى أمير مكة حينئذ الشريف الحسين بن على مأموراً من طرف الحكومة العثمانية لفك حصار أبها كما أوضحت ذلك فى صدر هذه الرسالة وشرحته بشىء من التبسط فى تاريخ عسير السراة الملحق بهذه الرحلة .

فلما نشبت الحرب العالمية الأولى تنفس الزمن للسيد محمد وانصرفت الحكومة العثمانية إلى ما هو أدهى وانتهت الحرب بهزيمتها وحليفتها المانيا وانتصار الانكليز وحلفائهم وكان من أثر ذلك أنسحابهم من البلاد العربية جميعها .

وفى أبان الحرب وأثناء قيامها تمكن الانكليز بواسطة حاكم عدن من الأتصال بالسيد محمد وعقد محالفة معه ضد الحكومة العثمانية . كان من جملة بنودها استعمال كل الوسائط السياسية عند ختام الحرب فى تأليف مطالب السيد الادريسى مع الامام يحيى أو أى خصم آخر .

وكان السيد يطمع فى الاستيلاء على الحديدة وقد احتلها الانكليز فى أثناء

الحرب فلما أعلنت الهدنة بين الحكومة والحلفاء طلب السيد الاستيلاء على الحديدة فاخلاها له الانكليز لأن حكومة اليمن لم تكن على وفاق معهم فاتسعت بذلك رقعة إمارة السيد وازداد سلطانه .

كما حاول بعد أن رحلت الحامية التركية من أبها عاصمة عسير السراة أن يستولى عليها وأن يضم العسيريين تحت لوائه ولكنه فشل فى محاولته السياسية والحربية ولم تتحقق رغبته كما سيجىء بيان كيفة ذلك فى تاريخ عسير السراه فى غضون مائة وخمسين سنة الملحق بفصول هذه الرحلة

أفول واضمحلال

ظل السيد محمد الأدريسى متمتعا بما وصل إليه من انفراد بالسلطة والحكومة إلى أن توفى فى يوم الثالث من شعبان سنة ١٣٤١ فاضطربت البلاد ووقع اختلاف فيمن يخلفه وأخيراً وبعدان رفض أخوه السيد الحسن أن يقوم مقامه بويع ابنه السيد على وكان إذ ذاك فتى لم يتجاوز السابعة عشر

ظلت الأمور مستقرة مدة عام لم تختلف فى أثنائه عما كان عليه الحال فى حياة والده ولكن بعد ذلك دبت دواعى الغيرة والتحاسد بين أعيان صبيا ورجالاتها

فقد كان ممن حصل له نفوذ ورعاية لدى السيد على من أهالى صبيا يحى زكرى والشريف حمود الحازمى فلم يرق ذلك فى نظر غيرهم من أعيان المخلاف أمثال محمد يحى عوض باصهى والسيد محمد حيدر من سكان قرية الملحا وسادتها

فسعوا بين السيد على وبين عمه الحسن بالأفساد وإيغار الصدور فساءت العلاقة بينهما .

وكان ممن قدم صبيا فى عهد السيد محمد السيد مصطفى الغربى أحد أفراد العائلة الأدريسية المقيمين بمصر من أبناء عم السيد محمد وظل بها إلى مابعد وفاته

فرأى السيد على بعد توليه الأمارة وتوجسه أن المشار إليه ممن يوالون عمه السيد الحسن ويودون توليته الأمارة ـ أن يتألفه بما يبعده عن عمه السيد حسن ومحيط صبيا ، فاسند إليه ولاية الحديدة . .

وما كاد يستقر بها ويتمكن حتى نقض عهد السيد على وتظاهر باعلان بيعة السيد لحسن وموالاته ، مع أن السيد الحسن نفسه لم يكن قد تظاهر بقبول الدعوة له ، مما دل على أن هذه البيعة إنما كانت تلبيسا وتمويها لمقاصد خفية له لا تبعد أن تكون وراثة السيد محمد فيما شاده وابعاد ابنه وأخيه معا وتوليه الامارة .

أعلن التمرد على السيد على وأخذ يجمع الجموع للقتال وفعلا زحف بما تجمع لديه من الحديدة بقصد الاستيلاء على صبيا واستولى فى طريقه على قريتى اللحيَّة والزيدية من قرى الساحل فيما بين الحديدة وصبيا .

فانبرى له السيد على ودار بين الفريقين القتال وانتهى بتقهقر قوة السيد مصطفى وتراجعها واندحارها ودخول السيد على الحديدة ظافراً منتصراً وهروب السيد مصطفى والتجائه إلى قبيلة الزرانبق ثم عودته إلى مصر .

كان دخول السيد على الحديدة فى ابهة عظيمة من كثرة من التف حوله من القبائل فداخله شيء من الغرور والعجب فلما أن رجع صبيا وكان قد بلغه فى أثناء سيره الكثير مما حيك ضده من دسائس بقصد خلعه ـ جمع نحو أربعة عشر نفرا من أعيان صبيا وجيزان وأمرهم بمغادرة البلاد فغادروها كل إلى حيث عن له

بعد ثلاثة أشهر مما سردته لك من الحوادث انتهز إمام صنعاء فرصة هذا الشقاق والارتباك وزحف على الحديدة فانتزعها ولم يكتف بذلك بل واصل جيشه الزحف إلى أن وصل إلى سامطة فانبرت له قبائل تلك الجهة من نفسها وقاتلوه حتى أرجعوه إلى حرض وميدى .

لولا ذلك لاستمر فى زحفه إلى جيزان وصبيا ولا يستطع السيد على مقاومته فان الأمور كانت من جراء عدم تصرفه التصرف الحسن فى غاية الارتباك والاضطراب لأنه اتخذ بعد أن أبعد من ذكرنا من الأعيان بطانة ليسوا أهلا لأن تقوم بهم إمارة أو تساس حكومة .

كانت هذه الحوادث فى أواخر عام ١٣٤٣ وفى أوائل عام ١٣٤٤ حل فى المخلاف السيد الشريف أحمد السنوسى الطرابلسى المشهور لما بينه وبين الأدارسة من وشائج الصلات الروحية فتوسط بين السيد على وابن عمه السيد الحسن لازالة سوء التفاهم فلم ينجح لأن العداء كان قد بلغ الذروة بينهما .

وكان السيد أحمد السنوسى يميل إلى السيد الحسن ويرجح توليه الامارة فأخذ يناصر من يرى ذلك من أهل المخلاف إلى أن تمكنوا من تأليب القبائل على السيد على وقتاله ومن معه فى جيزان فانه كان قد ترك صبيا واتخذ جيزان مقراً له ابتعاداً عن عمه الحسن. وانتهى القتال بهروب السيد على ودخول أنصار السيد الحسن جيزان ، وأخيراً بخلع السيد على واعلان إمارة السيد الحسن .

كان هروب السيد على إلى جزيرة أمنه القريبة من جيزان ثم انتقل منها إلى جزيرة فرسان وهى أيضا لا تبعد عن جيزان بأكثر من أربع ساعات بالزوارق الشراعية .

لم يطل انزواء السيد على فى فرسان بل بعد شهر تقريبا رجع إلى صبيا مستسلما وظل فى صبيا نحو أربعة عشر يوماً طلب أثناءها من عمه السيد الحسن أن يأذن له بالسفر إلى مصر لطلب العلم فأذن له بذلك .

ولم يكن صادقا فيما أبداه من قصد طلب العلم بمصر بل سافر إلى مصوع وبدلا من أن يقصد مصر كما قال ، قصد الحجاز ملتجئاً إلى الامام عبد العزيز آل سعود بمكة .

ظل السيد حسن متصرفا فى البلاد وفى نهاية عام ١٣٤٤ عاد من كان أبعدهم السيد على من أعيان صبيا وجيزان وحتى السيد مصطفى الغربى فانه عاد إلى صبيا ولكنه عاد منتدبا من احدى شركات البترول الانكليزية لمفاوضة السيد الحسن فى استثمار ما يوجد من البترول فى جزيرة فرسان .

وفعلا تم الاتفاق بأن تدفع الشركة مقدماً ومقابل احتكارها استخراج البترول مبلغ مائتى ألف جنيه وأن يكون الخمس مما تستخرجه من نصيب البلاد

الحمـــاية السعودية

قبل مقدم السيد مصطفى لما ذكرناه كان السيد الحسن قد ضاق ذرعا من تحمل أعباء الحكم ويبـــدوا لى أنه كان متخوفاً من التجاء ابن أخيه للسعوديين وما قد يحدثه من متاعب فندب السيد محمد المرغنى أحد أقرباء الأدارسة إلى الامام عبد العزيز يطلب حمايته للبلاد . وبعد أخذ ورد وافق الامام عبد العزير على طلب السيد وندب إليه أحد رجالاته وهو صالح عبد الواحد وأخذ فى مد نفوذه ووسائل حمايته للبلاد .

وفى عام ١٣٤٨ كان المندوب من الحكومة السعودية حمد الشويعر ويبدو أنه لم يحسن العلاقة بالسيد الحسن فطلب من الامام عبدالعزيز إبداله والتوسع فى ندب مختصين فى الأمور المالية بل وتولى حكم البلاد حكما مباشراً فأجابه إلى طلبه وعين بدلا من الشويعر فهد بن زعير وضم إليه بعض الحجازيين من موظفى المالية وغيرها .

على أن الصفاء بين هؤلاء والسيد الحسن لم يدم طويلا فقد تعكرت العلاقات بأكثر حدة وتوتراً عما سبق .

والمتبين أن السيد الحسن ندم على ما أبداه من طلب العون وخاب فيما كان يأمله من ذلك ، فثار يطلب التخلص مما ورط نفسه فيه، ولكنه باء بالفشل فقد نجم فى البلاد من بشائع الأوضاع الجديدة ويؤازرها، وانتهى الأمر بهروب السيد الحسن التجانه ومن صحبه من أفراد العائلة الأدريسية إلى امام صنعاء واستيلاء السعوديين استيلاء تاماً على البلاد .

وبعد سنة تقريبا وقعت الحرب المعروفة بين الصنعانيين والسعوديين وكان من نتائجها تسليم الصنعانيين السـيد الحسن ومن معه من الأدارسة للسعوديين وهم الآن محجوزون بمكة ولهم مرتبات شهرية يتقاضونها، يحوطهم جلالة الملك عبد العزيز بعطفه ورعايته ، ولله فى خلقه شؤون .

إلى « أبو عريش »

أقمت فى صبيا خمسة أيام انتهيت فيها مما أنا بسبيله من استطلاع حال الدراسه والمدرسة وفى جُهمة ليـــلة الأربعاء الرابع من شهر ذى القعدة سنة ٣٦١ شددنا رواحلنا وسلكنا الطريق إلى أبو عريش وبعد مسير ساعتين وصلنا قرية « ظَبْيَـه » وهى قرية فى الطريق لاتختلف مساكنها عن أشكال مساكن صبيا وكانت غابة العرج التى وصفتها لك فى ضاحية صبيا تلازمنا كما أن مزارع الذرة من الجانب الآخر لم تنقطع إلا فترات قصيرة .

مررنا بظبيه ولم نعرج عليها وارتفع بنا الطريق إلى خبت ليس به شىء من المعامل كما يقول أهل هذه الجهه غير قطع متناثرة فيها بعض زرع الدخن .

سرنا فى الخبت المشار إليه بقدر نصف ساعة أو يزيد قليلا فوصلنا قرية « خَضَرَة » وهى قرية كسابقتها « ظبيه » قائمة على واد ينسب إليها تحوطها بعض المزارع من الذرة . قطعنا وسط الوادى وفى ظل شجرة من شجر الأثل وما أكثره فى طريقنا هذا حططنا رحالنا وتناولنا فطورنا وكانت الشمس قد ارتفعت فتعجلنا الرحيل وسرنا نصف ساعة بين مزارع (خضرة) ومعاملها ثم هبط بنا الطريق إلى غابة من الأراك يسمونها (الهيجَـه) وعلى حد تعبيرهم (أمْ هَيْجَـة) .

بين الغـــابة والمزارع - فتنة وجمال

سرنا فى الهيجة ما يقارب الساعة وأشجار الأراك الناضرة ممتـدة عن شمالنا ويميننا وعلى مد البصر من أمامنا .

ولم يترك أهل تلك الناحية ما بين شجر الأراك من فراغ هملا بل نثروه دخنا نبت واستوى على سوقه ومالت سنابل حبه بذرى أعواده فتنوعت مناظر الغابة وغدت مباءة لشتى أنواع الطير على مختلف ألوانه ، عاكف على

التقاط حب الدخن من سنابله ، كان ينفر فزعاً كلما سمع خشخشة أرجل رواحلنا ويأوى إلى مخابئه فيما تشابك من شجر الأراك مرسلا ، من الصدح والتغريد ما خلناه فى ذلك المحيط كأصوات المثانى والمثالث .

وقد كان الجو ندياً طرباً لم تؤثر فيه أشعة الشمس وحرارتها رغم أنها شارفت الإستواء والهواء ليناً رخياً تمر نسماته على وجوهنا مرور الآسى العطوف . لحظات ودقائق مضت ونحن نسير فى تعاريج الطريق بين أشجار الغابة لابسنا فيها من السرور والاستئناس ماودنا معه لو أن الطريق على حاله هذا يمتد بنا شهوراً وأياماً .

انتهت الغابة ويا ليتها لم تنته وأشرفنا على واد عظيم يعرف بوادى جيزان تقوم على ضفافه الجنوبية قريه « القَعْدَه » مساكنها كأمثالها السابقات إلا أنها قرية صغيرة أجتزناها ومزارعها ومال بنا الطريق إلى خبت آخر قطعناه فى مسافة تقل عن المسافة التى قطعنا بها الخبت السابق ومن نهاية هذا الخبت بدت لنا ابو عربش .

مدينـــة أبو عريش

تقوم هذه المدينة على نهد من الأرض(١) مستطيلة الشكل من الشرق إلى الغرب معظم مساكنها من العشاش كصبيا إلا أن البيوت من الحجر تكثر فيها ولكنها من طابق واحد فقط ذات سقوف عالية فارعه .

---

(١) يقول المستر فلبى فى كتابه *Arabian HiGhlands* أن ارتفاع أبو عريش عن سطح البحر تقريبا ٢٥٠ قدما صفحة ٥٧٢ وان طولها من أقصى الشمال الغربى إلى أقصى الجنوب الشرقى أقل من ميل تقريبا وفى عرض مثـــله بحيث تمثل الطُّيـيّـرَة الورق التى يلعب بها الاولاد .

ولعلها كانت تعرف قديما « بالعُرُش » فقد جاء فى كتاب البلدان لليعقوبى المتوفى عام ٢٧٨ عند ذكره المراحل بين مكة وصنعاء قوله (ثم يبا ثم المعفر ثم ضنكان ثم زنف ثم ريم ثم بيش ثم العرش من جازان) وأبو عريش اليوم قائمة على وادى جيزان.

وأبو عريش أعلى عن سطح البحر من صبيا والجبال لا تبعد عنها كثيراً فدرجة الحرارة فيها ظهراً لم ترتفع عن إثنين وثلاثين درجة وتهبط ليلا إلى الواحد والعشرين ومناخها أجف من مناخ صبيا وأرضها أخشن تراباً. وأهلها مضيافون يتوددون إلى الغريب ويألفونه وهم أنشط حركة وأخف روحاً من غيرهم من سكان هذه الجهات .

وبيوتها لا تزيد عن ألفي بيت وتنقسم إلى أربع محال ويسمون المحلة مركزاً ويعرفونه بالجهة كأهل صبيا وأحياناً يقولون (حَشْـوَةّ) ولكنهم أكثر ما يطلقون الحشوة على منازل الأسرة وأبناء العمومة المتقاربة فى المحلة

وعادات أهلها وملابسهم لا تختلف عما وصفته لك فى صبيا إلا أن النساء يزدن فى مخرجهن إلى جاراتهن بلبس ثوب أبيض واسع الأردان يمثل الملاءة ومعظمهن محجبات كثيرات الاحتشام .

والطمطمانية فى لهجتهم أكثر تفشيا من أهالى صبيا .

ولأبو عريش ماض مجيد فقد كانت عاصمة الأمراء آل خيرات حكام الأقليم جميعه فى العهد الأسبق . ومنهم الشريف حمود المعروف بأبو مسمار عاصر العهد السعودى الأول وقد رأيت عند بعض أفاضل أهل رجال رسالة فى سيرته سماها مؤلفها نفح العود فى سيرة الشريف حمود .

ومن آثاره فى أبو عريش مسجد جامع سقفه من ثمانية عشر قبة له حريم مكشوف بقدر سعته وهو الآن خراب، وقيل لى أنه فى عهد صلاحه كان يتوسط البلدة لما كانت عليه من السعة والعمران ، أما موقعه الآن ففى طرف حشوة الرفاعية بعض سكان أبو عريش .

وفيها حوالى أربعين مسجداً غيره . أقدمها عهداً مسجد ينسب لأحد أئمة اليمن الصنعانيين ذو ثلاث قباب منها واحدة متهدمة رأيت على واجهة محرابه هذين البيتين ولم أفقه لهما معنى .

أيها النــــاظر هذا من شريف ولى العزم وقاده
كان ما كان من المجـد الذى أعمـر البيت أعاده

وسكان مدينة أبو عريش على أكثر تقدير لا يتجاوزون أربعة آلاف نسمة (١) .

ومن طريف ما شهدته فى مساكنها من الداخل — أطباق صغيرة من الصفيح أو هى منافض السجاير المستعملة فى الحواضر مخرقة ومعلقة بخيوط صفوفاً فوق بعضها البعض يتخذونها زينة وتحلية للجدار فاذا هجمت الريح من باب الحجرة أو العشة داعبتها فتصافقت وأحدثت رنيناً وشنشنة .

الموز ينبت من قرون البقر

كنا مدعوين للشاى والقهوة عند بعض أهل القرية وجرى الحديث فى الفواكه والثمار ما ينبت منها لديهم وما يجلب فقال بعض من شاركنا المجلس من أهالى أبو عريش أن الموز ينبت من قرون البقر وأنه شهد فى القرية الفلانية نموه ونبته منها (٢) .

فقلت له ربما أن بعض الزراع أراد تسميد شجر الموز لديه فدفن تحته فضلات ذبيحته من البقر ومنها القرون فالتفت عليه العروق فظننت أنه نبت منها .

---

(١) يقول المستر فلبى فى كتابه *Arbian HIGhlauds* ان سكان أبو عريش حسب الاحصاء الرسمى ٣٠٠٠ نسمة من الكبار ويقدر مجموع سكانه بـ ١٢٠٠٠ وأشك فى هذا التقدير .

(٢) أدخل هذا الوهم على محدثى لسذاجته مشابهة ثمر الموز بقرن البقر وان الموز من الاشجار التى ضعف فيها تكون البذور لتوالدها بطريقة خضرية من طريق الجرثومة والفسيلة وشجرة الموز لا تأتى بالثمرة غير مرة واحدة ثم تعقبها شجرة أخرى من الجرثومة وهكذا . والموز من الثمار التى لا يتم نضجها الا خارج الشجرة ويتلف لو بقى فيها . وفى منابت الموز الاصيلة بشرقى آسيا وأفريقيا يوجد منه نوع طويلُ حبة الثمرة ، بقدر نصف المتر أو يزيد ، ويوجد بداخلها حبوب سوداء كحبات السَبح الصغار ، وهذا الصنف يستعمله أهل تلك الجهات طبخا وقلياً فى السمن كالبطاطاه وقد شهدت هذا النوع من الموز يزرع فى شبه جزيرة ملقا بالملايا .

فأبى ذلك منى وقال أن أمير جيزان ذكر له هذا فأنكره وجاؤه بقرن رمى بالشروش وانبعثت من طرفه نامية شجرة الموز وأصر على صحة مايقول « وسبحان من فاوت بين خلقه فى المدارك والعقول » .

السوق فى أبو عريش

ولأبو عريش سوق عامر تصغر عن سوق صبيا فى الوقت الحاضر شهدت فى طرفها سلسلة من الحوانيت المبنية بالحجر فتحاتها حنايا وسقوفها على شكل بناء القباب بالحجر أيضا « اغماس » تبلغ حوالى عشرين حانوتا مهجورة طمى عليها الرمل، قيل لى أنها فى عهد ازدهار ابو عريش كانت زاخرة بشتى المعروضات ،وكان الذين يديرونها جماعة من البانيان الهندوكيين ، قدموا من عدن، ثم لما اضطرب الأمن فى هذه الجهات وكثرت الأغارة على المدن هجروها وانقطع مجيئهم . وجميع التجارة الداخلية كالدخن والذرة والسمن والدجاج والبيض واللحوم وغير ذلك رخيصة للغاية، ولذلك فالحياة فى هذه الجهات من هذه الناحية سهلة رخية. وهى كثيرة الآبار وماء الشرب فيها عذب المذاق

ظللنا فى أبو عريش أربعة أيام كنا أثناءها نبحث عن حمير تحملنا إلى جيزان فان ذلك على أمثالنا غير يسير. وشهدنا لأحد أهل القرية حماراً فارها نشطا فساومناه على تأجيره لنا فأبى ولكننا اطمعناه بالمزيد من الأجرة وكاد أن يوافقنا ويرضى لولا امرأة طلعت من داخل الحظير لمسكنه تصيح « ما نأجر ما نأجر أم سؤدية ظلمه تشاهم يقتلوا أم حمول » فنكل عن الموافقة ولم نر بدأ من الرجوع إلى الأمير ليتحصل لنا على حمولين بأى طريقة كانت وإلا طال مكثنا دون ما لازم .

إستأجر لنا الأمير حمارين كيفما اتفق ويا لهما من حمارين فقد كانت أرجلنا ونحن عليها من فوق الألحفة تكاد تلامس الأرض من قصرهما .

وكانت البرادع لا بطائن لها تحزمها على ظهر الحمار وليس إلا الطفر المشبوك فى ذنبه فكنا وما عليها نتمايل حين المشى ذات اليمين وذات الشمال تمايلا يكاد يجمع الواحد منا بالأرض .

والمسافة بين أبو عريش وجيزان كالمسافة بينه وبين صبيا لا تزيد عن ست ساعات وهم يشكلون فى وضعهم الجغرافى مثلثا متساوى الأضلاع[١] .

على أننا وقد كانت مراكبنا ما وصفته لك لم نستطع أن نصل جيزان إلا فى ظهر اليوم الثانى لسفرنا من أبو عريش . فطالما حرنت الحمير وأبت السير ونحن عليها فنضطر للنزول عنها وسوقها أمامنا ونحن مشاة على الأقدام .

إلى جـــيزان

بارحنـا أبو عريش الساعة الثامنة بعد الظهر فمررنا بقرية « القويصة » ثم « السلامه » ثم « الخشابية » ثم « الواصلى » فرجحنا أن نبيت بها إلى الصبح فاننا لم نصلها سوى الساعة الثالثة بعد العشاء .

والطريق من أبو عريش إلى الواصلى قليل المزارع بل معدومة الامن نثير من الدخن هنا وهناك عدا الواصلى فان بها بعض المعامل وزرع الذرة .

بتنا فى الواصلى ثم بارحناها قبل شروق الشمس فمررنا « بالخرادلة » ثم « الخصاوية » ثم « عمير » وجميعها عبارة عن بضع عشاش على حفر للماء ليس للزرع فيها أثر وفى الساعة الخامسة بعد أن بلغت الروح منا الحلقوم من سير الحمير البطىء ـ وصلنا جيزان .

فى جـــيزان

تحوط جيزان من البر سبخة يغمرها البحر بمائه أحيانا فتمسى زلقة لا تستقيم على المشى فيها أرجل دابة ولا انسان .

---

(١) جاء فى تقرير الخبير الزراعى السيد عبد الله الدباغ أن المسافة ما بين أبو عريش وجيزان ٣٥ كيلو متراً تقريباً .

ومن المصادفات أن البحر غمرها بمائه عندما قاربناها ولولا أن صاح بنا شخص سايرنا الطريق من الواصلي ، أن نتماسك على ظهور الدواب وأن نمشى بحذر ، وسرنا على ما نجهله من حالها ، لما دخلنا جيزان الامطينين بحمأتها .

قطعنا السبخة فى عشر دقائق أو تزيد قليلا ، كنا فى أثنائها نرتجف خوفا من أن تنزلق أرجل الحمير فنسقط من عليها ، ولكن الله سلم ، وانتقل بنا الطريق إلى كثبان من الرمل تتصل بربوة المطلع قطعناها وجهتنا المدرسة وكلما سألنا عنها شخصاً ممن نصادف قال لنا « هناك على البحر عند الجبل »

واصلنا السير فى أزقة جيزان على غير هدى نسير أحيانا فى طريق كثير الالتواء وأزقة بين بيوت من العشاش وأحيانا بين بيوت من الحجر من طابق واحد أوطابقين . ومن طرف سوق جيزان الدائم وعلى جنوبه تراءت لنا المدرسة « هناك على البحر عند الجبل » .

لم نصل المدرسة إلا بعد أن صقرتنا الشمس بحرها وأصبحت المرئيات تتذبذب فى أعيننا من شدة وهجها ونحسب أن أرجلنا قد تخلخلت من مفاصلها لكثرة ما كنا نهز بها الحمير لتمشى وهيهات فقد كانت حميراً بمعنى الكلمة وأحط مدلولها .

قلنا لمن تلقانا من أساتذة المدرسة أغثنا أولا وقبل كل شيء بمكان نأوى إليه ولم يعد فينا منزع للكلام . فلم يقصر بل لوى بنا ونحن لا نزال على ظهور الحمير إلى حيث جئنا وبعد دقائق وقف بنا على حظير من الوشيع ودخله ليخلى لنا مكانا فيه .

كان ذلك مسكنه وكان عبارة عن عشة وعريش صغير فى الطرف الآخر من الجانب المواجه للعشة ، وكان الطيب الخيم حديث عهد بعروسة لم يمض على بنائه بها غير يومين ، علمنا ذلك من زميل له لحق بنا إلى البيت تخانا

أنفسنا سنكون بعد ماسمعنا قول زميله أثقل عليه من رضوى وثهلان لو طال بنا المكث والمقام ، لما عليه البيت من ضيق .

بادر المتفضل الكريم وأحضر لنا أقصى ما يمكن المتعجل أن يحضره من طعام فجمل وتجمل كما يقول أهل هذه الجهة ، فقد كنا فى مسغبة ومخمصة بل وسعار من الجوع ، فعهدنا بما يسمى طعاماً من أبو عريش .

أكلنا وارتحنا ولا استرسل فيما لاطائل تحته من قول فقد وفقنا بواسطة أمير جيزان الأمير خالد السديرى أن ننتقل فى تلك الليلة إلى مسكن يعد من أحسن مساكن جيزان مشرف على البحر علمت فيما بعد أن البعثة الأمريكية التى قدمت قبلنا بأيام للبحث والتنقيب فى هذه الجهات كانت تسكنه، وأنه على الدوام تحت إجارة البلدية تعده لمن يرد جيزان من ضيوف الحكومة .

كان المسكن عالياً مشرفا على البحر كما قلت فهو طابق ثان لمخازن تحته مكون من غرفة داخل غرفة « أو مجلس بصفه » على حد تعبير الحجازيين وغرفة أخرى مكشوفة : (خارجة) جهزته لنا البلدية بسريرين من الشريط وجرة ماء وفانوس للاضاءة ، ولم نكن فى حاجة لغير ذلك فمعنا من الفرش والأوانى ما فيه الكفاية . ولم يكن يزعجنا فى هذا المكان إلا خروج السجناء فى الصباح الباكر ـ فقد كان السجن فى جواره تماماً ـ إلى ضحل الماء الذى أمامنا من سيف البحر للتطهر والوضوء وما يسبقه من كشف العورة لقضاء الضروة مما حرمنا معه الاستمتاع فى الصباح الباكر بمنظر البحر وتلقى هوائه .

مدينة جيزان

وجيزان أو جازان كما كانت تسمى قديما (١) أكبر فرضة الآن فى هذه الجهة ومنها وإليها الصادر والوارد وقد تزايدت حركتها التجارية عن ذى قبل

---

(١) فقد سماها هكذا اليعقوبى المتوفى عام ٢٧٨ فى كتابه البلدان الآنف الذكر

وكثر سكانها وأمسوا خليطاً من أهالى المملكة العربية السعودية فان فيها من غير أهلها عدد من النجديين والحجازيين بل فيها يمانيون أيضاً ، وأصبح لباس أهلها خليطاً مختلف الزى كل بما اعتاد على أن معظم أهلها من سكان الأقليم وزيهم هو زيهم الذى وصفت لك غـــير مرة .

وذكر لى بعض أهلها أنه جرى إحصاء قبل مدة وجيزة لسكان جيزان فقاربوا التسعة آلاف نسمة ولا يبعد أنهم الآن عشرة آلاف نسمة. وبيوتها خليط من العشاش والحجر وتكثر فيها العشاش المستطيلة الهرمية السقوف ويسمونها عريش . وأزقتها ضيقة كثيرة التعاريج .

ســـوق جيزان

وسوقها عظيمة بالنسبة لغيره من أسواق مـــدن هذه الجهة ،كثير التفاريع ، عامر بمختلف أنواع السلع وإليه وفيه تنصب معظم غلال لأقليم ، وناهيك بهـا من غلال وافرة، فقد قال لى بعض من عرفت أن زكاة الذرة وحدها بلغت فى أحدى السنين السابقة «٢٢٧٠٠٠ر١» صاعا جيزانيا والصاع الجيزانى أربعة أمداد والمد على ما أتذكر حوالى كيلة ونصف مكية . ومن صادرات جـيزان المهمة ثمرة شجرة الدوم الموجود فى المنطقـة بكثرة يصدرونه إلى مصوع وعـدن وغيرهما .

وتشرف على جيزان سلسلة جبال واطئة الذرى أخال أنها فى سحيق القدم كانت مغمورة بالمياه .وتتألف جيزان الآن من خمسة مراكز . محلات : (الحافه) و (الجبل) و (المسطح) ، و (الساحل) و (المطلع)وعلى الجبال والمرتفعات التى حولها خمسة حصون (حصن البرقية) لأن فيه الأخذة اللاسلكية و (حصن الشريف) و (قلعة البرج) ، و (وقلعة الوسط) (قلعة المطلع) وتوجد قلعة سادسة على طريق قرية المضايا .

وفى جيزان حامية من الجند النظامى وإدارة للشرطة ودوائرة للبلدية ودائرة للصحة من طبيب واحـــد ومحكمة شرعية وبها مديرية للمال ترتبط

برأسة أموال عسير فى أبها ، وبها مدرسة أولية ابتدائية طلبتها نحو مائة وخمسين طالبا .

ولأمير جيزان الهيمنة على سائر إقليم تهامة المعروف قديما بالمخلاف السليمانى بل ما كان منه تحت حكم الأدارسة فى آخر عهدهم وهو على ما أعلم يبدأ من القحمة شمالا إلى الموسم جنوبا ومن البحر غربا إلى صدور وادى بيش ودرب بنى شعبة شرقا ، وفى كل قرية وقبيلة شيخ أوأمير يرجع إلى أمير جيزان ومنه يستمدون سلطتهم .

ماء الشرب فى جيزان

وماء الشرب فى جيزان شحيح فهو يجلب إليها على الجمال والحمير من مسافة ساعات من حفائر يحفرونها ويمتحون منها الماء فاذا تطرقت إلى ماء الحفير الملوحة من كثرة المتح طموه وحفروا غيره فى جهة أخرى وهكذا ويا ويل أهلها إذا أمطرتهم السماء فان السبخة التى وصفت لك عند دخولنا جيزان تذلق فيتعذر جلب الماء وأول ما يصنعه أهل جيزان عندئذ المبادرة إلى جرار الماء ومواعينه وختمها ولايخرجون منها الماء إلا مقداراً بمقدار وللترشف والشرب فقط فقد يتعذر سير الجمال والحمير فى السبخة أياماً (١) .

معدن الملح فى جيزان

وفى الطرف الجنوبى الشرقى من مدينة جيزان منجم عظيم للملح الحجرى

---

(١) علمت قبل أن أتمكن من طبع هذه الرحلة أن الحكومة بعدأن جرت إلى جدة بعض مياه عيون وادى فاطمه من أعمال مكة و توفر فيها الماء نقلت آلة التقطير « كندانسة » التى كانت بجدة إلى جيزان وبذلك أنحلت مشكلة الماء فى جيزان بعض الشىء .

شهدت استخراجه كما تستخرج الأحجار من مناحتها يعرفونه بالمضرب[1] .

وفى جيزان من التعدين عدى الملح الجبس والنورة فان معدنهما متوفر بها .

مصطلحات وعادات وتقاليد

ومن لطيف المصطلح عليه بين أهالى جيزان وحتى أهالى صبيا وأبو عريش أنهم يلقبون من كان اسمه محمد بـ « عزى وعلى بـ « جمالى » ويحيى بـ « العماد » وأحمد بـ « الصفى » وعبد الله بـ « الفخرى » وحسن بـ « الضياء » .

البرتقـــال الجيزانى

ومن المفارقات الطريفة فى جيزان والتى يقع الغريب معها فى مفاجأة مضحكة أطلاقهم كلمة « البرتقال » على النشوق الذى يتخذ من مسحوق أعواد

(١) جاء فى كتاب *Arbian HiGhlands* للمستر فلبى أن الذى اكتشف منجم الملح هذا فى عهد الأدارسة مهندسوا شركة شل فى أثناء بحثهم عن البترول وان التل الذى فيه المنجم لا يرتفع عن سطح البحر بأكثر من مائة قدم وأنه يشمل مساحة ميلين أو ثلاثة فى مثلها صفحة ٤٧١ .

وجاء فى تقرير البعثة الأمريكية التى جابت المنطقة للدرس والاختبار ص ١٥ قولها ، يجرى فى جيزان تعدين الملح الصخرى ومن المحتمل أن يبرهن عدد صغير من حفر التجارب التى تحفر هناك على وجود أطنان كبيرة إضافية فاذا وجدت الأسواق التى يمكن تصدير الملح إليها وازداد التصريف فى داخل البلاد فان من المحتمل أن يزداد الذى يجنى منها زيادة لا يستهان بها . وقالت فى مكان آخر من التقرير ما معناه ، أنه إذا وجدت الأسواق التى يتم فيها تصريف ناتج الملح لا سيما إذا استعملت الآلات الحديثة ـ وسمت أنواعها ـ أمكن استدرار أرباح طائلة من هذا المنجم وضربت مثلا بما وفق إليه الأتراك فى معدن الصريف بتهامة اليمن قبل حرب عام ١٩١٤ وقالت أيضا ، ومن الممكن أن يكون الهند سوقا رابحة وملائمة لتصريف الملح .

التمباك وتستعمله بعض طبقات العمال تخزينا فى الفم ، فقد ذكر لى صديق جاء جيزان وسمع عرضا كلمة البرتقال فبادر وبعث من يشترى له منه مقدارا ليطفى بمصه أوار ماهو فيه من حر وإذا بالرسول يأتيه بالنشوق ويقول له (جيتك ببرتقال ناهى) يعنى جيد .

وذكرتنى هذه المفارقة فى الاصطلاح مفارقة كنت منها فى دهشة أول ما قدمت دمشق فقد كنت أشهد على بعض المحال كلمة بوظة فاجفل من ارتيادها لأننى لا أعرف البوظة إلا خمير الذرة أو كسر الخبز الجاف المسكر . وكم كانت دهشتى عند ما علمت أنها الدندرمة (آيس كريم) يسميها أهل دمشق بوظة .

ومما يعتاده أهالى تهامة عموماً رجالا ونساء خضب أكف الأيدى والأرجل بالحناء ويقولون أن ذلك يخفف عليهم أثر الحر .

مجلس القــــات

ومن المألوف فى جيزان وصبيا وأبو عريش مضغ « القات » كأهل اليمن عموماً ، والقات نبات شجر قاتم الخضرة يستخلصون منه أعواده الطرية ويتناولون منها النوامى الرأسية التى تشبه نوامى أوراق الليمون .

يتخذون لذلك جلسات خاصة غالب ما تكون بعد الظهر فيجتمع الأصدقاء فى بيت أحدهم كل على كرسى مخصوص من الكراسى التى سبق وصفها وفى جواره حزمة القات ملفوفة فى قطعة من القماش لتحتفظ بطراوتها وفى الوسط قلل الماء المبرد وكثيراً ما يدخنون معه أثناء الجلسة الشيشة ويسمونها « مداعة » .

يبتدىء الواحد فيتناول بعض النوامى من القات ويمضغه ويمتص ما تحلب منه وتظل المضغة مخزونة فى فمه يستحلبها شيئاً فشيئا فاذا تفلت وانتهى ما فيها من عصارة أخرجها واختزن غيرها ، وقد تطول الجلسة إلى الليل .

وقد ذقت القات لأختبر طعمه فوجدته على شيء من الحلاوة الخفيفة الممزوجة بيسير المرارة والعفوصه وهو لذلك يلذ استعمال المـاء البارد عليه .

وهم يزعمون أنه يورثهم شيئا من النشوة والنشاط ولم أقف على تحليـله الـكيماوى . وذكر لى بعض اليمنيين ممن تعرفت بهم فى مصر أن فى حدائق الحيوان بمصر بعضا من شجر القات وهو لا يزرع بتهامة عسير وإنما يجلب إليها من البلاد اليمانية المصاقبة لها والقريبة منها [1] وقد يزرع أيضا بكمية قليلة فى جبال فيفا الواقعة فى الجهة الشرقية من جيزان .

جزيرة فرســـان

يقابل مدينة جيزان وعلى بعد أربع ساعات منها بالمراكب الشراعية جزيرة فرسان [2] أوجزر فرسان فانها عدة جزر يفصل البحر بينهافصلا تاماً

(١) جاء فى كتاب ملوك العرب للريحانى أن القات فى عـلم النبات يسمى *Catha Edulis* ويقول أنه لايشك فى أنه مضر بالصحة والنسل فهو يفقد المرء شهية الأكل ويفسد أسباب الهضم ويحدث مثل الأفيون شللا فى مجـارى البول ولا يقوى الباه بل يضعفه ص ٩٢ .

(٢) جاء فى معجم ياقوت ص٣٥٩ ح ٦ : فرسان بالفتح والتحريك وآخره نون من نواحى فرسان ويقال سواحل فرسان قال ابن الـكلبى مال عنق من البحر إلى حضرموت وناحية أبْـيَن وعدن ودَهْـلكْ فاستطار ذلك العنق وطعن فى تهائم اليمن فى بلاد فرسان والحكم بن سعد العشيرة وكل ذلك يقال له سواحل فرسان قال ابن الـكلبي فرسان منهم من ينتسب إلى كنانه ومنهم من ينتسب إلى تغلب وقال ابن الحائك : من جزائر اليمن فرسان وفرسان قبيلة من تغلب كانوا قديماً نصارى ولهم فى جزائر فرسان كنائس قد خربت وفيهم بأس وقد تحاربهم بنو مجيد ويحملون التجار إلى بلد الحبش ولهم فى السنة سفرة وينضم إليهم كثير من الناس ونساب حمير يقولون أنهم من حمير .

هذا ماقاله ياقوت أما مايعرف بفرسان اليوم فليس إلاجزيرتين كبيرتين أحدهما أصغر من الأخرى وحولهما بعض الجزر الصغيرة وهى واقعة بين سواحل تهامة وبين سواحل أرتريا من بلاد الأحباش أى مصوع وما يليها ولـكنها إلى سواحل تهامة أقرب ، ولم يتيسير لى الوصول اليها ولامعرفة شىء عن أصول سكانها وفيمن يرجعون .

اثنان منها كبيرتان تكاد أن تكونا ملتصقتين وحولها بعض الجزر الصغيرة ولم يقدر لى الوصول إليها رغم طول مكثى بجيزان وإنما تعرفت فى جيزان بأحد الفرسانيين من سكانها ولمحت فيه شيئا من الفهم والدراية والادراك، فاستوصفته الجزيرة وما فيها فشرح لى الكثير من حالها ومناخها، فعلمت أنها أطيب مناخاً من جيزان وأنها ذات جبال واطئة الذرى، وفيها مقدار من النخيل وأشجار الثمار الممكن صلاحها فى المناطق الحارة، تسقى من أبار وينابيع عذبة الماء. وأن بها من الحيوان الغزال والأرنب ومما قاله لى أن فى بعض مجاهلها وخلائها توجد حمير توحشت وتوالدت فتكاثرت يتصيدها أهالى فرسان ثم يروضونها ويبيعونها فى جيزان وصبيا.

وأن بأعماق البحر من سيفها ينابيع عذبة الماء ولذلك فإن بها مغاصات للؤلؤ يقوم أهل الجزيرة على استخراجه وهو من جملة موارد كسبهم(١)

---

(١) لما كانت كيفية نشوء اللؤلؤ فى أصدافه قد لا يعلمها الكثير فانى أذكرها ما كنت قرأته فى التحفة النبهانية فى تاريخ جزيرة البحرين لأستاذنا العلامة الشيخ محمد خليفة النبهانى وما فهمته من ذلك من محدثى الفرسانى .

أغلب ما يتكون اللؤلؤ وينشأ فى البحار ذات الينابيع الحلوة فى أعماقها وكلما كانت الينابيع أكثر وأغزر كلما كان اللؤلؤ المتولد حيالها أكثر ضياء ولمعانا والصدف نوعان كبير وهو المسمى بالصدف وصغير ويطلق عليه البلبيل. تلقى الصدفة من النوعين بزرها على شكل بزر الخشخاش أصفر اللون لا يزال هذا البذر يتدحرج ويتطاوح مع تيارات الماء ناميا إلى أن يكون فى حجم حبة الذرة أو العدس ولا يزال فى تدحرجه إلى أن يصطدم بصخر أو شجر مما فى قاع البحر فيرسب عندها ويرى بشروش تشبه العروق رفيعة كالخيط خضراء اللون شديدة قوية فتلتصق بالأرض الصلبة أو الصخرة أو الشجر وتظل كذلك نامية ،ولهذا الدور أيام ذكرها لى الفرسانى ونسيتها أظنه قال خمسة أو ستة شهور. تكون الصدفة فى أثناءها قد كبرت وبدأت تفتح فاها ويخرج من جوفها المحار ملتقطا طعامه مما حوله من الأعشاب والديدان البحرية ويتكون اللؤلؤ داخل الصدفة نتيجة لإفراز يحصل من مرض أو انحراف

وبها ما ذكرت عند الكلام على إمارة الأدارسة من ينابيع للبترول إلا أن استخراجه معطل ولم تباشر الشركة التى تصــدت لاستخراجه العمل حتى الآن لعدم أقرار الحكومة الحاضرة ما جرى من تعاقد بينها وبين السيد الحسن آخر الأمراء الأدارسه، لما رأته من غبن فى التعاقد واجحاف بحقوق البلاد . وقد اتخذت الحكومة السعودية الجزيرة منفى استصلاحيا لأولى الجرائم ومرتكبى الموبقات فى الحجاز .

ومن طريف ما رواه لى الفرسانى عند التحدث معه عن مناخ جيزان وحالها العمرانى ما قاله، من أن أحد مواطنيه من تجار اللؤلؤ سافر إلى بمباى أحد ثغور الهند العظيمة لبيع ماليديه من لؤلؤ ثم آب إلى جيزان فى طريقه إلى بلده . وفى مسامرة مع بعض أهل جيزان أخذ يصف لهم ما شهده فى بمباى من عمران وحضارة فكان أحد الحاضرين من أهل جيزان ممن

= يعترى الصدفة بدخول جسم غريب فى جوفها كذرة رمل أوحيوان أى أشىء آخر يضايقها وجوده، وما يتكون من اللؤلؤ داخل جسم الصدفة اللحمى الذى هو المحار يكون أكثر صفاء وتكوراً أما إذا تكون مما يلى جدار الصدفة الصلب أو لامسه فانه يكون أقل صفاء ولمعانا ويفقد صفة التكور لصلابة الصدفة ومقاومتها نموه من جهتها وأتذكر أن الأستاذ محمد خليفه ذكر فى كتابه المشار إليه أن قوة التصاق الصدفة فى الأرض توازى ثقل ســتة ارطال انكليزية عند ما يريد الانسان حملها ورفعها من الأرض، ومما قاله لى الفرسانى أنهم فى فرسان يحتالون على جذب بذر الصدف بطرح بعض جزوع النخيل وأعواد الشجر فى الأعماق القريبة من سيف البحر فيجتمع حولها البذر ويلتصق بها فيتركونه المدة التى ذكرت ثم يقتلعونه وبالحظ والنصيب فكثيرا ما تكون الصدفة خالية من اللؤلؤ وأحيانا يجدون الكثير منه والثروة إن وجدوا حبة فاخرة تامة التدوير قوية اللمعان والبريق فانها تساوى مبلغا من المال يقدر بالألوف، ومن أراد المزيد من البيان فليرجع إلى تاريخ استاذنا النبهانى

لم يخرجوا منها قط كلما تكلم عن ناحية من نواحي بمباي وحضارتها عارضه مماثلا ذلك ببعض ما يتفق وما ذكره في الأسم بما في جيزان ، مما ضاق معه الفرساني ذرعاً فالتفت إليه قائلا :

(جيزان إيش جيزان إن كان للدنيا طيز فطيزها جيزان)

مناخ جيزان

وللفرساني بعض الحق فيما شبه فإن جيزان كئيبة المنظر رطبة المناخ شديدة الحرارة ليس فيها نبتة خضراء وماء الشرب فيها شحيح دبج تخالطه الملوحة وقد ينعدم أياماً كما سبق القول، وحسبي أن أدال لك على شده حرها بأنا دخلنا المسجد لصلاة الجمعة فإذا عبدان على رأس الأمير في مصلاه قائمان بيد كل منهما مروحة لتخفيف وطأة الحر عنه ريثما تقوم الصلاة .

هذا ونحن في الشتاء فكيف حالها في الصيف وقد كنا طول مقامنا بها ننام أغلب الليالي والنوافذ مفتحة دون غطاء .

ويقول الريحاني في كتابه ملوك العرب عند وصفه حر جيزان «خبرت الحر في أماكن كثيرة من المكسيك إلى عدن إلى العراق فما وجدت حراً جامعا محاسن الحر كلها وفي أعلى درجة منها مثل حر جيزان ، أن الشمس هاهنا قريبة جدا منك كأنها على الأرض تشتعل فترسل أشعتها عكساً إلى كبد السماء » .

كان من جملة ما قعد بي عن الوصول إلى فرسان ومشاهدتها ما ألم بي في أخريات أيامي في جيزان من توعك في الصحة من أثر نزلة حادة أصبت بها من شدة رطوبة الجو نشأ معها حمى لم يفدني فيها علاج طبيب جيزان إفادة تامة مما تضايقت معه من البقاء في جيزان وما أن علمت أن مدير مدرستها قد وصل أبها في طريقه إلى جيزان وكانت مديرية المعارف قد طلبت بقائي إلى حضوره — حتى أبرقت لها مستأذناً في مبارحة جيزان فأذنت ومن فوري تأجرت لي ولرفيق حمارين رأساً إلى الدرب .

فى العودة إلى رُجال

وفى يوم السبت الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ٣٦١ سافرنا من جيزان متوجهين إلى صبيا فوصلناها بعد الظهر وبتنا فيها ليلتنا ثم سافرنا منها إلى أم الخشب فوصلناها ظهراً .

أقمنا فى أم الخشب إلى سحر يوم الاثنين ثم بارحناها من نفس الطريق الذى قدمنا منه إليها أول مرة . وفى سيرنا فى خبت البقر شهدت منظراً رائعاً من مناظر تنازع البقاء وتسلط القوى على الضعيف من مخلوقات هذا العالم .

فقد رأيت غزالة ترعى بعض أغصان شجر السلم الطرية عالقة بفمها لاهية تقضم منه وعلى بعد أمتار منها وبين خبايا بعض الأشجار ذئب فاره لمحها فأخذ يتهيأ جامعاً نفسه لينقض عليها ويفترسها ولم يعر الذئب صلصلة دوابنا التفاتا وأخاله كان متجهاً بكل حواسه للفريسة .

ود رفيقى أن ينفر الغزال فمنعته خشية أن نقع مع الذئب فى مشكلة فقد كنا عزلا إلا من عصى دقيقة نسوق بها الحمير لا تغنى فتيلا لو هاجمنا .

تركنا الغزال والذئب لمـــا قدر لها وسرنا وقبل العصر وصلنا درب بنى شعبة وسلمنا الحمير لشيخه كما قال لنا أصحابها .

بتنا فى الدرب وأصبحنا نبحث عن حمير ورفيق لنسافر إلى رجال ولم يطل بنا البحث والانتظار فقد وفقنا إلى حمارين لبعض أهل رجال وعلمنا أن شخصاً من أهل البتيلة سيسافر إليها فاتصلنا به واتفقنا وإياه أن نبارح الدرب فى سحر ليلة الأربعاء وكان ذلك

بارحنا الدرب جادين فى المسير نأمل أن نصل رجال قبيل العصر ولكننا وصلنا الرهوة أول حدود قبائل المع وكان الصواب بعد أن نهبط من أكامها أن نظل فى سيرنا متجهين جنوباً ثم نلوى شرقا فى وادى كسان غير أن رفيقنا البتيلى ـ وكان المفروض أن يكون أبصر بمعالم الطريق منا بعد ـ أن تركنا الرهوة مال بنا حالا إلى الشرق .

ضللنا الطريق

فبعد أن سرنا نحو نصف ساعة لاحظت أنا ورفيق أن الطريق مختلف عما سلكناه فى مجيئنا فقلنا لدليلنا لعلنا أخطأنا الطريق فقال لا وسرنا وإذا بنا نعلو آكاماً يكثر فيها شجر السلم تحققنا منها أننا فى طريق غير مانقصد فأبيت المسير خشية أن ينتهى النهار ونحن ممعنون فى الضلال وقلت للبتيلى تعرَّف الطريق وأشرف من هذه الذروة لعلك تهتدى أو تجد بعض الرعاة فيدلنا على الصواب ففعل وأخذ يصيح بعبارة تقليدية معروفة بينهم ينادى بها من يطلب الهداية ويستعلم وإذا بصبية تبدو علينا معها بعض الأغنام ترعاها ولكنها ما أن رأتنا وأنكرت زينا حتى أمعنت فى الهرب تطرد أغنامها أمامها إلى أن اختفت ، وقفنا حيارى وقلت للبتيلى زد فصح عله يأتينا غيرها فأخذ ينادى وإذا بشيخ ليس عليه سوى طمرة تستر عورته فقط منحنى الظهر يبدو علينا من بين الشجر فأخذ البتيلى يستوضحه الطريق وبدلا من أن يهدينا لما نريد أخذ يفتح لنا محضر تحقيق واستعلام عمن نحن وما أتى بنا وكلما أردناه أن يسرع فيفيدنا حاد وتلكع فرأيت أن أقطع عليه مماطلته لنا فى الارشاد وقلت له هاك خمسة قروش وسر معنا إلى أول وادى كِسان فقال هات فناولته الخمسة القروش وصرها فى طرف ازاره ومشى بنا وعلمنا منه ونحن نسايره أننا فى أول وادى ريم من منازل الصواعقة (بطن من شحب إحدى قبائل المع) وقد كانوا إلى أيام متمردين على الحكومة .

سرنا معه حوالى عشر دقائق أشرفنا بعدها على شعب منتكس وقف بنا عنده وقال بدلا من أن تعودوا من حيث جئتم ثم تحودوا على الطريق أهبطوا من هنا وفى نهاية الشعب وأسفله تميلون شرقاً وبعد مسير بضع دقائق تكونون فى أول وادى كسان ، ثم أعطانا ظهره .

أراد صاحبنا البتيلى لجهله بالطريق ألا نتبع ما أشار به الشحى ولكن تبينت منه الصدق فسرنا على ما رسمه لنا وبعد أن انتهينا من الشعب كاد البتيلى

لغبائه وجهله أن يضلنا مرة أخرى فقد وجدنا طريقين أراد أن يسلك بنا أولها وكنت فطناً لما رسمه الشحي فأبيت عليه وسرنا فى الثانى وكان الصواب فيما فعلت فلو ذهبنا حيث أراد لرجعنا مرة أخرى إلى حيث كنا فقد بدت علينا بعد دقائق مزارع وادى كسان وعرفناها وعرفها صاحبنا البتيلى فخجل مما حصل .

سرنا جادين إلى أن وصلنا البتيلة ففارقناه وسلكنا وحدنا الطريق إلى رجال فقد كنا على علم به .

روضة على ضفاف جدول

فى وسط الطريق بين البتيلة ورجال مضيق بين جبلين يعكس اتجاه الطريق فيجعله من الجنوب للشمال بدلا من الغرب إلى الشرق وكانت السماء بعد أن فارقنا رجال قد جادت على المنطقة بمطر وابل غزير سالت منه الأودية، وازدانت الجبال اخضراراً .

وصلنا المضيق فإذا به جنة يانعه وحديقة مزدهرة وإذا جدول من الماء يتدفق من طرفه فى غير ما ريث ولا عجل يصفعه الريح فيشكل على صفحته تجاعيد كالحلق المفرغ بعضها فى بعض وقد امتد على حفافى الجدول طراز من العشب الأخضر الناضر . ونمت على طول امتداده فى ما أنخفض من الأرض. كتل من النباتات ذات الزهر بمختلف الألوان وكان الوقت فى أخريات الأصيل والهواء رطب عليل . وزمرة من الطير المعروف بسميدة تنتقل من شجرة إلى شجرة مرسلة من التغريد والتصويت أشجى الألحان وبعض القمارى مما آوى إلى الشجر للمبيت يسجع ويغنى .

فقلت لصاحبي أو نبرح هذا المكان دون أن نقضى به ساعة نشرب فيها الشاى على ضفاف هذا الجدول ؟

فقال أننا فى آخريات الشهر ونخشى أن يلبسنا الليـل سواده فنتعثر فى الأجراف والأخاديد التى دون رجال أو نلاقى فى ظلمته ما نكره فقلت ولو

كان ذلك ولم يسعه إلا الموافقة وأنزل ما على الدواب من فرش بسطناه على طرف الجدول وأوقدنا السموار وقضيناها ساعة تعدل دهراً ما كان أطيبها وأهناها.

لا أكون مغالياً إذا قلت لك أن بلاد عسير تمثل بحق زمردة خضراء في طرف سلسلة جبال الحجاز الجنوبية. ولكنها ويا للأسف لازالت ولازال أهلها على حالة بدائية مشينة. فانها حتى الساعة تكاد تكون على الوضع الذى وجدت عليه فى اليوم السادس من خلق السموات والأرض ومعظم أهلها على حالة من الجهالة والسذاجة جعلتهم مع خصب البلاد وثرائها فى فقر مدقع وشظف من العيش.

ومن حالة هذا التأخر الواقع فى هذه البلاد رغم استعدادها الطبيعى يلمس بجلاء قصور الحكومات التى تصرفت فيها وحكمتها من قبل.

وليس هذا الشأن فى عسير وحدها فالجزيرة العربية جميعها بعد عهد الخلفاء الراشدين لم تلق من الحكومات الإسلامية منذ فجر تاريخها « لا فرق بين عربيها وأعجمها » ما تستحق من العناية مما جعلها فى هذا التأخير المشين وأبعد الشوط بينها وبين بقية ممالك العالم الأخرى فيما وصلت إليه فى هذا العصر من حضارة ومدنية ورقى.

ولا يقوم لها عذر بأن معظم أنحاء الجزيرة صحار وحزون تستعصى على الإصلاح والازدهار فإن فيها من الأقاليم والواحات مالو أعير مايستحق من عناية لأصبح لا يقل عما عليه أشباهه الآن من بلاد العالم فى غير الجزيرة

وحسبك باليمن وماكان عليه فى سالف الزمن من حضارة وازدهار لا يزال صدى أخبارها يتجاوب ويرتفع عالياً من أعماق التاريخ.

ولكن القوم بعد عصر الخلفاء الراشدين أنصرفت أنظارهم عن الجزيرة ونقلوا مركز سلطانهم إلى مااستطابوا من الأقاليم المجاورة لها وشغِلَ أولياء

الأمور باتساع الفتوحات فقصروا فيما كان واجباً عليهم نحوها وبقيت على حالة الفطرة وبتوالى الزمن وكثرة الهجرة من أهلها إلى ما اتسع إليه الفتح(١) وانحلال الخلافة العربية وضعفها عاد إليها الكثير من التقاليد التى كانت عليها فى جاهليتها وأمست فرقاً وقبائل اشتاتا يحارب بعضهم البعض وينهب بعضهم البعض كأنها لم تكن منشأ تلك الموجات التى تدفقت على العالم فأوجدت فيه من الأحداث ما هيأ للحكومات العربية والإسلامية من المجد والعزة ما امتلأت به بطون التواريخ وهذا ماعد من معايب الحكومات العربية بعد العهد الرشيد فمن يشهد أهلها اليوم ويخبر حالهم فيها يكاد لا يصدق أنهم أخلاف أولئك الذين أنساحوا على العالم وأسسوا فيه من عظيم الملك وجليل العمران ما سطع سطوع الشمس فى رابعة النهار .

ولعل الأقدار التى هيأت اليوم لمعظم أنحاء الجزيرة بفضل أسدها الرئبال جلالة الملك عبد العزيز بن سعود من الوحدة والالتآم ما هيأت أن تقدر لها إطراد ذلك حتى يعم جميعها وأن يهيء لها من الأسباب ما تصل به إلى ما يجب أن تكون عليه من عز ومنعة ورقى وازدهار .

بارحنا المكان الذى وصفت وحوالى الساعة الواحدة بعد الغروب وصلنا رجال وألقت عصاها واستقر بها النوى غير أن صحتى لم تزل معتلة مما ألم بها

---

(١) جاء فى كتاب امراء البيان لمحمد كرد على أن فى أواسط الدولة الأموية كثرت هجرة العرب إلى البلاد التى أظلتها الراية الأموية كفارس والعراق والشام ومصر وأفريقية والأندلس وان الدولة عاونتهم وشجعتهم على ذلك باقطاعهم الأرض الشاغرة وجعلت فى بعض الأقطار جزية أهل الذمة طعمة للمهاجرين ترغيبا لمن وراءهم للالتحاق بهم فبدأ النقص فى سكان جزيرة العرب .

هـذا ولا ريب من جملة ما أدى إلى خمود الحيوية فى من بقى من سكان الجزيرة وزاده إهمال الخلفاء لها وانصرافهم عن أى اصلاح فيها أو رعاية حقة لمن تبقى من سكانها مما فاوت ولاشك بينها وبين بقية أجزاء المملكة حتى فى ذلك العصر وأدى بها وبهم إلى أسوء مصير .

من انحراف فى جيزان وأخذ يصيبنى أسهال يعقبه دوار يشبه الغيبوبة مما كنت أحس معه الموت فى بعض الأحيان ، لم يفدنى فيه كل ما كان معى من وسائل الإسعاف والعلاج ولم يكن بد من طلوعى إلى أبها لاستشارة طبيبها .

طلعت أبها وظللت بها أسبوعاً لم أنتفع فيه بكل ما أعطانيه الطبيب من دواء بل جد معى شيء آخر وهى بثور تنتثر فى صدرى ومعصمى مصحوبة بحكة تختفى ثم تعود فأشار على الطبيب أن أذهب إلى مكة للمعالجة .

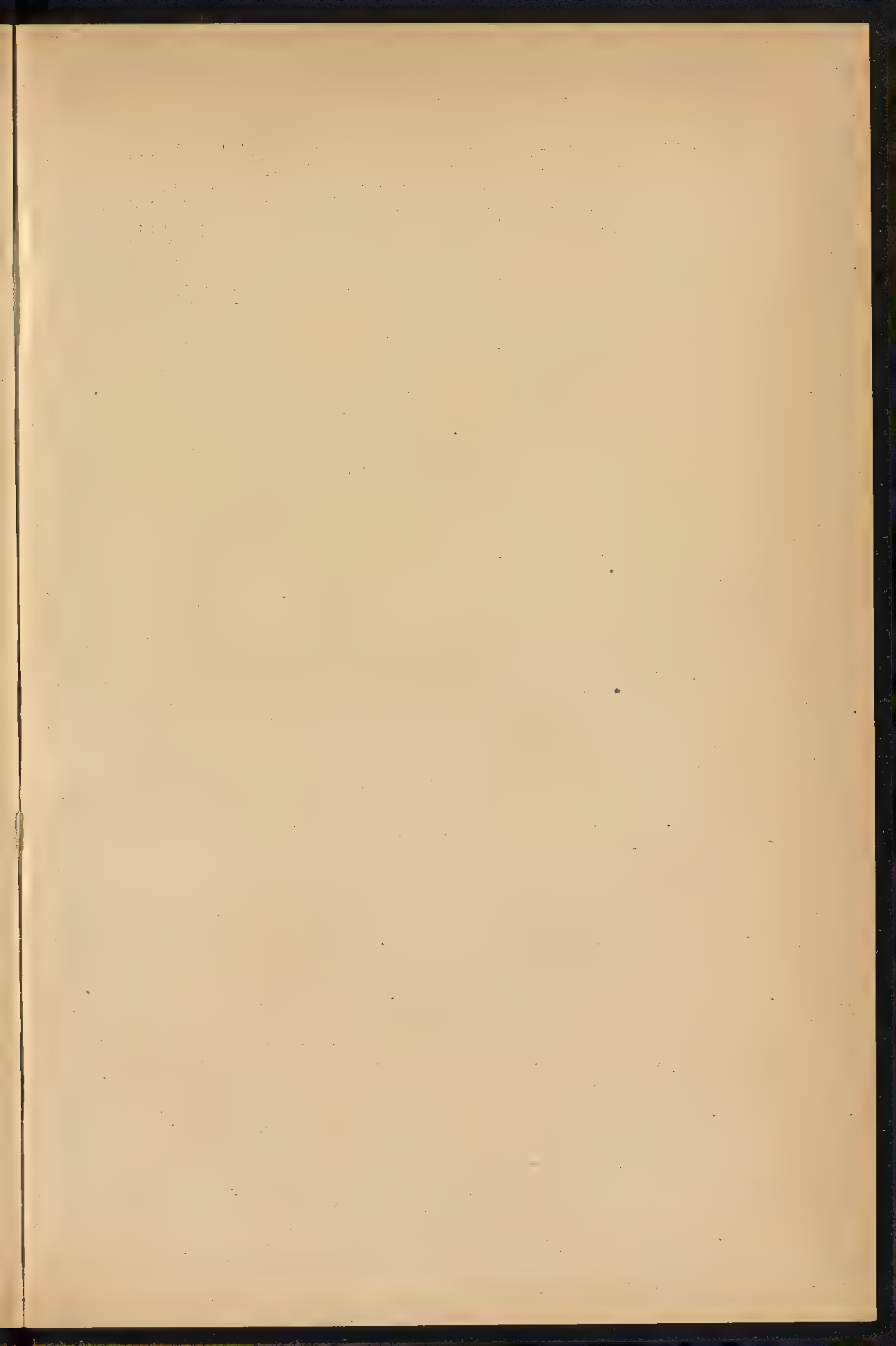
كتبت لزميلى الأستاذ عيسى بالواقع وأنا آسف لما تحتم على من مفارقة هذه الجهات فقد كانت النفس لازالت عالقة بالتجول فيها ومعرفة مالم أكن قد عرفت واستطلعت من أحوال بقية قراها وقبائلها وكان فى العزم أن أجعل عودتى لو كنت سليما عن طريق السراة وسلسلة جبال الحجاز حتى الطائف لأتعرف أحوال سكانها وعاداتهم بالمشاهدة فإن السلسلة معمورة بالقرى والمنازل وكثير من مناطقها وصفاح جبالها الغربية إلى ما يقارب الطائف لا يقل خصوبة عن جبل عسير على ما أسمعه من بعض أهلها ممن يرتادون مكة فى أثناء موسم الحج للعمل والتكسب .

فلم يعد من عذر أن نجهل بلادنا بعد أن شملها الأمن من أقصاها لأقصاها بفضل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وحزمه فى إدارتها ومن العار أن يعرف الفرنجة الغرباء عنها من أحوالها وأخبارها وخفاياها ما لا نعرف بعضه ولقد بذل الأسلاف - كما يقول الدكتور عبد الوهاب عزام فى مقدمة كتابه مهد العرب - عناية مشكورة فكتبوا فى أوصافها وأخبارها وبقينا عالة عليهم ولم نقتف آثارهم فرجعنا إلى الكتب القديمة التى تركوها لنا أو أخذنا عن الأوروبيين ما كتبوه عنها ونحن أولى بمعرفة أرضنا وأقدر على التجوال فيها ومخالطة أهلها وأعرف بلغتها وتاريخها وعاداتها »

ولعل الأقدار تسعف وتحقق ما تمناه حضرته من قيام بعث فيه من المؤرخين والأدباء والجغرافيين والمهندسين ليضعوا مصورات للجزيرة

ويبينوا لنا المواضع التى ذكرت فى التاريخ والأدب ويحققوا الوقائع التاريخية ومنازل القبائل القديمة فيربطوا بذلك حديثها بقديمها ويبرزوها لنا جلية واضحة ، فإن ذلك أوفى من عمل الفرد وأجزل تحقيقاً واعم فائدة .

كتبت لزميلى كما ذكرت لينوب عنى فى إدارة أعمال المدرسة وفارقت عسير وكان ذلك آخر عهدى بها .



القسم الثاني

تاريخ عسير السياسي

في غضون مائة وخمسين سنة


بسم الله الرحمن الرحيم

عسير فى التاريخ

لم يكن من المعروف فى العهد الجاهلى وحتى عهد صدر الإسلام فى تقاسيم بلاد العرب إقليم باسم عسير ، وكل ما جاء فى أقوال الأقدمين هو ما ذكره أبو محمد الحسن بن أحمد الهمدانى صاحب كتاب صفة جزيرة العرب المتوفى سنة ٣٣٤هـ . قوله : « ثم يواطن حزيمة من شاميها عسير قبائل من عَنَزْ وعسير يمانية تنزرت ودخلت فى عنز ، فأوطان عسير إلى رأس تيَّـه وهى عقبة من أشراف تهامة ، وهى أبها وفيها قبر ذى القرنين فيما يقال عثر عليه على رأس الثلاثمائة من تاريخ الهجرة . والدَّارة ، والفُتَـيْحَـاء ، واللصَـبَـة ، والمَـلحَـة ، وطَبَـبْ ، وأتانَهْ ، وعِبل ، والمِـغنوث ، وجُرشه ، والحدبة ، هذه أودية عسير كلها » .

والذى يبدو لى أن هذه القرى والمنازل التى سماها الهمدانى ولا يزال معظمها يعرف بهذه الأسماء حتى الآن كانت فى عهد صدر الاسلام وابان سطوة الخلافة وماقبل ذلك من الأعصر تعتبر قسما من جبال الحجاز وتعرَف بالسراه كما كانت جبال السراه تُعرَّف بأسماء أشهر القبائل من ساكنيها وتحدد بمنازلهم منها .[١] .

فلما تفككت الجامعة الاسلامية بضعف خلفاء الدولة العباسية وأصبح فى كل إقليم من أقاليم الدولة حكومة لها أمير مخصوص مستقل أطلق على مجموعهم اسم ملوك الطوائف وانتهى الأمر بأن اجتاح التتار العراق فانقرضت الخلافة العباسية منه تماما ، أصبح إقليم الحجاز واليمن يتبع فى أغلب الأحيان

---

(١) جعل ياقوت فى تحديده جبال الحجاز من الجهة الجنوبية بلاد مذحج ووادى تثليث هى الحد الفاصل فما بعدها . يقال عنه يمنا (ج٣ص ٢١٩) وقال الأصمعى فيما حكاه عنه ياقوت أيضاً . الطود جبل مشرف على عرفه ينقاد إلى صنعاء . يقال له السراة وإنما يسمى بذلك لعلوه وسراة كل شىء ظهره . يقال سراة ثقيف . ثم سراه فهْم وعدْوان . ثم سراة الأزد .

الحكومة القائمة بمصر. ولما استولى السلطان سليم العثمانى المعروف بياوز سليم على مصر عام ٩٢٢ وانقرضت على يده حكومة المماليك الجراكسة وتلاشت الخلافة العباسية التى كانت قائمة بمصر تمثل تلك المهزلة التى بدأت من عصر الظاهر بيبرس فى تنصيب خليفة ليس له من الحول والطول شىء بادر أمير مكة فى ذلك العهد وهو الشريف بركات وتقدم بالطاعة والاذعان إلى السلطان سليم فأقره على ما بيده من إمارة مكة وما والاها .

ونظراً لما للجزيرة العربية وخصوصاً الحجاز من القيمة المعنوية والصفة الدينية فقد اكتفى السلطان سليم بهذا الارتباط وتتابع هذا الاكتفاء ممن خلفه ، ولم يظهر للدولة العثمانية فى كثير من نواحى الجزيرة أثر قوى للسلطة والتصرف بالحكم ، وظل بعضها يحكم بأمراء محليين وبعضها برؤساء ومشايخ دستورهم عوائدهم القبيلية على ما كانت عليه حالتهم فى سابق العصور مما أوجد نكسة بالغة الأثر بالعودة إلى ما كان الاسلام قد قضى عليه وأزاله من سيء العادات والعصبيات القبيلية .

دامت هذه الحاله قائمة مستمرة نحو قرنين من الزمان كانت الحكومة العثمانية تعد فيها من أعظم دول العالم وأقواها ، غير أنه بعد ذلك أخذت مكانتها فى الانحطاط والتلاشى وقامت الثورات والفتن فى كثير من ولايتها وما يرتبط بها من ممالك .

وقد كان من أعظم الثورات وأبعدها أثراً وأشدها خطراً فى شبه جزيرة العرب إندفاع السعوديين أمراء بعض قسم العارض من نجد واستيلائهم على معظم ما كان مرتبطاً بالحكومة العثمانية من الممالك والأمارات فيها .

ففى عام ١١٣٧ هـ لم يكن حفيد مقرن بن مرخان الذى تنتسب إليه العائلة السعودية المجيـــدة وهو الأمير محمد بن سعود سوى أمير للدرعية وما حولها فقط .

فلما ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بمبادئه الدينية الاصلاحية المعروفة والدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح ، واتخذ الدرعية له مقاماً تصدى الأمير المشار إليه لحماية الدعوة والذود عنها بحد الحسام ، وما أن بدت طلائع القرن الثالث عشر الهجرى حتى كانت الدعوة قد انتشرت فى معظم أنحاء الجزيرة يماشيها نفوذ آل سعود وسلطانهم جنبا إلى جنب .

آل سعود فى عسير

فى هذه الأثناء كانت بلاد قبائل عسير كأمثالها من بقية بلاد شبه الجزيرة تحكم برؤساء ومشايخ محليين لا تربطهم رابطة ولا تجمعهم غاية .

فلما أن شارفت مغازى آل سعود ما جاور عسير من البلاد الشرقية وترامى إلى بعض أهلها ورؤساء العشائر فيها أخبار دعوتهم الدينية هاجر إلى الدرعية من آل المتحمى من قبيلة ربيعة رفيده (إحدى قبائل عسير) محمد بن عامر المعروف بأبو نقطة وأخوه عبد الوهاب رغبة منهما فى الأخذ بهذه المبادىء الجديدة وبالتالى استمداداً لما يجعل لهما السلطة والسيادة على قبائلهما فى عسير .

فانتهز الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود هذه الفرصة وجهز سرية لغزو عسير تحت إمرة « رُبَيِّع بن زيد » أمير وادى الدواسر [1] وأرفق به محمد بن عامر أبو نقطة وأخاه عبد الوهاب ، وما انتصف عام ١٢١٥ هـ حتى دخل سائر أهل عسير السراة فى طاعة السعوديين وموالاتهم [1] .

---

(١) وادى الدواسر من أودية نجد الجنوبية .

(٢) يقول أحد علماء الحفاظية المعاصرين (والذى اقتبست معظم حوادث عسير فى ذلك العهد من مذكراته (ولم يذكر اسمه فيها) أن الجيش الذى غزا عسيرا من الدواسر ألزم من دخل فى الطاعة حلق رأسه اظهارا لقبول الدعوة والتخلى عما كانوا عليه من عوائد الجاهلية وان ذلك العام تسمى فى عسير « بعام الدُّرْمَاح »

بعد ذلك أخذت السرايا من الجيش النجدى ومن والاه من قبائل عسير تتابع الغزو شمالا على بنى شهر [١] وغيرهم وغربا على تهامة والمخلاف السليمانى [٢] فانه إذ ذاك كان تحت إمارة الأشراف الحسنية من آل خيرات المرتبطين اسميا بحكومة صنعاء وامام اليمن .

الدبلوماسية السعودية أو سياسة الحماية

امارة محمد أبو نقطة ـ خلاف وتسوية

ولما لم يكن من المستطاع أن يحكم السعوديون هذه الجهات حكماً مباشراً لبعدها عن مقر أمارتهم ، وبعد أن أتم الجيش الفاتح عملياته ، أقام الأمير عبدالعزيز بن سعود ـ محمد بن عامر أبو نقطة أميراً على عسير السراة وما إليها وكان ذلك مبدأ اشتهار عسير كقسم من بلاد العرب ذا كيان سياسى خاص .

كان أول عمل لأبو نقطة أن نزل إلى قرية رجال حاضرة قبائل ألمع ، ودعاهم إلى الطاعة فأجابوه [٣] وتأليفاً لهم لم يجمع منهم الحلقة وأعفاهم من الحلق

فلم يرق ذلك لبعض من بالدرعية عندما علموا به ، فقد جاء فى أوائل عام ١٢١٧ ﻫ المدعو زاهر بكتاب للأمير أبو نقطة من الامام عبد العزيز بن محمد يأمره فيه بجمع حلقة قبائل ألمع وتنكيلهم ، فلم يرِ الأمير محمد أبو نقطة

---

(١) بنو شهر قبيلة يسكن معظمها جبال الحجاز وهى قبيلة وافرة العدد انظر الرحلة ص ١١٢ .

(٢) المخلاف السليمانى يقال أنه فى عهد الحميريين كان المخلاف السابع من مخاليف حكومتهم وهو القسم الذى يلى سراة عسير من تهامه أنظر الرحله ص ٥٥ .

(٣) يقول أحد علماء الحفاظية المعاصرين من سكان قرية رجال « ومن ذلك الشهر قبل دخول الدولة هدمنا القباب (يعنى قبابا كانت على أضرحة بعض أسلافهم) وتوليت ذلك بيدى طاعة واحتسابا »

ومن العلماء الحفاظية من ناصر الدعوة وسعى جاهدا فى تأييدها وألف فى ذلك الكتب وأنشأ القصائد المطولات .

ذلك من المصلحة . فسافر إلى الدرعة مصطحباً معه جماعة من أعيان أهل السراة وقبائل ألمع ، وبعد تسوية الأمور وما نشأ من اشتباه لعدم جمع الحلقة من قبائل ألمع عاد مؤيداً فى أمارته ولكنه فى أثناء رجوعه أصيب بالجدرى ووافته منيته ، فمات فى طريقه قبل أن يصل إلى عسير .

كانت مدة أمارة محمد بن عامر أبو نقطة نحو سنتين منها عشرة أشهر أمارة عامة ، هى الأولى من نوعها فى عسير السراة كما سبق القول .

أمارة عبد الوهاب بن عامر

غزو وتوسع

وصل خبر وفاة الأمير محمد بن عامر أبو نقطه إلى عسير فأجمع أولو الشأن فيها على مبايعة أخيه عبد الوهاب أميراً عاماً عليهم وأقره الإمام عبد العزيز على ذلك بعد أن اشترط عليه محاربة الشريف حمود صاحب « أبو عريش » (١) .

ظل عبد الوهاب بن عامر المتحمى أميراً عاماً من قبل السعوديين من عام ١٢١٧ هـ إلى عام ١٢٢٤ هـ نحو سبع سنوات قام فى أثناءها بجملة من المغازى ، وكان أهم ما قام به هجومه على أبو عريش واستيلاؤه عليها وحرقها وإدخال الشريف حمود فى طاعة السعوديين وموالاتهم واشتراكه فى محاربة السعوديين لأمير مكة الشريف غالب بن مساعد فان السعوديين حينما فتحوا مكة فى أول عام ١٢١٨ هـ كان من الحامية التى تركوها فيها نحو أربعمائة من رجالات عسير أعاد عليهم الشريف غالب الكرة وأخرجهم منها .

فتوجه الأمير عبد الوهاب إلى الحجاز فى جمع عظيم من قبائل عسير

---

(١) ابو عريش مدينة من مدن تهامة « المخلاف السلمانى » أنظر الرحلة ص ١٥٠

وأقام مرابطاً بالقرب من جل يَلَمْلَم (١) سبعين ليلة غزا فيها الشريف غالب ثلاث عشرة غزوة كان له فيها جميعاً التفوق والغلبة .

ولم تقتصر إمارة عبد الوهاب على عسير السراه وما صاقبها ، بل مد السعوديون فى سلطته إلى المخلاف السليمانى عندما أدخل أمراءه فى موالاتهم وطاعتهم .

غير أن ذلك لم يطل فقد توصل الشريف حمُود أمير أبو عريش وابن عمه منصور بن ناصر المتنصب على مدينة صبيا لرفع نيره عنهما والارتباط مباشرة بالدرعية فى أول عهد الإمام سعود الكبير (٢) .

وانتهت إمارة عبد الوهاب بموته قتيلا فى الموقعة التى جرت بينه وبين الشريف حمود فى وادى بيش (٣) عندما نقض الشريف عهد السعوديين وانحرف عن موالاتهم كما سيجىء تفصيل ذلك بعد .

أمارة طامى بن شعيب

فلما وصل خبر مقتل عبد الوهاب إلى الدرعية أقام الإمام سعود طامى بن شعيب المتحمى أميرا على عسير بدلا عن الأمير عبد الوهاب واستمرت إمارة طامى من عام ١٢٢٥ هـ إلى عام ١٢٣٠ هـ أى نحو ست سنوات قام خلالها بعدة غزوات (٤) منها غزوته بالاشتراك مع عثمان

(١) جبل يلملم فى الجنوب من مكة وعلى بعد ليلتين منها وهو الميقات الشرعى للأحرام بالحج والعمرة للقادم من اليمن .

(٢) نقلت ذلك عن نفح العود فى سيرة الشريف حمود وسيأتى بعد هذا عند الكلام على سيرة الشريف حمود كيف جرى ذلك .

(٣) وادى بيش واد عظيم من قراه أم الخشب ويطلق عليها اسم الوادى من باب اطلاق الكل على البعض .

(٤) ومن غزوات طامى المهمة ما ذكره ابن بشر فى تاريخ نجد فى حوادث عام ١٢٢٩ وخلاصته أن محمد على والى مصر أبان مقامه بمكة فى شهر جمادى الآخرة =

المضايفى أمير الحجاز من طرف السعوديين لممالك الشريف حمود واصطدامه بجيشه فى وادى وحله فى مكان يسمى بَرْبَرْ ووقوع قتال عنيف بينهما كانت الدائرة فيه على جيش الشريف حمود إلا أن جيش طامى لم يسلم من الخسائر العظيمة فى الرجال فقد قتل كثير من سروات جيشه منهم سعيد أخو عثمان المضايفى لذلك لم يستطع الأمير طامى ملاحقة الشريف إلى أبوعريش بل عاد راجعاً إلى السراة ، وإذ ذاك كان نجم آل سعود قد بدأ فى الأفول .

= وجه إلى الجهات اليمانية جيشاً كثيفاً بعضه عن طريق البحر وثغر القنفدة وبعضه عن طريق البر وكانت بالقنفدة حامية من عسير نحو خمسمائة مقاتل باغتتهم جنود محمد على فاضطروا للتسليم صلحاً وكان الأمير طامى آن إذ قد جمع عدداً وفيراً من قبائله وقصد بهم مكة لمحاربة محمد على فلما علم بالحادث انحرف عن طريقه إلى مكة وقصد ثغر القنفدة وقدر ابن بشر ما كان مع طامى من المقاتلة بأكثر من ثمانية آلاف مقاتل نازل بهم جيش محمد على فى القنفدة ونصر الله طامى ومكن له من الاستيلاء على جميع ما كان مع الجيش من عتاد وسلاح مما يضيق عنه الحصر والتعداد وكانت الخيل التى استولى عليها من الجيش المذكور نحو خمسمائة رأس واضطر جيش محمد على أن يهرب إلى ما كان معه من سفن وقبض جيش طامى فى هذه الموقعة على رئيس الجند فقد حصروه فى مخيمه قبل أن يتمكن من الهرب إلى المراكب وقتلوه وذكر ابن بشر أيضا واقعة أخرى جرت فى شهر شوال من العام المذكور وخلاصتها أن طامى سار بجيش قدره بنحو عشرة آلاف مقاتل نازل به جيشاً لمحمد على قدره بنحو عشرين ألفاً من الأتراك والمغاربة كانوا يعسكرون فى أودية قبيلة زهران بالسراة وانتهت الموقعة بينهما بتبدد جيش محمد على وهزيمته واستيلاء طامى ومن معه على جميع ما كان فى المعسكر من خيام وعتاد وما إلى ذلك ولم ينج من الجيش المذكور إلا من استطاع الهرب على فرسه ص ١٧٧ و ١٧٨

مصر فى عسير

بعد انكسار طوسون بن محمد على باشا والى مصر فى واقعــة وادى الصفراء [١] التى جرت بينه وبين السعوديين فى عام ١٢٢٦ ﻫ رأى محمد على أن يذهب إلى الحجاز وأن يتولى بنفسه مقاتلة السعوديين ورفع نيرهم عنه ، وتيسر لطوسون بعد أن وصلته إمدادات جديدة من مصر احتلال مكة ، وتمكن محمد على من وصوله إلى الحجاز والأشراف بنفسه على سير القتال ، وجهز حملة كان هو بذاته على رأسها ، اتجهت نحو عسير عن طريق ترَبه [٢] وبيشه [٣] لمــا بلغه أن السعوديين وحلفاءهم من عسير قد جمعوا فى تلك الجهات جيشا قدروه له بأربعين ألفاً يقصدون به مكة .

وفى وادى بِسَل « بين الطائف وترَبهَ » فى مستهل عام ١٢٣٠ ﻫ التق محمد على بهذا الجيش وكان يقوده فيصل بن سعود وطامى بن شعيب أمير عسير، وبعد قتال عنيف بين الفريقين انهزم الجيش السعودى وفر طامى إلى عسير وجمع الجموع من قبائله خاصة عله يرد محمد على عن زحفه ، فلم يوفق ، واستطاع جيش محمد على أن يصل قرية طَبَب [٤] مقر آل المتحمى وأن يهدم حصونها

---

(١) وادى الصفراء فى الطريق بين مكة والمدينة مما يلى ينبع به نخيل وعيون جارية

(٢) تربه قرية بينها وبين الطائف ثلاث مراحل أنظر الرحلة ص ٨ .

(٣) بيشه واد عليه عدة قرى أنظر الرحلة ص ١٧ .

(٤) طبب قرية على واد يسمى بها وهى من قرى عسير من منازل ربيعة رفيده تقع فى الشمال الغربى من أبها وتبعد عنها بأربع ساعات : وجاء فى كتاب (عصر محمد على) أنه بعد أن تمت مراسم الحج تجدد الحرب وانفذ محمد على جنوده إلى الطائف تمهيداً للزحف وكان الوهابيون قد جمعوا من المقاتلة نحو عشرين ألفاً حشدوهم بقيادة فيصل بن سعود بين بِسل وتربه وكان لهم عدا ذلك احتياطى من نحو عشرة آلاف مقاتل ، وان محمد علِى زحف فى نحو أربعة آلاف مقاتل على بِسـل فى يناير سنة ١٨١٥ م ، وأن الجيش لما والى زحفه إلى تربه ورنيه وبيشه لقى متاعب هائلة ولم يكن غذاؤه فى الغالب سوى التمر . وكان محمد على يقاسمهم شظف العيش ليشجعهم على احتماله ص ١١٢ .

وفر طامى منفرداً على فرسه إلى تهامة إلى قرية تسمى «مُسْلِيَه»[١] كان قد أنشأها إبان إمارته وأحدث حولها مزارع أقام فيها بعض عبيده.

آوى طامى إلى مسليه ولكن الخوف والهلع كانا قد ملكا عليه نفسه، فلم يقر له قرار فيها فاعتزم التحول عنها والالتجاء إلى الشريف حمود أمير «أبو عريش» والاحتماء بكنفه فانتقل إلى قرية الدهناء[٢] ونزل فيها ضيفا على الشريف يحى بن محسن وكاشفه بعزمه على اللجوء إلى الشريف حمود فخطأه فى هذا الرأى لما بينه وبين الشريف حمود من الأحن والضغائن، ولما كان يأتيه من غزوه باسم السعوديين وسلب رعاياه ونهبهم، وأشار عليه أن يختفى فى بعض جبال تهامه الشرقية، فأبى ذلك وأصر على عزمه

فى أثناء ذلك، كانت قد ترامت أخبار هذه الحوادث وما أصاب السعوديين وحلفاءهم العسيريين من كوارث إلى أبو عريش، ولم يكن الشريف حمود إذ ذاك بها بل كان القائم بالأمر عنه فيها وزيره السيد الحسن بن خالد الحازمى، فبادر بالهجوم على صبيا[٣] التى كان طامى قد انتزعها منهم باسم السعوديين وامتلك قلعتها واستولى على صبيا وطرد الحامية العسيرية التى كانت تقيم فيها ثم أرسل رعيلا من الخيل للقبض على طامى.

التقت السرية بطامى فى طريقه مع الشريف يحى بن محسن فقبضت عليه وأتت به إلى صبيا مشدود الوثاق.

ربَّ من ترجو به دفع الأذى عنك يأتيك الأذى من قبله

كان جيش محمد على بعد أن احتل طبب كما سبق القول وعلم بهروب طامى أرسل خلفه طليعة من الخيل تتعقبه لتقبض عليه، وصادف أن السرية وصلت إلى أطراف صبيا فى الوقت الذى تم فيه للسيد الحسن القبض على

---

(١) مسلية قرية لا زالت قائمة إلى الآن شرقى وادى بيش.

(٢) الدهناء من قرى وادى ضمد من أودية تهامة.

(٣) مدينة من مدن المخلاف السليمانى تبعد عن جيزان بست ساعات أنظر الرحلة

طامى وسجنه فطالبوه به وتفادياً للاصطدام بهم ودفعا لما يجره الامتناع من مشا كل سلمه اليهم .

وإذا خشيت من الأمور مقدراً   وفررت منه فنحوه تتوجه

نهـــاية سيئة

انتهت بذلك إمارة طامى بن شعيب وكانت خاتمة حياته مؤلمة محزنه فانه سيق إلى مصر وظل بها سجيناً مدة من الزمن أرسل بعدها إلى استانبول فطيف به فى شوارعها ثم ضربت عنقه رحمه الله .

اكتفى جيش محمد على بما تم وبالقبض على طامى وترك حامية من بعض جنوده فى عسير وعاد راجعاً إلى الحجاز .

لم تطل إقامة محمد على باشا فى الحجاز لأن أخباراً وردته من مصر تنبىء بحصول فتنة فى القاهرة فأقام عنه والياً فى الحجاز، ثم سافر مسرعاً إلى مصر [١]

كان القبض على طامى ورجوع محمد على من عسير فى غضون شهر ربيع الأول عام ١٢٣٠ هـ وقع الناس بعده فى عسير فى فترة ضنك واستخذاء للحامية التى تركها محمد على .

إمارة محمد بن أحمد والأخذ بالثأر

إلا أنه فى شهر رمضان من العام نفسه تأمّر محمد بن أحمد المتحمى من أبناء عم طامى وكان شجاعاً قوى الشكيمة [٢] فكان أول أعماله هجومه على مقر الحامية واستئصاله شأفتهم قتلا وأسراً .

---

(١) تاريخ نجد الحديث ص .

(٢) يقول صاحب نفح العود فى سيرة الشريف حمود (ومحمد أحمد هذا كان لابساً رداء الجبروت ، وسفاكا للدماء من غير مراقبة الحى الذى لا يموت اجتمعت على طاعته أهل السراة من عسير خوفا ورهبة) .

ثم نزل إلى محايل [١] وكان أهلها يوالون العدو فانتهبهم وحرقها وعاد راجعاً إلى السراه .

ولما آنسه من التوفيق وما حصل عليه من المغانم فى هجومه على محايل ونظراً لما بين سكان السراه وأهل المخلاف السليمانى من الضغائن ، لاسيما وقد سلموا طامى بعد أن لجأ إليهم لرجال محمد على كما سبق ذكر ذلك ، اعتزم أن يحارب الشريف حمود وينتقم منه ويسترد صبيا فجمع الجموع من أهل السراة ونزل بهم إلى درب بنى شبعة (٢) وعلى مقربة منه التقى بجيش الشريف حمود ووقع بينهما القتال ، فكانت الدائرة على محمد أحمد ومن معه، ورجع مهزوماً لم يبلغ أمنيته.

علم ولاة الأمر فى الحجاز بما حل بالحامية التى تركها محمد على فى عسير وانتقاض أهله عليهم، وخشوا — إن هم أهملوا ذلك — أن يعظم ويكبر فيتسع الخرق على الراقع لاسيما وأن الاجراءات الحربية القائمة فى نجد لم تدخل فى دور حاسم بعد، بل كان السعوديون لايزالون يقاومون إبراهيم باشا ويقاتلونه فقرروا إرسال حملة إلى عسير لاسترداد سلطانهم عليها . كان ذلك فى أواسط عام ١٢٣٢ هـ .

سارت الحملة بقيادة حسنى باشا عن طريق وادى بيشة فلم تلق مقاومة تذكر ، إلى أن وصلت طَبَبْ مقر آل المتحمى واحتلتها . والظاهر أن الأمير محمد أحمد لم ير فائدة فى المقاومة لحسنى باشا والتصدى لقتاله فاختفى . وأن حسنى باشا لما لم يجد من المقاومة ما يؤبه له اكتفى باحتلال طبب وترك حامية أخرى فيها وأخذ العهود والمواثيق على من أظهر الولاء من أهالى عسير وعاد أدراجه .

---

(١) محايل قرية من قرى وادى حلى وعلى ثلاثة مراحل من ثغر القنفدة أنظر الرحلة ص ١٠٠ .

(٢) درب بنى شعبة على مرحلتين من صبيا ومرحلة من رجال أنظر الرحلة ص ١٢٠ .

ويبدو لى أن الأمير محمد أحمد ومن لف حوله من رجالات عسير أرادوا بعد مبارحة حسنى باشا مناوأة الحامية والانتقاض عليهم غير أن العسيريين فى هذه المرة لم يكونوا متحدين فى مراميهم ، بل تخاذل بعضهم والتزم جانب الوفاء للجيش المحتل .

فقد ذكر صاحب كتاب نفح العود فى سيرة الشريف حمود فى حوادث عام ١٢٣٢ ﻫ ما نصه .

وبعد وصول الشريف حمود وبصحبته السيد العلامة الحسن بن خالد كان ذلك فى وقت طلوع الوزير الكبير للسلطان حسنى باشا بالأتراك فى بلاد عسير . واستولى عليها لما ساعدته المقادير ، وبعد انفصاله عنها وقع منهم الخلاف والتظهر بعد الائتلاف وكان إذ ذاك أميرهم محمد بن أحمد الرفيدى فوقعت المفاوضة بينه وبين على بن مجثل أنهم يستنجدون الشريف لأن كلا من الرجلين فى معقله ومعه جماعة من عشيرته وباقى عسير قائمون عليهم بالحرب ؛ صباحا مساء ، محافظة مع الأجناد التركية على الوفاء ، وأصحبوا الرسل بهدية « درع وحصان » .

الشريف حمود يهتبل الفرصة فتواتيه الأقدار

أقدم الأمير محمد أحمد المتحمى ومن لف حوله من رجال عسير على الاستعانة بخصمهم الشريف حمود لما عليه عشائرهم من التخاذل والانحراف مع الجيش المحتل ولما آنسه فى الشريف من السطوة والقوة عند ما وقع بينهما القتال فى درب بنى شعبة كما مر آنفاً . وهكذا تقضى المحن والظروف السيئة أن يتخذ المرء من عدوه صديقاً ومن خصمه حامياً ومجيراً

ترجح لدى الشريف حمود أن يستجيب لما طلبته عسير لعل الأقدار تسعفه بضم جبل السراة إلى مملكته ، فطالما ذاق سكان المخلاف السليمانى

من أهله الآمرين فى عهد موالاتهم للسعوديين وانتدب للقيام بهذه المهمة وزيره السيد الحسن بن خالد الحازمى فتهيأ لذلك وعبأ الجنود ورأى أن يقدم بين يديه سرية من الجيش عن طريق قرية رجال جعل على رأسها القاضى الحسن بن عُطَيْف الحكمى. وماكادت السرية تصل الحَمَّة[1] حتى فوجئت بخبر وصول القائد جمعه بجيش من الأتراك ومعه الشريفان على بن حيدر ومنصور بن ناصر، فانهما كانا قد انشقا على ابن عمهما الشريف حمود ولجأ كل منهما إلى مكة يستمدان منها المعونة على حربه .

طيرت السرية هذا الخبر إلى السيد الحسن فلحقها بمن معه من الجند والتحم الفريقان فى معركة كانت الدائرة فيها على القائد جمعه ومن معه ؛ فولوا الأدبار ونكصوا راجعين من حيث أتوا .

بعد هذه الملحمة إزدادت آمال الوزير السيد الحسن فى ضم بلاد السراه إلى مملكة مخدومه ، فقدم بين يديه القاضى الحسن بن عطيف ومن كان معه على سابق الترتيب ثم لحقه ببقية الجيش .

وما أن استقر فى السراه وتوسط بين شعابها وصخورها الصلاب — كما يقول صاحب سيرة الشريف حمود — حتى شعر بالغـــدر وقصد السوء والإيقاع به وبمن معه من الجند من بعض رجال عسير ، فلم يسعه إلا أن يبذل الرغائب ويتوسل إلى دفع شرورهم عنه بالدراهم والدنانير - التى تسهل بين بنى الدنيا كل أمر عسير - كما يقول صاحب السيرة . ويكتب من السراه إلى مخدومه الشريف حمود يستصرخه ويستحثه لإنقاذه . فلم ير الشريف حمود بدأ من أن يسير بنفسه فحشد ما استطاعه من قوة وزحف طالعا إلى السراة

(١) الحمه مكان بين درب بنى شعبه وقرية رجال يقع بين الجوفاء والجبيل أنظر الرحلة ص ١١٩ .

عن طريق عقبة ضَلَع[١] وبوصوله وما معه من قوة ـ خنس واستخذى من كانت حدثته نفسه من رجال عسير بالغدر والخيانة . وقد سبق القول أن رجال عسير لم يكونوا متحدى الكلمة ويتضح من سير الحوادث أنهم لم يكونوا أيضا على وفاق فى الاستعانة بامراء تهامة ولم يرقهم أن يكونوا تبعاً لهم لا سيما بعد ما أتوه من سطو وغزو لسكان تهامة إبان اتصال السعوديين بهم وما كان عليه الحال قبل ذلك من احتقار التهاميين لسكان السراة والازدراء بهم .

استهل عام ١٢٣٣ والشريف حمود معسكر فى السراة والعشائر من سكانها تقدم عليه لأداء البيعة والطاعة له وأخذ هو يرتب الأمور وينظمها على ما تقتضية المصلحة .

حملة سنان أغا

ترامت أخبار هذه الحوادث إلى أولى الشأن من رجال الحملة التركية محمد على باشا فى الحجاز وعز عليهم ما لحق بالقائد جمعه من الهزيمة والاندحار الذى سبق ذكره فسيروا حملة أخرى كان على رأسها المدعو سنان أغا .
جاءت هذه الحملة من طريق الساحل ومحايل ومعهما الشريفان على بن حيدر ومنصور بن ناصر وهما من كانا مع القائد جمعه كما سبق القول إلا أن الشريف على بن حيدر فارق الجيش فى أثناء السير وتأخر عن الطلوع إلى السراة وكان فى ذلك سلامته .

فان الشريف حمود لما علم بخبر هذة الحملة وأن معهما ابنى عمه المشار اليهما آنفا أدرك أنه المقصود فانبرى لملاقاتهم وجرى القتال بين الفريقين فكانت

---

(١) عقبه ضلع غربى أبها الجنوبى ومن طرقها الرئيسية إلى الساحل انظر الرحلة ص ٦١ .

الدائرة على جيش سنان أغا ومن معه وولوا هاربين لايلوون على شيء .

ولم تشترك قبائل عسير مع الشريف حمود فى قتال هذه الحملة لأن مبايعتهم له لم تكن عن طواعية ورغبة منهم بل كانت خشية بأسه ، إلا أنهم حينما رأوا انكسار جيش الحملة تفرقوا له فى المضائق والشعاب وأمعنوا فى الفارين منهم سلبا وقتلا ولحق جماعة منهم بسنان أغا فى رأس عقبة شعار [1] فقتلوه وقتلوا معه الشريف منصور بن ناصر وذهبت الحملة شذر مذر [2] .

رجع الشريف حمود بعد انتهاء القتال إلى مخيمه فرحا مسروراً بما ناله من الفوز وما حصل عليه من الانتصار ولكن الأقدار عاجلته ولم تمهله لجنى ثمرة أعماله فى السراة وأدركته منيته فمات بعد بضعة أيام من الحادث ودفن فى قرية الملاحة [3] .

تقفون والفلك المحرك دائر وتقدرون فتضحك الأقدار

وباستيلاء الشريف حمود على السراة فى هذه السنة كانت خاتمة إمارة آل المتحمى التى استندت فى قيامها على نفوذ السعوديين وسلطانهم فى عسير السراة كما كانت خاتمة إمارة آل سعود أنفسهم فى دورها الأول .

ففى ٩ ذى القعدة سنة ١٢٣٣ اضطر الأمير عبد الله بن سعود أن يستسلم لأبراهيم باشا ابن محمد على بعد مقاومة عنيفة وحروب دامت بينهم

---

(١) عقبة شعار غربى أبها الشمالى ومن طرقها الرئيسية إلى محايل وما بعدها انظر الرحلة ص ٦١

(٢) ذكر ابن بشر فى تاريخه عنوان المجد هذه الحادثة إلا أنه قال ان سنان أغا تزبن أى لجأ إلى ثغر القنفذه ولم يقتل ص ٢١١ حوادث سنة ١٢٣٣

(٣) قرية الملاحة تبعد عن أبها باربع ساعات وشمالا عنها وهى من قرى قبيلة بنى مالك إحدى قبائل عسير

بضع سنوات وأخذ أسيراً إلى مصر ومنها إلى الاستانة حيث لاقى حتفه رحمه الله . ولم يبارح ابراهيم باشا نجدا حتى هدم بلدة الدرعية وتركها قاعا صفصفاً ولله الأمر من قبل ومن بعد .

لم أقف فيما اطلعت عليه من المذكرات التى أستمديت هذه الحوادث منها على خاتمة محمد أحمد المتحمى كيف كانت هل مات حتف أنفه أو قتل فى إحدى المعارك أم ماذا كانت نهايته .

غير أن مما يتناقله الخلف عن السلف فى عسير، أنه أخذ أسيراً بيد الترك فى إحدى حملاتهم على عسير .

ولأهل محايل مثل يضربونه لمن يترك سيئة بعده فيقولون « تخلِفَة محمد أحمد » وذلك لأن الأتراك حينما مروا به مكبلا فى الحديد على محايل أخذ بعض سفهائهم يندر عليه ويستهزء به فزعم لمن يتولى شأنه من رجال الترك أن له فى محايل أموالا ومواشى مما حفز الترك وجعلهم يطالبون أهل محايل بها ويضمنونهم بسبب قوله هذا خمسة آلاف ريال. وجاء فى تاريخ نجد لابن بشر أن عسكراً من الأتراك معهم محمد بن عون الشريف أمسكوا فى حملة لهم على العسيرين بمحمد أحمد هذا وهو مريض وقتلوه[١]

ومما وقفت عليه عند بعض الحفاظيه من سكان قرية رجال قصيدة منسوبة لمداوى بن محمد أحمد المتحمى ويعرف بأبى دواس بعث بها من مصر فى أثناء أساره فيها إلى العلامة الشيخ ابراهيم الحفظى الزمزمى يتشوق إليه وإلى عسير ويصف فيها بعض حوادثه السابقة مما يدل على أن القوم كانوا على طرف من المعارف والإلمام بالأدب وعلوم العربية فى وقت كان الشعر فى حواضر كثير من الأقاليم العربية أبعد ما يكون عن الجزالة وجمال الأسلوب والقصيدة فى خمسين بيتا وهى :

---

(١) تاريخ عنوان المجد ص ٢١١ حوادث ١٢٢٣

سلام على عرق اللوى[١] عدد القطر ... وحيـاه هطال يحليه بالزهر
ديار اذا شمت من الغيث نفحة ... تضوع منها طيب النبت بالعطر
سـلام على أعلامهـا وأ كامها ... سلام على سكانها البدو والحضر
تحية صب قد برى الشوق جسمه ... وأدمعه من حر نار الجوى تجرى
فياحبذا تلك الديار وإن نأت ... ولاحبذا مصر وإن كنت فى مصر
بهـا فتيـة مثل الربيع لجارهم ... ويحمونها بالبيض والذبل السمر
ولا سيما فى يوم كل كريهة ... يسير بها الركبان فى البر والبحر
وما كنت ممن يبرى الشوق جسمه ... لغير القنا والبيض والضمر الشقر
إلى أن بدت لى من سعاد محاسن ... سبت مهجتى من حيث ادرى ولا تدرى
لهـا شـعر كالليل أسـود فاحم ... وجيد كجيد الريم والوجه كالبدر
عسيرية العينين روميـة اللما ... تهامية الساقين نجـدية الخصر
وفى حبها كم قلت يوما لعاذلى ... صدقت ولـكن لا سبيل إلى الصبر
فدعنك عذلى فى هواها وأهلها ... همو قدوتى حتى أوسد فى قبرى
تذكرتها والليل قد مد جنحه ... وحولى حراس حراص على اسرى
فجاوزتهم ستصحبا مشرفية ... كأن على أعطافها لهب الجمر
ويممت أرضا لا أنيس بهـا يرى ... سوى الذئب يعوى من أمامى وفى اثرى
كأن عليها الغيث أصبح ساخطا ... فليس بها شىء سوى الرمل والصخر
ومالى إلا الأسودان[٢] معيشة ... ومالى ظهر فى فلاها سوى صبرى
وصيرت اقدامى ذارعا لقفرها ... وقطعتها حتى وصلت بنى شهر[٣]
فلمـا وصلناهم وجدنا أناسهم ... جياعا من التقوى شباعا من الـكفر
أرادوا لنـا كيداً أفاض عليهم ... وأبنـا بحمد الله بالعز والنصر
فان رغبت عنى سـعاد فاننى ... أشد على خطب الزمان من الصخر

---

(١) عرق اللوى اسم مكان فى بلاد عسير
(٢) الأسودان التمر والمـاء
(٣) سبق التعريف بهم

وإنى بحمد الله أرجى وأتقى ... وان جارت الأعداء فى طيشة العصر
ولى همة تعلو على كل همة ... تبلغنى المقصود إن مد فى عمرى
سلى إن جهلتى سيرتى وسريرتى ... فليس أخو جهل سواء ومن يدرى
وليل سريناه بأرض بهية ... فمن أين لى ليل يحاكيه فى عصر
وحولى اشياخ على كل سابح ... يرون لدى الهيجاء كالأنجم الزهر
رقوا من حصون المجد كل مشيد ... إلى أن روّا فوق الكواكب والبدر
ودانت لهم شرق البلاد وغربها ... وأسقو ملوك الأرض كأسا من الذعر
وكم من مليك غادرته سيوفنا ... قتيلا لدى الهيجاء للذئب والنسر
أتانا بقوم أهل بأس وقوة ... ولكن لقيناهم بقاصمة الظهر
طحناهمو طحن الرحا بثفالها ... ومن عاش من تلك الجنود ففى الأسر
ودار أخذناها وقد بزت الورى ... طلعنا عليها بالهلاك مع الفجر
محصنة أمست وهى مطمئنة ... عليها ثياب لا ترام من الستر
فذاقت عذاباً ما رأت قط مثله ... وألبسها قومى ثياباً من القهر
وقد كنت فى عرق اللوى أسعد الورى ... وحولى قوم يعرفون به قدرى
فطوراً ترانى رأس حصن مشيد ... وحينا بأبيات ترانى من الشعر
وطوراً ترانى بالثمارى (١) ... وتارة بخوبر (٢) بين الشيح والرند والنهر
ويوماً بأعلا شعب قارة طاب لى ... نعمت بغيد فيه كالأغصن الخضر
وقد طرزت كف الغمام رياضه ... بنبت نمى بين المسايل والوعر
فيا أيها الريح اليمانية أبلغى ... بنى عمنا منى سلاماً بلا حصر
فلولا هموا ما حزنى البين والنوى ... فانى على ضيم الزمان لذو صبر
ولولا إمام العلم والحلم والتقى ... لما هزنى صوت الحمامة والقمرى
أمام لقد أضحى وحيد زمانه ... هو الشيخ ابراهيم مرتفع القدر
أمام هدى من بيت فخر وسؤدد ... منازلهم فوق الكواكب والبدر

---

(١) مكان فى غربى ابها من منازل عسير (٢) اسم مكان فى جبل عسير

بهم أصبحت تلك الديار منيرة وأحيوابها تلك المساجد بالذكر
عليهم مدى الأيام منى تحية يفوق شذاها المسك والعنبر البحرى
لجسمى بمصر والفؤاد لديهم ودمع عيونى بل تسكابه حجرى
وأن جدبى شوقى فبينى وبينهم قفار ترد الريح منحطم الصدر
ولكننى أرجو الإله بمنة وفضل علينا يبدل العسر باليسر

وقف بنا القول فى حوادث عسير عام ١٢٣٣ هـ عند وفاة الشريف حمود ولم يتعرض صاحب سيرته لمن قام بالأمر بعده ، ولا ماذا كانت نهاية جيشه فى السراة مع كره العسيريين لأستيلائه عليهم ، والظاهر أن الجيش بعد أن فقد عميده ومبعث نشاطه وقوته ، ترك السراة لأهلها ، وكر راجعاً إلى تهامة وجاء فى تاريخ نجد لأبن بشر أن الذى تولى الأمر بعد الشريف حمود أبنه أحمد وانه وقع بينه وبين حسن بن خالد الحازمى وزير أبيه مشاجات ثم اصطلحا ثم سار اليهم خليل أغا بعسكر كثيف من الترك وانتهى الأمر بأن قبض خليل اغا على الشريف أحمد بن حمود ونفاه إلى مصر ثم مات خليل أغا (١) .

دام نفوذ السعوديين فى عسير من عام ١٢١٥ إلى عام ١٢٣٠ هـ أى خمس عشرة سنة ، وأمتدت إمارة بيت آل المتحمى ربيب السلطة السعودية والمرتكز على حمايتها ثلاث سنوات أخرى . فان محمد أحمد المتحمى هو ابن عم طامى بن شعيب ولم ينقطع تصرفه إنقطاعاً تاماً إلا باستيلاء الشريف حمود أمير أبو عريش على عسير فى سنة ١٢٣٣ هـ . ومن الحق أن تعتبر أمارة محمد أحمد المتحمى ، ذيلا لمدة سلطة السعوديين على عسير وإمتدادا لها فان إمارته نشأت وهم لا يزالون يقاتلون الجيوس التركية أو بتعبير أدق جيوش محمد على باشا والى مصر ، وفورة سلطانهم فى عسير ماتزال على حرارتها .

كما أننا لا نبتعد عن الحقيقة والواقع إذا اعتبرنا امراء آل المحتمى شبه مستقلين بالأمارة فى عسير رغم ماكان من نفوذ للسعودين فيها .

---

(١) تاريخ نجد لابن بشر ص ٢١١

فعصر محمد بن سعود وابنه عبد العزيز يكاد يكون عصر تمهيد وتوطئة لعصر الإمام سعود الكبير لأن معظم أعمالها فى الأماكن القاصية هى الدعوة ، ثم الغزو والعودة بخمس الغنائم [١] وعهد سعود الكبير وان كان على شيء من الاستقرار وبسطة السلطان ، فقد كان ينقصه الكثير من حسن الادارة والدقة والنظام [٢] وكانت السياسة العليا فيه لاسيما مع المناطق النائية والبعيدة عن مقر امارته كعسير مثلا سائرة على الأكتفاء بقبول الدعوة وإظهار الموالاه والأفراط فى محابات من كان لهم سابق شوكة فى البلاد ، أو من يتظاهر بصدق الولاء ، والقناعة بما يبعث به من الخراج والخمس فى المغانم ، والقاء حبل إدارة الداخلية على غارب من تسند اليه الأمارة يتصرف فيها كيف شاء .

(سياسية اللامركزية)

فكثيراً ما كان يشن أمراء عسير الغارة على من والاهم من القبائل وممالك اليمن من تلقاء أنفسهم وباسم الدعوة ، وقد يحصل نزاع بين أميرين يواليان آل سعود فيقاتل أحدهم الآخر ويغزو قبائله وقراه دون الرجوع إلى الدرعية إلا بعد الحادث كما يتبين ذلك مما سأقصه فى سيرة الشريف حمود لأنه ممن تملك عسير السراة لبضعة أشهر فلزاماً أن ألم بسيرته بعض الإلمام لا سيما وأنه كان شجاعاً فى الحرب وداهية فى السياسة فقد خضع للسعوديين وانضوى تحت لوائهم وعادى حكومة صنعاء ، ثم تفلت من السعوديين وصانع حكومة اليمن ثم صالح السعوديين وعاد فتنكر لحكومة صنعاء ونابذها وله مع الأمراء العسيريين وقائع ووقائع ومات ورايات النصر على رأسه تخفق ، كما يقول صاحب سيرته .

---

(١) تاريخ نجد الحديث صفحة (٥٥)

(٢) تاريخ نجد الحديث صفحة (٦٣)

سيرة الشريف حمود المعروف بأبو مسمار

كانت إمارة أبو عريش إلى عام ١٢١٣ وتتبعها صبيا مرتبطة أسمياً بحكومة صنعاء وكان الأمير على أبو عريش فى ذلك العام الشريف على بن حيدر الحسنى والمتنصب على صبيا ابن عمه الشريف منصور بن ناصر وكانت الدعوة الاصلاحية القائمة فى نجد قد تسربت فى هذه الأثناء إلى المخلاف فرحل إلى الدرعية من اشرافه المدعو أحمد بن حسين الفلقى للأخذ بهذه المبادىء الاصلاحية والدعوة السلفية فانتهز الأمير عبد العزيز بن محمد وصوله وأعاده رسولا يحمل منه لأشراف المخلاف وأمرائه كتابا بالدعوة جاء فى أوله « من عبد العزيز بن سعود إلى من يراه من أهل المخلاف السليمانى خصوصا الأشراف أولاد محمد بن حمود وناصر ويحيى وسائر إخوانهم وكذلك بنى النعمة أشراف تهامة وفقنا الله وإياهم إلى سبيل الحق والهداية وجنبنا وإياهم طريق الشرك والغواية وأرشدنا وإياهم إلى اقتفاء آثار العناية أما بعد فالموجب لهذه الرسالة أن الشريف أحمد بن حسين وصل الينا فرأى مانحن عليه وتحقق صحة ذلك لديه وبعد ذلك التمس منا أن نكتب لكم ما يزول به الاشتباه فتعرفوا به الأسلام الذى لايقبل من أحد سواه الخ .

جاء الشريف احمد بهذا الكتاب واستوطن أسفل وادى بيش عند بعض الأشراف من الجعافرة وأخذ فى نشر ما تعلمه من مبادىء الدين الصحيحة والدعوة إلى نبذ البدع والضلالات التى كانت فاشية فى المخلاف فانضم اليه خلق كثير من قبائل وادى بيش وقرى المخلاف مما أقلق بال أمير صبيا فكتب للشريف على بن حيدر أمير أبو عريش يخبره بجلية الحال ويدعوه للأخذ على أيديهم ، فلم يبادر أمير أبو عريش بالأجابة ، بل صبر إلى أن حل وقت الخرص والزكاة وأرسل اليهم من يخرص ثمارهم فطردوه وأبوا عليه ذلك .

عندئذ جهز جيشا لمحاربتهم وأرسل لأبن عمه الشريف حمود بن محمد ،

وكان إذ ذاك فى جهة تعشر [١] عند بعض أمواله ومزارعه ، ودعاه للمشاركة بعد أن كشف له تفاصيل الأمور ، قامت الحملة وخرج لمشاركتهم فيها أمير صبيا الشريف منصور بن ناصر وتمكنوا من العصاة وشتتوا شملهم وفرقوهم واستقرت الأمور فى تلك الجهة .

وبعد شهر من الحادث دب الطمع فى نفس الشريف حمود وتطاولت إلى الأستئثار بالأمارة وإنتزاعها من ابن عمه الشريف على حيد ولم تمض غير أيام قلائل حتى وثب ينازعه إياها ودام الحرب والقتال بينهما نحو ثمانية أشهر أنتهت بتنازل الشريف على بن حيدر للشريف حمود عن الإمارة وكتبوا لحكومة صنعاء بالواقع فأقرته وصدر المرسوم الإمامى بالموافقة على ماحصل وجاءته الكسوة والحصان على المراسيم المعتادة » .

فى هذه الأثناء كانت الدعوة السعودية المسلحة قد وصلت أطراف المخلاف . فقد وصل إلى درب بنى شعبة حزام بن عامر على رأس ستماية من العجمان وانضم اليهم عرار بن شار أمير بنى شعبة ، فانه كان قد استجاب للدعوة وتوجها جميعا إلى ضواحى صبيا يغيرون على ما هنالك من القرى فأنبرى الشريف حمود لمقابلتهم ورد عاديتهم ، وجرت حوادث يطول شرحها ، انتهت بتراجع المغيرين وفرار عرار ومن كانوا معه من العجمان .

غير أن الأمور والأحوال لم تعد تعرف الأستقرار والطمأنينة فان الغزاة من أهل المشرق ومن والاهم من القبائل القريبة من المخلاف لم ينقطعوا عن الأغارة عليه ومهاجمة ما حول صبيا من القرى مما اضطر معه أمير صبيا الشريف منصور إلى الانفصال عن ابن عمه أمير أبو عريش والانضمام إلى السعوديين وموالاتهم . وانتهى الأمر عندما تأمر عبد الوهاب بن عامر من طرف السعوديين على قبائل عسير السراة فى عام ١٢١٧ هـ واشترط عليه السعوديون محاربة الشريف حمود أن استسلم الشريف حمود نفسه وانضوى تحت لوائهم .

---

(١) واد بين المضايا وأبو عريش مما يلى الساحل :

كان الشريف منصور بعد أن انفصل عن الارتباط بأبو عريش أخذ هو وعرار بن شار أمير بنى شعبة يكتبان للامام عبد العزيز بالدرعية ويكبران له شأن أمير أبو عريش ويدعوانه إلى التعجيل بتجهيز حملة قوية تفل شوكته وتدخله فى الطاعة .

على أن الشريف حمود هو الآخر أخذ بعد انفصال ابن عمه منصور عنه يكتب إلى إمام صنعاء يستحثه فى إمداده بما يمكّن له من رد الأمير منصور إلى طاعته ودفع غزاة نجد عن بلاده فلم يحصل من حكومة صنعاء على طائل ، وكانت الدرعية أسرع إجابة لنجدة من يواليها فقد صدر أمر الإمام عبدالعزيز إلى الأمير عبد الوهاب أمير عسير بالتهيؤ لمقاتلة الشريف حمود وكتب لسائر من يواليه من أمراء تهامة بالنفير معه ، وأمده بعدد وافر من رجال نجد كما سبق القول بذلك وكتب لأمير وادى الدواسر وغيره من قبائل المشرق بالالتحاق بعبد الوهاب . حتى بلغ من انضم إليه من الجنود والمقاتلة نحو عشرين ألفاً .

زحف عبد الوهاب بهذا الجيش العرمرم دون أن يلاقى من أهل القرى الموالية لأمير أبو عريش غير التسليم والطاعة حتى خيَّمَ قبلى أبو عريش وعلى مرأى العين ممن فيه ، ثم بعث أحد الأشراف المناعمه ممن والاه فى زحفه بكتاب للشريف حمود يعرض عليه الدخول فى الطاعة ، ويحذره عواقب القتال فرفض الشريف هذا الطلب وأصر على القتال .

أشار عرار بن شار بعد امتناع الشريف حمود على الأمير عبد الوهاب بأن يجعل الحملة أولا على ديرة [1] الأشراف فانها كانت منحازة فى جانب من البلدة فاذا ما استسلموا وخضعوا انقاد بقية سكانها للطاعة من غير عناء ولا قتال .

---

(١) الديرة بمعنى الحـلّة مؤنث دير واحدالديور جرى الإستعمال فيها على غير القياس واستعمال هذه اللفظة فى ذلك شائع بين عرب الحجاز أيضا .

بلغ ذلك الشريف منصور أمير صبيا ، فانه كان مشاركا لهم فى هذه الحملة وعز عليه هذا الرأى حمية لذويه وعشيرته ، وما زال يفتل فى الذروة والغارب حتى حول عبد الوهاب عن هذا الرأى وأن يبدأ الحملة على البلدة أولا وكان من جملة ما أبداه أنه كفيل إذا ما فتحت البلدة أن ينقاد إليه الأشراف جميعهم وأن يدخلوا فى الطاعة .

وهكذا قدم ضعاف الرعايا المساكين طعمة للسيف ودرءاً للعنصر المالك المتحكم .

لاح فجر يوم الجمعة الخامس من شهر رمضان سنة ٢١٧ هـ ولاحت معه بوارق سيوف المهاجمين ودوى رعد بنادقهم ، وما أن كادت شمس ذلك اليوم تغرب حتى كان المهاجمون يجوسون الأزقة ويفترعون البيوت داخل البلدة واستحر القتل فى أهالى أبو عريش حتى سالت الدماء كالميازيب كما يقول صاحب سيرة الشريف حمود ، فان الجند وضعوا السيوف دون رحمة أو شفقة .

ويقول المؤرخ المذكور إن الشريف حمود قاتل فى ذلك اليوم قتال من يطلب الموت ويتمنى الهلاك .

(صلح واستسلام)

أمسى الليل وأرخى الظلام سدوله وانحاز من نجا من أهالى البلدة إلى ديرة الاشراف ، ولكن هيهات أن يكون قد بقى للأشراف عزيمة أو همة للقتال فقد تجمهروا يطالبون الشريف حمود أن يصالح القوم ويسالمهم ليصونوا دماءهم وحريمهم من مثل ما وقع فى أبو عريش .

أبى الشريف أول الأمر الاستجابة لما طلبه منه ذووه ولكنه عاد فوافق ، لأن الشريف على حيدر سلفه فى أمارة أبو عريش سارع بتقديم الطاعة للجيش المهاجم .

نخشى إن هو أصر على إبائه أن يسبقه بالزلفى فيضعف أمله فى استبقائه على أمارة أبو عريش وكان يطمع فى ذلك .

نزل الشريف على حكم الواقع وتقدم للأمير عبد الوهاب فى مخيمه خارج

البلدة . فلم يحفل به ما كاد معه أن يهم بالرجوع والنكول ، ولكنه تجلد وتقدم فبايع على الاسلام والتبرؤ من كل دين سواه ، وعلى السمع والطاعة لعبد العزيز بن سعود ومعادات من عاداه كما يقول صاحب سيرته .

تشعبت آراء من كان مع عبد الوهاب من رؤساء الجند وأمراء العشائر فى من يجعلونه أميراً على أبو عريش . وكان هوى كل واحد منهم مع من يتصل به ويرضاه من الأشراف ، فلم يسع عبد الوهاب إلا إسناد الأمارة للشريف حمود وتأييده فيها تخلصا من عواقب هذا الاختلاف . إلا أنه اشترط فى ذلك موافقة الأمام عبد العزيز ورضاءه به .

وجمع الأمير عبد الوهاب الأسلاب والمغانم وأخرج خمسها ثم وزع الباقى على جيشه ومن شاركه فى القتال وطوى خيامه وعاد أدراجه إلى السراة .

محاولة انتقاض فاشلة

لم يكن الشريف حمود صادق النية ولا سالم الطوية فى عهده ومبايعته ولا زال يأمل فى معاونة حكومة صنعاء له وأغاثته وتخليصه فأنتدب سراً صديقه وصفيه الشريف حسن بن خالد الحازمى وبعث به إلى الخليفة المنصور بصنعاء وأصحبه رسائل تتضمن حكاية الواقع ، فعل الشريف ذلك ، ولكنه نظر فوجد البلاد خراباً يباباً قد تفرق أهلها وذهب رجالها ، ولم يبق غير الخوافى من ذلك الريش ، فعزم على أن يتصيد ممن حوله من أهل القرى التى يرجع أمرها إلى حكومة اليمن ويدخلهم فى طاعته باسم الدعوة السعودية والإصلاحات الدينية ليعوض بذلك ما فقده .

أقام رسول الشريف فى صنعاء نحو ستة أشهر دون جدوى ولا فائدة فعاد أدراجه وكان الشريف قد توسع فى التسلط على بعض القرى والقبائل المجاورة وازداد نشاطه عندما رجع رسوله بالخيبة من صنعاء ، وتظاهر تظاهراً سافراً بموالاة الدعوة وولى وجهه شطر الدرعية وأمعن فى بلاد اليمن يغزو ويفتتح مستعيناً بمن كان يفد عليه بين الفينة والفينة من الغزاة من أهل

الأقاليم والوديان الشرقية لجبل السراة ومن ينضم اليهم من قبائل عسير للغاية نفسها ، لهم المغنم وله الاستيلاء والتسيطر وكل ذلك باسم الدعوة وفى طاعة الإمام . ولذا لم يقصر فى بعث البعوث وارسال الهدايا وأخماس المغانم إلى الدرعية مما جعل الإمام عبد العزيز يوافق على إجراءات الأمير عبد الوهاب من إبقاء الشريف حمود أميراً على أبو عريش ، ولكنه أوجب عليه أطاعة عبد الوهاب والنفير معه إذا دعت الحاجة ، فلم يرق ذلك للشريف حمود ، وكان شجاً فى حلقومه لأن الأشراف فى تهامة كانوا أولى حرمة وقدر عظيم يعيشون بين رعاياهم عيشة إجلال وتعظيم ، وكان أهل السراة فى نظر التهاميين بمنزلة الخدم لا يماشونهم فى شىء ولا يرون لهم ما يرونه لغيرهم من الحق ، لما كان عليه أهل السراة من الوحشية والجهالة ولأنه لم يسبق لهم منذ أجيال أن تكون لهم وحدة أو تجمعهم أمارة ولكنهم بعد أن أستجابوا لدعوة ابن عبد الوهاب عظمت هيبتهم فى الصدور ومع فتكاتهم ارتاع منهم الجمهور ، هكذا يقول مؤرخ الشريف حمود وصاحب سيرته .

الفرصة السانحة

قلنا أن الشريف حمود داهية وبهمة ، وقد هبت رياح الأقدار بما هيأ له نوال أمنيته من الإنفراد بالتصرف والخلاص من علاقته بالأمير عبد الوهاب أمير السراة فانه فى شهر رجب سنة ١٢١٨ ﻫ توفى الإمام عبد العزيز مقتولا .

فلقد أندس له فى مسجد الدرعية بين جمهور المصلين رجل من الروافض سكان العراق جاء إلى الدرعية متنكراً وبادر الإمام وهو فى الركعة الثانية أو الثالثة من صلاة العصر وطعنه طعنة أودت بحياته فمات ميتة عمرية وقام بالأمر بعده إبنه سعود المعروف بالكبير فانتهز الشريف حمود هذا الحادث واتفق وابن عمه الشريف منصور أمير صبيا بأن يسير منصور على رأس وفد إلى الدرعية لأداء واجب العزاء وتجديد البيعة والموالاة للأمام سعود

والتوسل بما فى الوسع للتخلص من الإرتباط بأهل السراة وأميرهم عبد الوهاب .

سار الوفد مزوداً بالنفائس من الهدايا وكان المنتدب فيه عن الشريف حمود وزيره السيد الحسن بن خالد فتلقاهم الإمام سعود بالترحاب والتكريم وأجابه إلى ما رغب ، وعاد يحمل من الدرعية الأوامر القاضية باستقلال الشريف حمود بكافة شؤونه مع ارتباطه المباشر بالدرعية .

كما منح الشريف منصور حق التصرف منفرداً فى إمارته لصبيا على أن يكون فيما يتعلق بالنفير للجهاد أو الغزو مرتبطاً بعبد الوهاب ومستجيباً إليه كلما دعاه لذلك. سر الشريف بهذا التفلت من نير عبد الوهاب والإستقلال بالعمل وقويت بذلك عزائمه فأخذ يمعن فى بلاد حكومة صنعاء غزواً ونهبا حتى امتدت فتوحاته إلى زبيد ، والمخا ، وبيت الفقيه [١] وغيرها بعد حروب ومخادعات وأحابيل كان يتخذها مع عمال حكومة صنعاء تجلت فيها عبقريته ودهاؤه وقد ذكر وقائعها صاحب سيرته بأسهاب يطول شرحه ولقد استغل الشريف حمود إرتكازه على نفوذ السعوديين وسطوتهم استغلالا واسع النطاق أيد به مصالحه الخاصة فقد ذكر صاحب سيرته فى نفح العود ما يأتى

« عندما كان الشريف حمود مواليا للسعوديين أثناء أقامته فى وادى « خلب » ورد عليه غزاة من المشرق ومن قحطان ومن الدواسر ومن شهران ومن العجمان ومن عسير ومعهم من الخيل والركاب ما ملأ الرحاب وأخبروه أن لهم إلى اليمن نفوذ وأنهم لا ينفذون إلا معه أو يصحبهم أحداً من خاصته وأصحابه

استكثر الشريف تلك العصابة وامتلأ بهم وطابه وعزم على الغزو بنفسه فنادى فى رجاله وعزم على من فى حياله وتوجه أميراً على تلك الجنود وهو يقصد اليمن وجل مقصده الحديدة وكتب إلى قاضيها وعاملها وكان القاضى يومئذ هو العلامة الكبير والمجتهد النحرير محمد بن احمد سحم من علماء السنة ومفاخر اليمن

---

(١) هذه الثلاثة المدن من مدن تهامة اليمن على مقربة من الحديدة .

وقد استوعبت ترجمته فى كتاب الوفيات لأنه عند هذه وقد درج إلى دار السلام واسكنه الله دار الرضا والإنعام ، وكان العامل الفقيه صالح بن يحيي الفلق العرشى ومضمون تلك الكتب دعوتهم إلى طاعته ودخولهم فى جماعة وإلا فقد أعذر من أنذر .

فتباطأ أهل الحديدة فى الجواب ورجع الرسول عارى الأهاب فتقدم فى آخر ذلك اليوم أصحاب الشريف على أهل الحديدة وخرج اليهم جماعة من الصومال والتوابع وبعض أهل البلد وحين رؤا أقبال القوم لبسوا ثياب الانهزام وبلغ هاربهم إلى البحر وانحاز الفقيه إلى القلعة الصديقية من أعظم معاقل الحديده معمور بالمدافع وآلات الحرب وضربت المدافع من جمع النوب وتقدم أصحاب الشريف إلى أن دخلوا أكثر البلد فبادر الفقيه باحراق البيوت الخوص « العشاش » وأضرم فيها النار حتى كانت ترى على مرحلتين

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر على عالى

ومع اضرام النار خرج أصحاب الشريف من البلد ورميات المدافع قد ازعجت أهل المخيم وأصيب الشريف بمسار وقع فى عرض ركبته ولم يؤثر أثراً كبيراً لأنه وقع بارداً(١)

خيبـــة أمل أو مجهود ضائع

كان الشريف يعمل أفكاره فى القدوم مرة أخرى على البلد

وأهل الحديدة فى تلك الليلة قد تراجع رأيهم بتسليم مال للشريف على أن يرحل عنهم وفى همهم أن يبعثوا اليه فى الصباح من يتوسط بتسليم المال فما راع الشريف إلا دخول رؤساء الغزو من النجود والدواسر وقحطان ومن معهم وهم يقولون « القبول يا شريف ما بق لناطمع فى هذه البلدة ما فيها إلا بندق ومدفع وحنا نريد الطرش من الإبل والماشية تريد الكسب والمغنم - فحاولهم الشريف على البقاء

(١) من هذا الحادث لقب الشريف حمود بأبو مسمار وأخذت شهرته من ذلك الوقت بهذا اللقب.

ولو تلك الليلة لعله ينقضى له بهم المرام فلم يسعدوه وهم الكثرة والوفرة وما وسعه إلا الشديد معهم والارتحال وارتاح أهل الحديدة من الحصار وما كانوا هموا ببذله من النضار وتوجه الشريف بتلك الغازيه إلى التحيته من قرى زبيد فدخلها القوم وانتهبوا ما فيها واستقر الشريف إلى أن غزا بعض الجند إلى اليمن وحصلوا على مرادهم من الهوش ثم قفل راجعا إلى الشام » .

حقد يثور

قلنا أنه لم يرق الأمير عبد الوهاب أمير عسير تفلت الشريف حمود من نيره واستقلاله عنه بالعمل وأحنقه توسع الشريف فى الجهات اليمانية وأمعانه فى غزوها منفرداً فلما توجه الأمير عبد الوهاب إلى الحجاز لمناوشة الشريف غالب وقتاله عندما نقض عهد السعوديين كما سبق القول بذلك عند الكلام على إمارته لعسير السراة كان فى جملة جيشه ثلة من جنود عرار ابن شار أمير بنى شعبه غضب عليهم عبد الوهاب لأمور أتوها وفى منصرفه من القتال وعودته إلى عسير سلب ما كان مع جنود عرار من خيل وسلاح وطردهم مهانين . بلغ ذلك عراراً فقاطعه وأخذ يعمل الحيلة فى استمالة قبائل ألمع (وقد كانوا يوالون عبد الوهاب) ويوقع بينهم وبين عبد الوهاب الفتن والخلاف وفطن عبد الوهاب لما يكيد له عرار فبادر بالضرب على يد من أنس منهم الغدر والإنقلاب من رجال ألمع وسحب بجنوده يقصد عراراً فى مقره من قرية درب بنى شعبة ، فلم يسع عرارا إلا الحرب بما استطاعه والالتجاء إلى حمى الشريف حمود ، فانتهز عبد الوهاب ذلك وزحف إلى الدرب وحرق ما كان فيه من حصون ودور لعرار ، ونهب ما بقى له من متاع وتقدم يتعقبه واعتزم أن يقاتل الشريف حمود إن هو أصر على حماية عرار والذود عنه ، فانه كان ممتلأ حقداً حتى على الشريف كما سبق القول .

الالتجاء إلى الدرعية

فى أثناء هذه الحوادث كان كل من عرار وعبد الوهاب والشريف حمود قد كتبوا إلى الدرعية يشكون بعضهم البعض

ومن التصادف أن رسل الأمير سعود بالأجابة على شكاواهم كانوا قد وصلوا ومعهم الأوامر بأن يقدم الجميع إلى الدرعية للفصل بينهم فاضطر الأمير عبد الوهاب أن يحجم عما انتواه وأن يعود إلى السراة ويتأهب للسفر إلى الدرعية استجابة لأمر الإمام

سافر عبد الوهاب إلى الدرعية وسافر أيضا الشريف منصور بن ناصر أمير صبيا وسافر معه عرار أمير بنى شعبة ولكن الشريف حمود لم يسافر بذاته بل ندب ولده وأرفق به وزيره الشريف الحسن بن خالد وأصحبهما من التحف والهدايا كل غال ونفيس .

نتيجة المحاكمة

وصل الجميع الدرعية وبعد أخذ ورد أدان الأمير سعود الشريفين وعراراً بالحجة وجعل الحق فى جانب عبـــد الوهاب ولكنه عفى وصفح ولم يسعف عبد الوهاب بأن يكون أمر الشريف اليه بل أبقى ما كان على ما كان غير أنه استبقى عراراً لديه بالدرعية وحجزه عن العودة إلى مقره .

الامام سعود

يستجيب لعبد الوهاب

لم يرض ذلك عبد الوهاب بل زاد فى حنقه وغيظه فأخذ يفتل فى الذروة والغارب لدى أهل الدرعية حتى أوجد الشك والريب فى اخلاص الشريف وأوغر صدورهم عليه. وفى ذلك الكثير من الحق فان الشريف حمودا لم يكن مخلصا إخلاص العسيريين للدعوة ولم يكن صادق الموالاه وقد جرت بعد ذلك حوادث وقضايا رجحت صدق أقوال عبد الوهاب فيه وصحتها . وكان من عادة الأمير سعود بعد فتح مكة أن يحج كل عام ويجتمع فيها برؤساء القبائل وأمراء العشائر من أغلب الجهات التى خضعت لسلطانه وفى منصرفه من عام ١٢٢٣ أمر عبد الوهاب بالتقدم لقتال الشريف حمود والأستيلاء على ممالكه إستيلاءاً تاماً وأمر أمير

قحطان وأمير شهران بالنفير مع عبد الوهاب وعين لمرافقة الحملة رجالا من خاصته وكتب للشريف منصور أمير صبيا يذكره بالعهود ويدعوه لمحاربة عمه الشريف حمود كما كتب للشريف على حيدر أمير « أبو عريش » السابق بمثل ذلك وصرح له بأنه سيجعله أميراً من بعده على « أبو عريش » .

لم يخف ذلك على الشريف حمود ، لأن الإمام سعودا قبل سفره من الدرعية إلى مكة كتب له يلزمه بضرورة الوصول إلى مكة ومواجهته بها ، ولكن الشريف لم يفعل ، بل ندب عنه ابن عمه الشريف يحيى بن حيدر ، ويقول مؤرخه فى رسالة نفح العهود وألق إليه (أى إلى الشريف يحيى) ، أن يتعرف له ما انطوى عليه سعود وأن يتصل بكبراء النجود فإن بق للمصانعة مجال فإنا لا نبخل بالكثير ، وإن لم يبق لذلك مشرع ولا للجميل مترع فمد إلينا وأسرع « وعند جهينة الخبر اليقين » فلاقى الشريف يحيى سعوداً ولمح فيه للعدوان بروقاً وسمع منه بالتوعد وعوداً وصادف الشريف غالبا أمير مكة السابق فأخبره جلية الخبر وأشار عليه بسرعة العود إلى المستقر » . وضح للشريف حمود أن القوم قد عزموا على انتزاع ملكه فأسرع بإبرام صلح مع إمام صنعاء على التخلى له عن بعض بوادى المخا ، وعلى أن يمده إمام صنعاء عند الحاجة بالجنود لمحاربة النجود وأن يكونا يداً واحدة عليهم ، وكان أول عمل أخذه بعد ذلك من دواعى الاحتياط أن بادر بضرب قبيلة الزرانيق فقد كانوا خارجين عن الطاعة وخشى أن يكاتبوا عبد الوهاب أمير عسير فتعظم بذلك المحنة ، ثم عجم عود ابن عمه منصور أمير صبيا وما زال يعمل حتى تأكدت له مناصرته إياه والانضمام إليه ، وكذلك فعل مع ابن عمه على بن حيدر فوجده ثابتاً على مؤازرته ، وصار يجمع الجند ويعبىء الجيش ويستعد للقتال .

بعـــد أن رجع عبد الوهاب من مكة أخذ فى جمع المقاتلة من عسير وقحطان وشهران ولحقت بهم عصابة من عدوان يرأسهم على بن عبد الرحمن

المضايفى أخو عثمان المضايفى العدوانى الذى انشق على الشريف غالب ووالى السعوديين وأعانهم على فتح مكة فى المرة الثانية .

بدء المعركة

(قتل عبد الوهاب واحتلال صبيا)

زحف عبدالوهاب بما جمعه من الجيوش والجند إلى أن وصل وادى بيش فالتقى بجيش الشريف حمود وقام القتال بين الجيشين وانتهت المعركة بتفرق جيش الشريف حمود وانهزام جنوده لا يلوون على شىء ولجأ هو ومن معه من الأشراف أهل الخيل إلى صبيا .

فى مساء ذلك اليوم الذى وقع فيه القتال جاء إلى الشريف منصور أحد الجنود بسلب فرس ممتاز قال إنه قتل صاحبها وانتزعه منها ، وتبين أنه سلب فرس الأمير عبد الوهاب نفسه ، عرف ذلك بمرآة كانت فيه يعرفونها من قبل فسر الشريف بهذا الواقع وكان له فيه بعض العزاء من الهزيمة التى لحقته فلم شعثه ورجع إلى « أبو عريش » لتحصينه وتقوية حاميته ، وظل الشريف منصور بصبيا مرابطاً فيها ، وعلم جيش عبد الوهاب بهلاكه فأجمع أولو الرأى منهم على إقامة بعض الأشخاص أميراً على الجيش ريثما يصل الخبر الدرعية فتعين من تشاء وزحفوا على صبيا لتعقب الأشراف بها والاستيلاء عليها ، وجرت مناوشات ومخاتلات أوجبت على الشريف منصور موالاة الجيش السعودى وأن يقطع علاقته بابن عمه الشريف حمود الا أن موالاته للجيش السعودى لم تدم طويلا واضطر أن يترك صبيا وأن يلجأ إلى « أبو عريش » فاحتل الجيش صبيا وترك بها حامية منه ورجع إلى السراة .

إمارة طامى بن شعيب

وصلت أخبار ما جرى ووفاة الأمير عبد الوهاب قتيلا إلى الدرعية فعين الإمام سعود طامى بن شعيب المتحمى أميراً على عسير وأكد عليه أوامره بمواصلة قتال الشريف حمود لاستئصال شأفته فاستمر طامى يتابع الغزو ومنازلة الشريف فى « أبو عريش » ولكن دون طائل فقد حصنها تحصيناً قوياً مكيناً فأصدر الإمام سعود أمره إلى عثمان المضايفى العدوانى أمير الحجاز من طرفه كما سبق القول بالسير لمساعدة طامى فى قتال الشريف حمود .

سار عثمان بجيش قدره صاحب سيرة الشريف بنحو خمسة آلاف مقاتل وبوصوله عسيرا انضم إليه طامى بما معه من مقاتلة عسير ونزلا من السراة يقصدان « أبو عريش » ، وقتال الشريف حمود ، وإذ ذاك كان قد وصل إلى الشريف عدد من رجال اليمن لمعاونته وبلغه أن الجيش الزاحف لمقاتلته وإن أشاع أن قصده التوجه إلى « أبو عريش » ، إلا أنه سيبدأ أولا بغزو وادى مور ثم العودة إليه فى « أبو عريش » فسارع لتعزيز حامية تلك الجهة ، ثم جهز ما استطاع تجهيزه من الجنود والمقاتلة وسار بهم يتتبع خطى الغزاة مترقباً رجوعهم إليه .

كان الأمر كما بلغ الشريف فقد سار الجيش أولا إلى جهة اليمن ونهب ما تمكن من نهبه فى وادى مور ثم عاد فاصطدم فى أثناء سيره بجيش الشريف فى مكان يسمى « بَرْبَرْ » بالقرب من وحله والتحم بينهما القتال كما سبق الإلماع بذلك عند الكلام على إمارة طامى بن شعيب على عسير

هزيمة الشريف حمود وهربه إلى أبو عريش

وبعد منازلة شديدة استحر فيها القتل فى كثير من أعيان الجيش وشجعانه انتهى القتال بهزيمة الشريف حمود وفراره إلى « أبو عريش » ، وعلى الرغم من

هزيمة الشريف وفراره فإن جيش طامى أصبح مما ناله من شدة القتال فى حالة من الوهن لم يتمكن معها من اللحاق بالشريف ومتابعته وتعقبه ، بل اكتفى رؤساؤه بما تم وقنعوا بما وصلوا إليه من المغانم وعادوا أدراجهم إلى السراة

على أن مناوشة غزاة نجد وأهل المشرق والعسيريين للشريف والإغارة على ممالكه لم تنقطع . فقد دخل عام ١٢٢٦ والحال مستمرة على هذا المنوال يغير الشريف على مخلاف صبيا وما جاوره (فقد انضم أهله إلى السعوديين) ويعود بالمغانم ويغير غزاة نجد على ممالك الشريف والقبائل الموالية له ويستلبون ما تصل إليه أيديهم ويعودون إلى السراة .

غير أنه فى أثناء ذلك سعى محمد بن على المنتسب إلى الإمام القاسم صاحب مدينة « صَعدَه » — وكأنه كان على ولاء للسعوديين ومصافاة لهم — بين الشريف والإمام سعود بالصلح بأن يتنازل الشريف عن دعوى حقوقه فى صبيا والمخلاف « يعنى مخلاف وادى بيش » ويعترف للسعوديين بحق التملك فيهما ويقدِّم دفعات من المال معلومة يؤديها للإمام سعود فى كل عام .

تم الصلح واطمأن بال الشريف من جانب السعوديين وحلفائهم العسيرين وتعرضهم له فأخذ ينشىء المزارع ويبنى المعاقل ويصلح ما أفسدته فى ممالكه الوقائع والحروب ، واستمر هذا الهدوء إلى عام ١٢٢٩ لأن السعوديين مع ما تم بينهم وبين الشريف من الصلح والاتفاق قد شغلوا بأنفسهم . فإن محمد على باشا والى مصر قد بدأ معهم القتال من عام ١٢٢٦ « سنة الصلح مع الشريف حمود » وتمكن فى عام ١٢٢٨ من انتزاع مكة والمدينة منهم وأخذ فى مطاردتهم داخل بلادهم كما سبق ذكر ذلك عند الكلام على إمارة طامى بن شعيب أمير السراة .

حكومة صنعاء تحاول اعادة نفوذها

لم تكن هذه الحوادث لتخفى على حكومة صنعاء وقد ساءها اتفاق الشريف مع السعوديين ومصالحتهم فانتهزت الفرصة وجهزت جيشاً عظيما لمحاربته واسترداد ما انتزعه منها من مدن تهامة اليمن وإعادة نفوذهم إلى إمارة « أبو عريش » .

سار الجيش اليمانى مسرعاً حتى وصل إلى مقربة من قرية « مختارة » وكان الشريف حمود يقيم بها إذ ذاك فبادر إلى جمع الجنود وبرز لملاقاتهم وترتبت الصفوف من الجانبين والتحم القتال واشتد النضال وانتهت المعركة بتزعزع قوى الشريف ووهنها ، فقد هلك الكثير من شجعان الجيش ونفق فيها من خيله نحو أربعين حصاناً .

تراجع كل إلى مخيمه ورأى الشريف أن لا طاقة له باستئناف القتال ، فأعمل الرأى والحيلة ودس إلى رؤساء الجند اليمانى « كما يقول مؤرخه » فى جنح الظلام من أوصل إليهم « البراطيل » التى كم انتفع بها من عليل وانتقع بها من غليل فنقضوا الخيام وعدلوا عما أتوا لأجله من طرف الإمام »

وبقية سيرة الشريف ونهاية أمره قد مرت فى تضاعيف الكلام على حوادث عسير السراة فى عام ١٢٣٣ عند الكلام على امارة محمد احمد المتحمى الرفيدى فلا حاجة إلى تكراره .

ويقول أحد مؤرخى حوادث الشريف ـ حسن بن أحمد بن عبد الله البهكلى فى تذييله لنفح العود فى سيرة الشريف حمود ـ وهو ممن أدرك آخر عصره وشاهد آثاره وبعض أعماله .

« استقصيت تواريخ من سلف ممن تملك هذا المخلاف السليمانى فلم أقف على أنه اتفق لأحد منهم ما اتفق لهذا الشريف أو بلغ مبلغه من العز والمنعة أو داناه ، فهو أول من استقل بالأمارة من أهل بيته ، وقد كان آباؤه وذووه

ولايتهم مستفادة من أئمة صنعاء وحكومتها وضرب باسمه سكة من النقود وتعامل بها أهل مملكته التى امتدت من أطراف مدينة حسين باليمن إلى جبل عسير بالسراة ، وإنه كان كريماً سخياً محباً للعلم والعلماء معظماً لهم ، وإنه وقف الكثير من أملاكه على المصالح العامة وأعمال البر والخيرات » .

أثر الدعوة الوهابيـــة

مما لا شك فيه أن اندفاع السعوديين من أواسط الجزيرة العربية ومد سلطانهم على معظم أطرافها قد نبه العرب من غشيتهم وما لحقهم من الخمود ، فانهم من أواخر الدولة العباسية أصبحوا كتلة مهملة فى المجتمع الانسانى ، لايعرف الناس عنهم إلا ما سطر فى كتب التاريخ من عهدهم السالف كما أزكى فيهم نار الحمية والأنفة من قبول نير الأجنبى ، فهذه قبائل عسير كانت قبل انضوائها تحت لواء السعوديين ودخولها فى جامعتهم على حالة من الهمجية لم تجعل لها مكاناً لأن تفكر فى أكثر مما يفكر فيه الفرد من الاهتمام بالمطعم والملبس ، وبعد أن انضوت تحت جامعتهم وأصاب الجامعة ما أصابها من الانهيار والتفكك ، وأراد الأجنبى أن يتسلط عليها أبت ذلك ورفضته بكل أنفة وإباء وناضلت عن سيادتها وحريتها بما استطاعت من قوة ولم تترك نفسها هملا كسابق العهد ، بل أخذت تنصب الأمراء وتتحد تحت لوائهم كما سأقصه عليك من سيرة أمراء عسير بعد انهيار الحكومة السعودية .

ولا يعيب هذا الأثر الحميد فى نفوس سكان الجزيرة وما هيأه فيها من الأنفة والتطلع للوحدة واستساغة مقتضياتها — ما صاحبه من إلهاب نار الحرب والفتن والقتال فى معظم أنحاء الجزيرة وما نشأ من ذلك من ويلات ومحن أصابت الكثير من قبائلها وسكان مدنها ـ فان محض الخير فى الدنيا من المستحيل وهل يسلم غيث من عيث (١) .

---

(١) تاريخ نجد الحديث للريحانى بتصرف

ولو قدر لهـذه الجامعة أن تزداد اتساعاً فتضوى تحت لوائها ما تبقى فى الجنوب والشرق الجنوبى من إمارات وولايات ، وظلت متماسكة متآزرة ولابس أولى الأمر فيها ما كان ينقصهم من المرونة ولين الجانب وحسن المدخل والتصرف [١] ، لأصبحت الجزيرة فى عز ومنعة وأصبح للعرب فى المحيط الدولى من عظيم الشأن ما يغبطهم عليه كثير من شعوب العالم ، ولعاد إليهم ما كان لهم من مكانة ونفوذ فى العالم الإسلامى .

فان الدعوة الإصلاحية الدينية التى نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب والتى آزرها آل سعود وكانت حجر الأساس فيما وصلوا إليـه والتى ماشت نفوذهم إلى ماوصل إليه سلطانهم جنباً إلى جنب — لم يقتصر أثرها والانتباه إليها على سكان الجزيرة وحدهم بل لفتت نظر علماء المسلمين وقادتهم فى سائر الأقطار إلى ما وصل إليه المسلمون من انحطاط وأصيب به الكثير منهم من انحراف عن تعاليم الدين وفضائله ومميزاته عن غيره من الأديان وعما كان عليه السلف الصالح ، فقام فى كل صقع من أصقاعهم دعاة مصلحون يرددون صدى ما سمعوه من قلب الجزيرة من الدعوة [٢]

---

(١) جاء فى كتاب جزيرة العرب فى القرن العشرين لصاحب المعالى وزير المملكة العربية السعودية فى لندن الشيخ حافظ وهبه قوله : « وقد بلغت الدولة فى أيامه « يعنى أيام سعود » الكبير أوجها وغايتها إلا أن أغلاطه السياسية والإدارية أوقعته فى مشاكل مع الأتراك والمصريين وشدته صرفت عنه القلوب وجعلت الناس يتهزون الفرصة للانقضاض عليه ص٢١٣» كما ذكر فى ص ٢٢٠ فصلا وافيا تحت عنوان : أسباب سقوط الدولة السعودية ، فليرجع إليه من شاء .

(٢) لقد أعقب ما قام به شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبدالوهاب من الدعوة إلى الرجوع لعهد السلف واطراح ما علق بالعقيدة الإسلاميه من أوضار وبدع دعاة عديدون ، فقـد قام فى الهند المرحوم نواب صديق حسن خان ملك بهوبال يدعو إلى مادعى إليه شيخ الاسلام ، وقام فى العراق علماء أفاضل من آل الألوسى منهم السيد نعمان الألوسى والسيد محمود الألوسى ، وفى الشام العلامة السيد جمال الدين القاسمى وفى مصر الشيخ محمد عبده ومن القادة السيد عبد الرحمن الكواكبى

ولكن اندفاع محمد على باشا والى مصر ذلك الاندفاع المجنون مسوقاً بما طاف فى رأسه من أحلام بإقامة امبراطورية عربية يكون هو على رأسها وتمكنه من القضاء على الدعوة والقائمين بها وحماتها فى مهدهم وتمزيق ما ائتلف من جامعة عربية صميمة خالصة ثم فشله فيما سعى إليه وتراجعه عما وصل إليه قد أوجد فى الجزيرة العربية من النكسة والتدهور ماضيق نطاق انتشار الدعوة الإصلاحية فى بقية أقطار المسلمين وأضعف سريانها

« قضاء من المولى العلى أراده »

وسبحانه لا معقب لحكمه له الأمر من قبل ومن بعد .

على أن العناية الإلهية قد احتفظت للجزيرة وما كان قد التأم من أجزائها فأمدت بعونها فى العصر الحاضر سليل آل سعود الأشاوس أسد الجزيرة اليوم وصقرها الغلاب جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود فعاد إلى الاجتماع ما كان قد تفرق من أجزائها ، وإننى أكتب هذا وعلم التوحيد الخفاق يرفرف على معظم ما وصل إليه نفوذ أسلافه وسلطانهم إن لم يكن على جميعه[1].

والله المسئول أن يوفق أمراء من بقى فى أطراف الجزيرة وحكامها إلى ما فيه اتحادهم وتآزرهم واجتماع كلمتهم ، لما فى ذلك من الخير والعز والمنعة لهم جميعاً .

= صاحب رسالة أم القرى والسيد جمال الدين الأفغانى رحمهم الله ، وتابع هؤلاء غيرهم وغيرهم فى معظم أقطار المسلمين ما نأى عن الجزيرة وما قرب منها مما يضيق معه النطاق عن ذكر أسمائهم وتعدادهم .

(١) كان الكاتب المشهور أمين الريحانى قد تصدى عقب الحرب العالمية الأولى التى نشبت عام سنة ١٩١٤ م لزيارة ملوك العرب وأمرائهم بقصد إصلاح ذات البين وإيجاد حلف بينهم يتضامنون به لدفع عادية الفرنجة وما أتوه فى أطراف الجزيرة من غصب واستعمار لبعض الأقاليم وبسط نفوذهم على البعض الآخر وألف عن مسعاه هذا كتابه « ملوك العرب » جاءت فى ختامه هذه الكلمة .

وأرى فى البلاد العربية اليوم أربعة ملوك كبار وأرى فى نفسية الرعايا رعاياهم =

عود على بدء

وقف بنا الكلام على حوادث عسير السراة عند ذكر استيلاء الشريف حمود عليها فى عام ١٢٣٣ ثم وفاته وما تبينته بعد ذلك من رجوع جيشه إلى تهامه .

ويظهر لى أنه من عام ١٢٣٣ لغاية عام ١٢٣٨ كانت عسير فضاً [١] ليس لهم أمير عام وكانت الحملات التركية أو بعبارة أصح — حملات محمد على — تترى على البلاد يشاركهم فيها أمير مكة حينئذ الشريف محمد بن عون وكان الرأى والتدبير فى مقاومة هذه الحملات مشتركا بين رؤساء القبائل بل كان العسيريون مغلوبين على أمرهم لسطوة الفاتحين وتتابع حملاتهم .

فقد قال مؤرخنا الذى أنقل عنه معظم حوادث عسير فى ذاك العصر فى مذكراته ما يأتى : « فى عام ١٢٣٤ دخل الترك أرض عسير « وحط[٢] » الشريف راجح فى قرية المغوث وفيها تولى ابن عون إمارة مكة واحتل طبب وانتشر البغى والفساد فى بلاد عسير وفى عام ١٢٣٥ عمر جدنا مسجد القرية « يعنى قرية رجال » وفى عام ١٢٣٦ ظهر أحمد باشا على عسير والملاحة فى السابع عشر من جمادى الآخرة .

= نصا على شخصية أولئك الملوك وشرحا على حالة تسود سياستهم فى البلاد
رعية الملك حسين تطيعه ولا تحبه .
رعية ابن سعود تطيعه وتحبه
رعية الامام يحيى تطيعة دون حب ودون خوف .
رعية الملك فيصل لا تخاف ولا تحب ولا تطيع إلا مكرهة
فمن من الملوك المذكورين فى شبه الجزيرة يستحق أن يسود ؟
وقد أجابت أحداث الزمن فى بعض أقسام الجزيرة على هذا السؤال :

(١) نفر متفرقون (٢) بمعنى عسكر ونزل .

وفى عام ١٢٣٧ أخرجَ سعيد بن مُسْلطْ ومن معه من بنى مغيد ومن معهم من رِجَالْ ألمع رتبة[١] الترك التى فى طبب وذلك فى شهر جمادى الأولى وأميرهم إذ ذاك هزاع ، استخلفه محمد بن عون على بلاد عسير وغزا وادى الدواسر[٢] فرجع سعيد بن مسلط من الطريق بعد خصمة شلش[٣] فيها الشريف بن عون على سعيد فرجع سعيد ورجع من معه من بنى مغيد ورجال ألمع وبعض علكم ومن شاء الله من عسير »

كان الشريف محمد بن عون حينما غزا وادى الدواسر جند معه لفيفاً من عسير فيهم سعيد بن مسلط فلما لحقه من الإهانة ما عبر عنه مؤرخنا بكلمة شلش رجع من الطريق غاضبا حانقا وذكر مؤرخنا أنه بعد عودته انتهز فرصة اشتغال الشريف محمد بن عون بغزو وادى الدواسر وهجم على الحامية وعلى الشريف هزاع فى طبب وأخرجهم منها وأحرق ما فيها من حصون وقصور .

فبلغ ذلك الشريف محمد بن عون فكر راجعاً إلى عسير حتى وصل قرية خميس مشيط وعلم سعيد بذلك فجمع الجموع ممن والاه من قبائل عسير وتقدم بهم لقتال الشريف محمد بن عون ورده والتقى الجيشان فى وادى عتود[٤] وبعد قتال عنيف قتل فيه الشريف هزاع الذى كان أميراً على طبب وأخرجه العسيريون منها كما سبق القول — انهزم جيش الشريف محمد بن عون فعاد أدراجه .

---

(١) بمعنى حامية (٢) وادى الدواسر من أودية شرق الجزيرة الجنوبى تَنْصَبُّ فيه عدة أودية من الوديان المنحدرة من سطوح جبال السراة الشرقية والدواسر أحلاف تنتسب إلى جزمى العرب قحطان وعدنان أنظر قلب جزيرة العرب ص ١٤٩ . (٣) شلش كلمة اصطلاحية ومعناها شوش عليه بما أغضبه وأثار حنقه وغيظه .

(٤) وادى عتود ينقسم قسمين قسم ينصب إلى الجهة الغربية من جبال السراة ويتصل بوادى ضلع المنحدر إلى درب بنى شعبة وقسم ينصب إلى الجهة الشرقية ويتصل بوادى شهران وهو المقصود هنا .

إمارة سعيد بن مُسلَطْ

فى هذه الموقعة ظهرت شجاعة سعيد بن مسلط ومهارته فى الحرب فأقامه العسيريون أميراً عليهم ، ودام القتال والمناوشة بعد ذلك بين سرايا الشريف محمد بن عون وبين العسيريين وعلى رأسهم الأمير سعيد بن مسلط دون طائل مما دعا أحمد باشا والى الحجاز من طرف محمد على عام ١٢٣٩ أن يتقدم بنفسه على رأس جيش رتبه وجاء به من طريق الساحل وعقبة شعار وتمكن من اقتحام جبل عسير وعَسْكَر فى قرية الملاحة .

فانبرى له العسيريون يقاتلونه ، وبعد وقائع كانت الحرب فيها سجالا انهزمت عسير ولجأ الأمير سعيد بن مسلط ومن معه من آل راجح إلى الأطوار [1] ، وسُمِّى يوم الهزيمة « بيوم زبران وذى أم سُنون » لكثرة ما استحر فيه من القتل بين الفريقين .

ظلت سطوة هذه الحملة مستمرة فى عسير إلى نصف العام ، وفى شعبان من العام نفسه اهتبل الأمير سعيد رجوع أحمد باشا إلى الحجاز فخرج من ملجئه بالطور ومدت له قبائل عسير يد المعاونة والمؤازرة فحاصر الحامية التى تركها أحمد باشا فى قرية طبب وانتهى الحصار بخروج الحامية منها صلحا واستيلاء سعيد عليها غير أن الشريف محمد بن عون لم يترك التعرض لعسير بالغزو والقتال ، فبعد أن تمكن الأمير سعيد بن مسلط من إخراج الحامية التى تركها أحمد باشا أعاد الشريف محمد بن عون الكرة للقتال عام ١٢٤٠ وعلم سعيد بذلك فانبرى لملاقاته قبل أن يصل حدود قبائل عسير ووقع بين الفريقين فى وادى شهران قتال عنيف انتهى بالصلح والمهادنة بينهم إلى عام ١٢٤٢ .

وفى هذا العام توفى الأمير سعيد بن مسلط بعد إمارة دامت نحو ثلاث

---

(١) الأطوار واحدها طور وهو رأس الجبل العسر المرتقى أو ما ارتفع منه وأشرف على غيره ويطلق على الجبل أيضا .

سنوات ونصف انحصرت كل جهوده فيها فى مقاومة الحملات التركية وحملات مواليهم أمير مكة الشريف محمد بن عون .

امارة على بن مُجَثِّل

وامارة سعيد هذه تعد مبدأ انتقال الإمارة العامة فى عسير من آل المتحمى من قبيلة ربيعة رفيدة إلى قبيلة بنى مغيد فقد قام بالأمر بعده ابن عمه على بن مجثل المغيدى[1].

كان هذا الأمير من المخضر مين الذين أدركوا عصر اتصال السعوديين بالبلاد وكان متشبعاً بمبادىء الدعوة الإصلاحية شديد الحرص والتمسك بها وحمل الناس عليها ، وكان مع ذلك على شيء من الدهاء وحصافة الرأى فجمع حوله العلماء وأرباب النفوذ فى عسير وأغدق عليهم العطاء والصلات ولأسلاف الحفاظية بعض سكان قرية رجال القدح المعلى فى إمارته ، فقد كان منهم الدعاة والوعاظ ومنهم القضاة فأشبهوا فى ذلك آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى عهد السعوديين .

وفوق هذا فانه كان سعيد الطالع ميمون النقيبة ، فقد فترت حملات

---

(١) مما وهم فيه المرحوم السيد محمود الألوسى فى كتابه تاريخ نجد قوله : إن مشايخ عسير على عهد السعوديين الأول من ألمع ، كما كان الشيخ سليمان سحمان فى تصحيحه فى التتمة التى ألحقها بالتاريخ المذكور أشد وهماً فقد قال الشيخ سليمان فى تصحيحه ص ١٢٤ وما بعدها . وليس الأمر كذلك فان ملوك عسير من مغيد ومغيد وعسير قبيلتا ألمع ومساكنهم وقراهم فى جبال تهامه بجانبى الخبت وأما القبيلة الثانية من عسير فهم مغيدوهم عسير السراة وهم قبائل شتى وملوكهم إذ ذاك من قبيلة يقال لها بنو مالك ثم مغيد ورئيسهم والقائم بأمرهم فى زمن الدرعية وهو عبد الوهاب أبو نقطة إلى آخر ما جاء مما لم يسلم من غلط وأوهام والصحيح فى ذلك كله هو ما ذكرته مما مر عليك من أول التاريخ .

محمد على وضعف تعرضه لعسير وتقاصرت مطامع أمير الحجاز الشريف محمد ابن عون عن التوسع فى مد نفوذه إلى عسير .

لأن محمد على باشا فى ذلك العهد انتقض على الحكومة العثمانية وقلب لها ظهر المجن واشتغل عن عسير بزحفه على سوريا وفلسطين بل لم تقتصر أعماله الجريئة عليهما فانه استمر زاحفاً فى قلب الأناضول إلى أن وصل قريباً من كوتاهية ، فخلا الجو للأمير على ، وكان أول عمل له فى عام ١٢٤٣ أن غزا قبيلة عبس[1] وشاطرهم أموالهم ، ثم غزا بعد ذلك صبيا فاستولى عليها وأخرج من بها من الترك وعرج على « أبو عريش » للاستيلاء عليه وكان أميره إذ ذاك الشريف على حيدر ، وبعد أن اصطفت جنود الفريقين للقتال توسط بعض الرؤساء بينهما بالصلح ورجع الأمير على إلى السراة مكتفياً بما تم له من الاستيلاء على صبيا .

وفى عام ١٢٤٤ لم يذكر مؤرخنا قيام الأمير على بشىء من المغازى[2] . أما فى عام ١٢٤٥ فقد غزا قبيلة وادعه[3] وأدخلها فى طاعته بعد حرب

---

(١) قبيلة عبس من سكان شرقى وادى مور وهو واد يبعد عن « أبو عريش » بمرحلتين وجنوباً منه .

(٢) مما ذكره فى حوادث هذا العام قوله وفيه قدم إلى اليمن العلامة المجمع على ولايته السيد احمد بن ادريس المغربى وأمير أبو عريش حينئذ الشريف على حيدر وهو يخالف ما ذكره صاحب كتاب قلب جزيرة العرب من أن مجىء السيد أحمد المذكور كان فى عام ١٢٤٦ فى زمن إمارة الحسين بن على حيدر ، والسيد أحمد الادريسى هو جد السادة الأدارسة الذين تأمروا على صبيا وما جاورها عام ١٣٢٦ انظر الرحلة ص ١٣٩ عند الكلام على صبيا .

(٣) وادعة قبيلة ترجع فى همدان وتسكن وادى الظهران ـ ظهران اليمن ـ مما يلى الحدود اليمانية فان منازلهم تمتد إلى ممالك إمام صنعاء .

وقتال عظيم . وفى عام ١٢٤٦ [١] غزا إلى جهة اليمن واستولى على جميع بلاد الكلفود [٢] وما حولها وهدم ما فيها من القباب والقبور والحصون ورتب أمورها وبعث إليها بالعلامة الشيخ عبدالرحمن الحفظى مرشداً ومعلماً لأهلها

العساكر الالبانية فى أبو عريش والحديدة

وفى عام ١٢٤٧ غزا حباطة بيش [٣] فاستولى على عريان جبل القهر وقبيلة الصهاليل [٤] وفى عام ١٢٤٨ توجه مرة ثانية لحصار « أبو عريش » فصالحه أهلها على الطاعة وصار أمرها إليه وعاهده أشرافها على ذلك ، وقد كان أكبر عون له فى الاستيلاء على « أبو عريش » وجود ثلة من العساكر الألبانية التى قدم بها محمد على باشا فى أثناء أعماله الحربية فى الحجاز ، وهؤلاء الجنود نشأ منهم فى الجهات الحجازية واليمانيه كثير من المفاسد والمحن والاضطرابات ولا يزال فى شيوخ مكة من يروى عن أبيه ما سمعه من حوادث هؤلاء الجنود وتعرضهم للاهالى بالأيذاء وفسادهم وعبثهم (٥) .

وقد كان سبب مجىء هذه الشرذمة منهم لتهامة عسير أنهم فى تلك السنة ثاروا على أولياء الأمر فى الحجاز ونهبوا مااستطاعوا نهبه من المؤن والذخائر

---

(١) مما ذكره مؤرخنا فى هذا العام ظهور وباء حصلت شدته فى مكة مما ألجأ كثيرا من الحجاج إلى العودة دون أن يتمو مناسك الحج

(٢) الكلفود كان شيخا لقبائل صليل من قبائل وادى مور تسكن غرب الوادى فى تهامة اليمن .

(٣) حباطة بيش يعنى صدر وادى بيش ، والقهر جبل هناك فى غاية المنعة عسر المالك

(٤) الصهاليل قبيلة تسكن صدر وادى بيش والقهر معروف بهذا الاسم من القديم ذكره البكرى فى معجمه على أنه موضع وأنشد فيه قول مزود بن ضرار

وشبت لنا ناران نار برهوة   ونار بنى عبد المدان لدى القهر

ج ٣ ص ١١٠٠   (٥) ويسمهم أهل مكة الأرانطة

واستولوا على بضعة مراكب وسفن شراعية وخرجوا بها إلى السواحل اليمانية يعيثون فيها بالشر والفساد (١)

وصادف أن وصولهم إلى ضواحى أبو عريش كان أثناء محاصرة الأمير على لها فرأى كبيرهم الذى سماه مؤرخنا « تركى بن الماز »(٢) أن ينحاز بجماعته

---

(١) ذكر صاحب كتاب جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٥٩ أن محمد على باشا والى مصر راى فى الإذعان لأوامر الباب العالى لمحاربة آل سعود ثلاث فوائد كبرى لنفسه :

الأولى : أنه يبعد جيشه الألبانى غير المنظم والذى أكثر التمرد والعصيان والفساد فى مصر ليتمكن أثناء غيابه من تنظيم جيش مدرب على الطريقة الحديثة

الثانية : أن يأخذ من الدولة الأموال اللازمة التى كان فى حاجة اليها بحجة لزومها لنفقات الحرب المقدسة

الثالثة : ان هذه الحرب تجمع عواطف المسلمين فى العالم على حبه وولائه بصفته منقذ الحرمين ومعيد مناسك الحج

(٢) جاء فى كتاب تاريخ العرب للمستشرق ل . أسيديو ترجمة عادل زعيتر ص ٥١٨ قوله ولما كانت سنة ١٨٣٢ م وكانت العلائق بالباب العالى مقطوعة حاول تركى اسم « تركجه بيلماز » « يعنى لايعرف التركية » أن يثير قبائل العرب فطرد من الحجاز وفر إلى صميم اليمن باحثا عن ملجأ له فى المخا »

وذكر الرافعى فى كتاب « عصر محمد على » أن تركى بلماز هذا تحصل من بعد الفتنة التى أحدثها هو وزميل له اسمه زنار أغا على فرمان من الباب العالى يقره على ولاية الحجاز نكاية فى محمد على . وان حملة مصرية بقيادة أحمد يكن باشا والى الحجاز من طرفه قوامها ٤٠٠ جندى سارت من ينبع واحتلت جدة فانهزم تركى بلماز إلى السواحل ولم يقو على الاستيلاء على القنفذه وإخراج حامية محمد على منها فاستمر منهزما إلى الحديدة إلى أن استقر فى المخا ولم يقو إمام صنعاء على رده فعهد محمد على إلى أحمد باشا يكن والى الحجاز بمطاردته ففى عام ١٨٣٣ سار إليه فى خمسة عشر ألف مقاتل وكان شيخ العسير مواليا للجيش المصرى فحاصر المخا حتى فتحها عنوة وهرب تركى بلماز إلى بعض السفن البريطانية وبذلك انتهت الفتنة ولكن شيخ العسير نهب المخا ونهبا مدمراً فبارت تجارة الهند عدة سنوات ص ٢٧٧ و ٢٧٨ نقلا عن مانجان — ج ٣ - ٦٤

إلى الأمير على بن مجثل ويستند فى حركاته وأعماله إليه واتفق معه على ذلك وأعانه على غايته فى أبو عريش .

وبعد أن أحتل الأمير على أبو عريش صلحا بنى فيها معقلا للحامية سماه « دار النصر » وعقد اتفاقية أخرى مع تركى بن ألماز ومن معه من الإرنؤود « الألبان » بأن يغيروا على سواحل اليمن الأقصى وما جاوره من المدن وعاهدهم على الأسلام ـ كما يقول مؤرخنا ـ وعاهدوه ثم قفل راجعاً أى السراة ،

بعمله هذا صاد عصفورين بحجر واحد ، أبعد هؤلاء المغيرين عما يرجع إليه امره من القرى والدساكر ، ودفعهم كممهدين لما ينويه من التوسع والفتح فى الجهات اليمانية .

سار هؤلا . الأرنؤود يعيثون فى سواحل اليمن بالنهب والإفساد وتم لهم فتح الحديدة والمخا وزبيد وما حولهما من القرى ولكنهم بعد أن استقر بهم المقام نقضوا العهد وتمردوا على الأمير على بن مجثل وانحرفوا عما أجراه معهم من إتفاق وكثر فسادهم مما دعى الأمير عليا أن ينبرى لقتالهم ورفع يدهم عما أحتلوه من بلاد فغزاهم كما يقول مؤرخنا بجنود لاقبل لهم بها وأخرجهم منها وهم صاغرون .

أما الحديدة فقد جنح من كان بها منهم للصلح سريعا واما المخا فلم يستول الأمير عليها إلا بعد ملحمة وقتال عنيف وكذلك كان الحال فى زبيد .

بعد أن أتم الأمير على عملياته الحربية أقام محمد بن مفرح نائباً عنه فى الحديدة وتلك الجهات وترك معه حامية نحو أربعمائة من رجالات عسير وعاد راجعاً إلى السراة . وفى أثناء رجوعه طرقه مرض ثقل عليه وأعجزه عن الركوب ومواصلة السير فصنع له تابوت حمل فيه إلى أن وصل إلى مقره بعسير وبعد شهر من وصوله وافته منيته فمات فى ١٢ شوال سنة ١٢٤٩ .

يقول مؤرخنا كان الأمير على محسنا فى إمارته قضى فيها سبع سنوات

كلها خيرات وبركات وكأن الناس حين مات لم يصابوا بمثل مصيبته فى موته من شدة ما نالهم من الجزع والحزن عليه .

عهد الولاية أو امارة عايض بن مرعى

لم تكن الإمارة فى عسير فى ذلك العهد تعرف شيئاً من تقاليد توارث السيادة ، بل كانت حقا تسند إلى القوى الشجاع من أهلها كما سبق القول .

إلا أنه فى هذه المرة جد مع ذلك شىء آخر هو عهد الولاية والوصاية بالإمارة ، يقول مؤرخنا إن الأمير علياً رحمه الله قبل موته أوصى أن يكون الأمر بعده للأسد الضرغام عايض بن مرعى ، فبايعه الناس واجتمعوا على طاعته ، وكان ذلك نهاية عام ١٢٤٩ .

والأمير عايض هذا هو جد أسرة آل عايض وإمارته لم تخرج عن كونها إمارة مغيدية فانه من آل يزيد الراجعين فى بنى مغيد[1] .

كان أول ما واجه الأمير عايض من المشاكل بعد أن تأمر — انتقاض الشريف على بن حيدر صاحب أبو عريش ، فتجهز إليه غازياً وحصل بينهما قتال فى أيام عيد النحر فى ساحة أبو عريش رجع منه الأمير عايض دون أن يحصل على الغاية من رده إلى الطاعة مع أن حامية عسير كانت لا تزال تعتصم بمعقل دار النصر الذى أنشأه الأمير على بن مجثل غير أنها بعد أن

---

(١) وهم الريحانى فى تاريخ نجد الحديث صفحة ٢٦٩ فيما ذكره عن الأمير عايض بأن إمارته كانت على عهد سعود الكبير ، فسعود الكبير توفى عام ١٢٢٩ والأمير عايض لم يتأمر إلا فى عام ١٢٤٩ أى بعد عشرين عاماً من وفاته ، كما وهم صاحب كتاب قلب جزيرة العرب بجعل الأمير عايض من عشيرة آل أبو سراح مع أنه لا يتصل بآل أبو سراح إلا فى مغيد وآل أبو سراح كان منهم الوزراء لآل عايض ويعرفون قديماً بآل زيدان ، ولكنه صحح ذلك فى كتابه فى بلاد عسير صفحة ١٠١ .

كف الأمير عايض عن القتال لم تر فى بقائها فائدة ، فصالحت الشريف على بن حيدر وخرجت من أبو عريش . ويقول مؤرخنا إن ذلك حصل غدراً وخيانة من رئيس الحامية المدعو « مخرم » لأمر قام فى نفسه وأمنية لم تتحقق له .

اشتد ساعد الأمير على بن حيدر وقوى عزمه فانقض على حامية عسير فى صبيا من الأشراف الحوازم وأخرجهم منها ، ورتب فيها حامية من طرفه من بعض الترك[1] .

الزحف التركى على عسير

قال مؤرخنا : وفى شهر صفر سنة ١٢٥٠ توجه الترك إلى بلاد عسير بعساكر قوية ومعهم قوة على رأسها الشريف محمد بن عون ومعه دوسرى وكان مجيئه عن طريق بيشة ، فلما وصلوا إلى بلاد شهران خرج إليهم الأمير عايض بقبائل عسير وحصل بينهما القتال فى وادى عتود[2] وسرعان ما لحقت الهزيمة بقبائل عسير وتراجع الأمير عايض إلى السقا[3] واحتل الجيش التركى أبها وخيم دوسرى فى طبب غير أن بقاء هذا الاحتلال لم يطل ، فقد أعاد الأمير عايض الكرة بالقتال وكان النصر حليفه فأخلى الأتراك أبها وتراجعوا عنها وخرج دوسرى من طبب .

---

(١) لعل بعض هؤلاء الترك هم من الألبان الذين انداحوا على السواحل اليمانية على شاكلة ما حكيناه عن تركى بن ألماز مع الأمير على بن مجثل ص ٣٧ .

(٢) عتود ـ واد شرقى أبها بينها وبين قرية خميس مشيط وهو قسم من وادى عتود الغربى المنحدر إلى درب بنى شعبة . فهو واد ذو طرفين طرف ينحدر شرقا وطرف ينحدر غربا كما سبق القول .

(٣) السقا ويقول لها العسيريون أم سقا ـ قرية جنوب السودا وعلى مسافة ثلاث ساعات من أبها وثلاث ساعات من السودا أيضا .

لكن تقهقر الأتراك لم يكن نهائياً بل انسحب بعضهم إلى باحة تنومة من بلاد بنى شهر[١] ورابط فيها وانسحب بعضهم إلى تهامة واستقر فى ثغر القنفذة[٢].

ولم تقتصر الأعمال الحربية التى قام بها الترك على عسير السراة وحدها، بل إن حملة أخرى سيرت على تهامة اليمن والحديدة اضطرت الأمير محمد بن مفرح نائب الأمير عايض أن يصالحهم على إخلاء الحديدة وما جاورها على أن يخرج بما فى يده من مال وسلاح.

قلنا إن الأتراك لم يكن تقهقرهم نهائياً، فإنهم بعد أن استقروا فى ثغر القنفذة وباحة تنومة وتم لهم طرد حامية عسير من الحديدة — أخذوا يعدون العدة للكرة على عسير، ففى نهاية عام ١٢٥٠ زحفوا على عسير زحفاً عاماً من عدة جهات. ويقول مؤرخنا[٣]: «زحف الترك من كل حدب وصوب وتفرقت بهم السبل فى زحفهم هذا تفاخراً وتكاثراً فمنهم من

---

(١) بنو شهر قبيلة عظيمة سبق القول عنها، وباحة تنومة رقعة فسيحة فى منازلهم انظر صفحة ١٠٨

(٢) ثغر القنفذة على البحر الأحمر يبعد عن مكة بثمانية مراحل، وقد كان الحد الفاصل لنفوذ الأشراف أشراف مكة من «الساحل».

(٣) مما ذكره مؤرخنا فى مذكراته من حوادث هذا العام أنه حصل قحط عظيم حتى هلكت المواشى ولقى الناس منه شدة عظيمة لا سيما البادية لولا أن لطف الله بالناس. وجلب إلى عسير الارز، وإليه نسب الناس تلك السنة فقالوا سنة الرز ولم يكونوا من قبل يألفون أكله حتى إن بعضهم كان يخاف ان يأكله، ولا عجب فإن نفس المرء تعاف ما لم تكن تعرف ولم يكن بأرض قومها وأيضا في العشر الأواخر من شهر جمادى من هذا العام ظهر نجم ذو ذنب أبيض طويل ظهر من جهة المشرق بدأ أولا من جهة مغرب بنات نعش الكبرى ثم فى كل ليلة يطلع القهقرى إلى أن طلع أخيراً من جهة اليمن (الجنوب) مما يلى مغرب الشمس فى الشتاء ودام ظهوره ٢٥ ليلة.

أخذ الطريق إلى بلاد شهران[١] ومنهم من جاء عن طريق الخسعه[٢] ومنهم من حط درب بنى شعبة ، أما الشريف محمد بن عون فأخذ طريق الحجاز إلى أن وصل السقا[٣] وأما دوسرى وإبراهيم باشا فجاءا من طريق الساحل حتى حطوا بالشعبين[٤] . لم يصل الشريف محمد بن عون السقا ولم يصل دوسرى وإبراهيم باشا الشعبين إلا بعد حروب يطول شرحها .

منها أن الترك أحرقوا قنا[٥] وانتهبوها دون شفقة أو رحمة ، وأعانهم على ذلك بنو ثوعه[٦] وأهل ختارش[٧] واتخذوهم أولياء من دون المؤمنين ، ومنها أن قبائل ألمع وأهل رجال لما تيقنوا وصول الترك إلى محايل[٨] بعد حرقهم قنا خندقوا أسفل وادى حلى ورابطوا عنده وعليه تعاهدوا فما إن أتاهم العدو حتى شردوا وأخلفوا ما عاهدوا الله عليه » ، إن كانت بقية الوقائع التى جرت على نسق ما قصه مؤرخنا فهى هزائم سترها لا حروب يطول شرحها .

انتهى عام ١٢٥٠ ودخل عام ١٢٥١ والحرب قائمة بين عسير وبين الأتراك يناوش كل منهما الآخر فى حصونه ومعاقله . وفى مستهل صفر

---

(١) شرقى أبها .

(٢) الخسعة ساحل على مقربة من ثغر القحمة وحط بمعنى عسكر كما سبق القول .

(٣) قرية أم ـ سقا سبق تعريفها .

(٤) الشعبين قرية من وقرى ألمع انظر الرحلة ص ٦٧

(٥) قنا اسم قرية باسم الوادى جميعه جنوبا عن محايل وأسفل عنها .

(٦) بنو ثوعه قبيلة تسكن جنوب محايل فى وادى حلى انظر الرحلة ص ١٠٠

(٧) أهل ختارش سكانه وختارش اسم مكان فى أول وادى حلى مما يلى الشعبين

(٨) محايل قرية انظر الرحلة ص ١٠٠

بعث الأمير عايض بسرية إلى من بالسقا من الحامية التركية من جهة جر العزيزة(١) أثخنت فيها قتلا وأسراً وكانت أعمال تلك السرية أول انتصار لعسير بعد التخاذل . فانه بعد ذلك بأيام أغار بعض قبائل ألمع على منازل ربيعة رفيدة(٢) وهم يومئذ عون للعدو وفتكوا فيهم وفى الحامية التى لديهم من الترك فتلاحق فئة من الترك بالمغيرين من قبائل ألمع إلى وادى كسان(٣) وإلى جهة القويد(٤) ولكن دون أن ينالوا منهم شيئاً ، بل تراجعوا بلا طائل ونشطت قبائل عسير بعد ذلك بالإغارات المتكررة على مراكز الترك ومقر حامياتهم مما أدى إلى انسحاب الجيش التركى وتراجعه إلى خارج حدود قبيلة عسير بل وما بعدها .

فقد قال مؤرخنا : إن هزائمهم (يعنى الترك) ما زالت تتوالى ، فيوم الخميس هربوا من الشعبين ويوم الجمعة هربوا من السراة ومن محايل ولم يأت يوم الأثنين إلا وقد غنمت جميع مطارحهم(٥) واستولى عليها العسيريون الا مركز تنومة(٦) فان حاميته ظلت به إلى شهر ربيع الآخر ثم خرجت منه صلحاً .

---

(١) مكان-ويقال له اليوم العزيزة على مقربة من السقا فيما بينها وبين قريه السودا .

(٢) ربيعة رفيدة إحدى قبائل عسير الأربع وفيهم كانت الإمارة على عهد السعوديين الأولين انظر الرحلة ص ٥٠ .

(٣) وادى كسان يمتد بقدر ومرحلة وفى صدره مما يلى عقبة رز تقوم قرية رجال انظر الرحلة ص ٦٩ .

(٤) القويد اسم مكان من منازل قبيلة ألمع .

(٥) مطارحهم يعنى بها معسكراتهم .

(٦) تنومة باحة فى بلاد بنى شهر انظر الرحلة ص ١٠٨

تراجع الجيش التركى وأسبابه

ويظهر لى أن تراجع الجيش التركى أو جيش محمد على وانسحابه هذا يرجعان إلى أسباب تعود إلى السياسة العليا فى إدارته ، فقد جاء فى كتاب قلب جزيرة العرب نقلا عن «هوغارث» أن خلافاً نشب بين الشريف محمد بن عون وبين أحمد باشا مندوب محمد على باشا بسبب رغبة الشريف فى بسط نفوذه على بعض القبائل فى عسير وأن محمد على أمره بالتوجه إلى مصر مع الباشا فقدمها عام ١٢٥٢ وظلت مكة مدة بدون شريف(١) .

استقرار وتوسع

وبسبب هذا الخلاف فترت الحملات على عسير نحو ثلاث سنوات من عام ١٢٥١ إلى عام ١٢٥٤ ، فتفرغ الأمير عايض إلى بعض الإصلاحات الداخليـــة فحفر بئراً فى ساحة الناظر « محلة مناظر إحدى محال قرية أبها الآن » وعمر فيها أرضاً زراعية فائقة .

واستنفر طائفة من أهل السراة ومن تهامة ليتفقهوا فى الدين بعد أن قرر لهم عطاءاً يعينهم على طلب العلم ، فمكثوا فى المدرسة الحفظية بقرية رجال مقر العلماء الحفاظية نحو ثلاثة أشهر .

وفى عام ١٢٥٢ غزا بيشة النخل(٢) وصلح أمره بها وأقام فيها نحو شهر ثم عاد ، وفى أواخر العام بعث الأمير عايض سرية على رأسها ابن معدى

---

(١) قلب جزيرة العرب صفحة ٣١٤ .

(٢) بيشة النخل ـــ قسم من وادى بيشة يبتدئ على ما جاء فى كتاب (بلاد عسير) من مكان يسمى واعر فما قبله يطلق عليه بيشة بن سالم من أعلاه ووادى شهران وبن هشبل من أسفله ومن رغب زيادة فى التفصيل فليرجع إليه فى صفحة ٥٤ .

إلى درب بنى شعبة ليحرسوه من « يام[1] » ، فانها انحدرت مغيرة على المخلاف السليمانى وأحدثت فيه فتنة عظيمـــة ونهبت منهما لا يحصى من الأموال لكن الله انتقم منهم « كما يقول مؤرخنا » لأنهم بعد أن نهبوا من أطراف المخلاف ما نهبوا عسكروا فى ساحل[2] صبيا فسلط الله عليهم الترك وأعداءهم فهجموا عليهم فى أيام عيد النحر وأمعنوا فيهم قتلا ، وشفى الله صدور قوم مؤمنين ، ولله فى إيقاد العداوة بينهما حكمة بالغة » .

الجيش يتدخل

وفى عام ١٢٥٣ غزا الأمير عايض « غامدا[3] » و « زهران[4] » وأدخلهما فى طاعتـه فأثار ذلك حفيظة أحمد باشا مندوب محمد على باشا فى الحجاز وخشى استفحال هذه الغزوات وامتدادها ، فجهز جيشا وسار به عن طريق السراة فاسترجع بلاد غامد وزهران وطرد منها حامية عسير .

أثارت هذه الأعمال الأمير عايض وآنس فى نفسه القوة والقـدرة على قتال جيش أحمد باشا وإبعاده عن غامد وزهران ، فأخذ يجمع الجنود ويجهز القبائل إلى أن بلغ جيشه على ماقدره مؤرخنا ، عشرين ألفا ، وسار به لملاقاة الجيش المحتل .

---

(١) يام — يطلق على عدة قبائل تسكن وادى نجران وما حوله انظر كتاب فى بلاد عسير فإن فيه تفصيلا ص ١٧٦ .

(٢) ساحل صبيا شمالى جيزان وعلى مقربة منها يسكنه قبيلة الجعافرة .

(٣) غامد — قبيلة من سكان جبال السراة تبعد عن الطائف بست مراحل حضرها من أنور قبائل السراة ، يكثر بينهم من يحسن القراءة والكتابة وفيهم نشاط للكسب والعمل .

(٤) زهران — قبيلة من سكان جبال السراة يحدهم من الجنوب غامد .

هزيمة منكرة

وفى يوم السبت ١٧ صفر سنة ١٢٥٤ التقى الجيشان فى باحة رغدان[١] من بلاد غامد ، وما إن بدأ القتال بينهما بقدر رمية أو رميتين — كما يقول مؤرخنا — حتى تداعت رايات المسلمين — يعنى قبائل عسير — وانهزموا شر هزيمة وهذا يشعر على ما اعتقده مؤرخنا رحمه الله بأنها كانت عقوبة لهم لمخالفتهم ما يدعون أنه الحق .

وقد تمزق الجيش العسيرى فى هـذه الموقعة شر ممزق ووقع كثير من رجاله فى الأسر ، فكان من أسر من قبائل ألمع وحدهم حوالى خمسمائة رجل .

ومما ضاعف النكبة على الجيش العسيرى أن قبائل تلك الجهات نقضوا العهود وتواثبوا على الفارين والمنهزمين من العسيريين يمعنون فيهم قتلا وسلبا حتى انهم تركوا بعضهم عراة بادى السوءة ليس لهم ما يسترهم إلا الحشائش ونحوها .

ذهبت مثلا

كانت هـذه الكارثة شديدة الوطأة على عسير ولا يزال أثر ألمها يتاورثه منهم الخلف عن السلف ، فإنهم حتى الآن إذا أراد الواحد منهم أن يدعو على الآخر بسوء قال له « جزاك الله ماجزى المؤمنين فى بلاد غامد » .

ويظهر لى أن حملة أحمد باشا هذه وإن أنكت بعسير هذه النكاية الشديدة إلا أنها كانت منه لدرء الخطر عن الحجاز وما إليه فقط وإيقاف العسيريين عند حدهم ، وأنه لم يكن مستطيعا التوسع فى الأعمال الحربية واسترداد ما وصلت إليه حكومته من سابق النفوذ بعسير .

لأن مخدومه ومصـدر أمداده محمد على باشا والى مصر كان إذ ذاك فى

(١) الباحة المكان المتسع ورغدان اسم مكان فى بلاد غامد .

المقيم المقعد من انقلاب الحال ، فقد بدأت أعماله الحربية فى سوريا وفلسطين فى الاندحار ، وأخذ يختفى ماكان يتألق له من أمل فى إنشاء امبراطورية عربية ، فقد ظاهرت حكومة انكلترا الحكومة العثمانية على كبح جماحه نظراً لما كان لها من مطامع فى إقليم مصر .

وآزر الإنكليز الحكومة العثمانية إلى أن انتهى الحال بقصر سيادة محمد على وسلطته على القطر المصرى فقط ، على أن يكون ذلك وراثيا فى أبنائه وانتزع منه جميع ما امتدت إليه يده من الممالك العثمانية على ما هو مبسوط فى تاريخ تلك الحوادث .

وفوق ذلك فإن أحمد باشا هذا كان على اختلاف مع الشريف محمد بن عون أمير مكة ، منشؤه بلاد عسير ورغبة الشريف فى التخصيص ببسط يده عليها كما سبق القول « ومصائب قوم عند قوم فوائد » .

انتهى عام ١٢٥٥ ولم يقع فى عسير — كما يقول مؤرخنا — ما يستحق الذكر سوى حصول قتال بين الترك وأهل بارق[١] وأن الأمير عايض غزا الجهرة[٢] وألحق بأهل الحقو[٣] معرة عظيمة هائلة فقد نهبت أموالهم وقتل كثيراً من رجالهم ونسائهم ، لأنهم فى زعمه أووا أهل الجهرة فالله يحكم بينهم وبينه يوم القيامة » .

---

(١) يقول صاحب كتاب الرحلة اليمانية ص ٤٣ ووادى بارق المذكور من أعظم الأودية اتساعا خصب التربة خيراته كثيرة يزرع فيه السمسم والذرة والشعير والدخن والنيلة ولأهله اعتناء تام باستخراج زيت السمسم وإرساله للخارج بكثرة وقرى وادى بارق تبلغ خمسين قرية كلها مبنية بالحجر المنحوت الجميل والدور فيها من طابقين إلى ثلاثة ولم نكن نظن أن لهذه الديار اعتناء بالأبنية بهذا الشكل .

(٢) قبيلة من قبائل شرقى وادى بيش .

(٣) الحقو اسم مكان فى وادى بيش جنوبى صبيا وعلى بعد مرحلة منها ولعله قديما يعرف بِحقَاء أو حُقَاء على ما جاء فى معجم ما استعجم للبكرى ج ٤٥٩/٢ .

أما عام ١٢٥٦ فقـــد غزا فيه الأمير محمد بن مفرح اليمن[١] نائبا عن الأمير عايض بعد الاتفاق مع الشريف الحسين بن على أمير أبو عريش لإخراج الترك منه .

ويقول المؤرخ إن العناية الربانية حققت هذه الحملة فخرج الترك من سائر المراكز بغير قتال ولا حصار وتوجهوا للشام[٢] .

وفيها اتفق الأمير الحسين بن على مع الأمير عايض على تسيير حملة بألف من الجنود إلى المخا[٣] لاحتلالها ، وفيها أيضا غزا ابن مفرح بلاد بنى عمرو[٤] فى السراة وانتهبها ثم صالحهم ، ومما ذكره مؤرخنا من حوادث هـذه السنة انسحاب أحمد باشا مندوب محمد على من الحجاز بما معه من الجنود ورجوعه إلى مصر فى شهر شعبان ورجوع الشريف محمد بن عون من مصر إلى الحجاز قبل ذلك فى شهر رجب وحصول هدنة بينه وبين الأمير عايض إلى ما شاء الله من الوقت ، وكان من مقتضى هذه الهدنة إطلاق سراح من كان فى جيوش الحجاز من قبائل عسير وألمع ممن أسروا فى موقعة رغدان المار ذكرها .

وفى هـــذا العام أيضا حج ابن مفرح بالكثير من حجاج عسير وتهامة اليمن .

فى هذه السنة تنفس الخناق عن عسير بما قضت به الظروف على الدولة العثمانية ومحمد على باشا وموالها أمير مكة الشريف محمد بن عون ، وانفسح المجال للأمير عايض فترة غير قصيرة فانه إلى عام ١٢٦٩ لم تبد أية محاولة من الترك

---

(١) اليمن يقصد منه هنا ما كان بعد حدود المخلاف السليمانى .

(٢) الشام مطلق الجهة الشمالية .

(٣) المخا مدينة ساحلية من مدن تهامة اليمن على مقربة من الحديدة وجنوبا عنها .

(٤) بنو عمرو من قبائل جبل السراة (الحجاز) يحدهم شرقا وجنوبا بشرق بنو شهر ، وغربا وجنوبا بغرب قبيلة كعب وشمالا بالقرن .

لاسترداد نفوذهم فى عسير مما مكن للأمير عايض أن يوطد إمارته وأن يوسع نطاق سلطانه على كثير من القبائل البعيدة عن ديار عسير .

فقد غزا فى عام ١٢٥٧ [١] المقاطرة[٢] ونزل إلى أبو عريش فى دبدبة عظيمة من الجند واجتمع بالشريف الحسين بن على أمير أبو عريش لتأكيد ما بينهما من العهود والمواثيق .

وفى نزوله هـذا كر على قبائل عبس[٣] ونهب من أموالهم مالا يحصى كثرة ، وفى عام ١٢٥٨ [*] جهز بالاشتراك مع صاحب أبو عريش جيشا غزا به بنى الحرث[٤] فدخلوا فى الطاعة والجماعة ، وفيها أيضا غزا صدر وادى بيش حتى بلغ جبل القهر[٥] مما يلى جلة الموت[٦] .

وفيها تعرض المدعو محسن بن عباس لبلاد وادعة[٧] فبعث إليه الأمير عايض جماعة من المقاتلة على رأسهم بن ضبعان وانتهى الأمر بالصلح وجاء

---

(١) مما ذكره مؤرخنا من حوادث هذا العام حصول زلزال عظيم فى بلاد قبائل ألمع وما والاها بما لم يسمع قبله مثله .

(٢) المقاطرة قبيلة جنوب وادى بيش .

(٣) عبس بعض سكان وادى مور .

(*) مما ذكره مؤرخنا من حوادث هذا العام أن المياه فى بلاد ألمع غارت وحصل للناس من ذلك شدة عظيمة سيما فى بلاد صلب وبنى جونة .

(٤) بنى الحارث قبيلة منازلها جبال قريبة من صبيا .

(٥) القهر جبل فى غاية المنعـــة وعر المسالك فى الجنوب الشرقى من صدر وادى بيش .

(٦) جلة الموت اسم مكان فى صدر وادى بيش مما يلى جبل القهر .

(٧) وادعة قبائل تسكن وادى الظهران ـــ ظهران اليمن ـــ جنوب شرقى أبها

عرفاء وادعة وقدموا طاعتهم ثم عقبهم فى عام ١٢٥٩ * مجىء محسن نفسه بنحو مائة من قبيلتى سنحان وهمدان[١] وعاهدوا الأمير على إقامة التوحيد ومعاداة أهل الشرك والتنديد ، كما يقول مؤرخنا ، ولم يطل أجل الهدنة التى تمت بين الأمير عايض وبين الشريف محمد بن عون عام ١٢٥٦ فقد جهز الأمير عايض فى أوائل عام ١٢٦٠ جيشا غزا به بيشة ثم توجه إلى بلاد غامد ومايليها من قبائل شمران[٢] وبلقرن فأدوا الطاعة ودخلوا فى الجماعة وهم صاغرون كما يقول مؤرخنا .

وقد كانت فى ذلك الفرصة التامة لعسير للانتقام من قبائل هذه الجهات مما لقى العسيريون منهم فى موقعة رغدان مع جيش أحمد باشا كما سبق القول . لأن أمير مكة الشريف محمد بن عون الذى يعنيه أمر هذه الجهات كان ضعيف الحول ولم يكن على وفاق مع والى الحكومة العثمانية الذى خلف مندوب محمد على باشا بعد انسحابه من الحجاز .

ومضى عام ١٢٦١ وعام ١٢٦٢ * والحالة فى عسير فى استقرار وطمأنينة

(*) مما ذكره مؤرخنا من حوادث عام ١٢٥٩ ظهور عمود أحمر فى السماء جهة اليمن فى شهر محرم ثم لم يزل يمتد ويتزايد طولا وعرضا ثم أخذ يتناقص إلى أن اضمحل فى شهر صفر .

(١) سنحان وهمدان قبيلتان من قبائل اليمن فى الجنوب الشرقى عن أبها .

(٢) شمران قبيلة تسكن السراة وتهامة ، يحدهم شرقا شهران وغربا وشمالا غامد وجنوبا بلقرن ، وبلقرن قبيلة تسكن السراة وتهامة أيضا يحدها شرقا وادى بيشة وشمالا شمران وجنوبا بنو عمرو وغربا تمتد منازلهم إلى قوز بلعير على مقربة من القنفذة وبيوم عنها على الدابة .

(*) مما ذكره مؤرخنا وحوادث هذا العام مرور العلامة الكبير والولى الصوفى الشهير الزاهد الشريف إسماعيل بن حسن من بلاد عسير يقصد إخراج الفرنجة من عدن وذكر صاحب تاريخ اليمن أن المذكور من أشراف مكة وقد كان الإنكليز باتفاق مع الحكومة العثمانية احتلوا عدن ، ومما ذكره مؤرخنا أن الشريف المذكور قتل غيلة ، عام ١٣٦٤ فى أرض الحجرية بتدبير من الفرنجة ولم تتحقق أمنيته .

ولم يقع فيهما من الحوادث شىء سوى قتال وقع بين أمير أبو عريش الشريف الحسين الموالى لأمير عسير وبين المدعو على حميدة من موالى إمام صنعاء ، كانت الغلبة فيه لعلى حميدة وتمكن من نهب مخيم الشريف الحسين بعد قتل ذريع وقع فى عسكره .

أما عام ١٢٦٣ فقد غزا فيه الأمير عايض « باقم[١] » غزوة عظيمة جاء بعدها ابن مقيت على رأس قبائله مذعنا بالطاعة .

وفيها أحيا الأمير عايض مزارع « مسلية » التى أنشأها الأمير طامى بن شعيب بوادى بيش وكانت السنة سنة خصب ورخاء فقد بلغ سعر الذرة عشرة أفرق بريال[٢] .

وفى عام ١٢٦٤ غزا الأمير اليمن حتى وصل صبيا ثم كر على آل الحارث فأخذ من أموالهم أكثرها .

ومن حوادث هذا العام خروج إمام صنعاء محمد بن يحيى المتوكل بجيش عظيم لقتال الشريف الحسين بن على بن حيدر أمير أبو عريش والتقاء الجيشين بقرية القطيع ووقوع قتال بينهما شديد انتهى بتمزق جيش الشريف الحسين وإلقاء القبض عليه وحبسه فى قرية القطيع ثم فراره من الحبس واختلال أمر الإمام محمد بن يحيى وتراجعه إلى صنعاء[٣] .

(١) باقم يطلق على قرية تبعد عن وادى الظهران — ظهران اليمن — بست ساعات بالدابة وهى الآن تتبع إمام صنعاء وتسمى قبائلها بنو جماعة .

(٢) الفرق ويقال لنوع منه العجرة ، وعاء من الحصير على شكل الأكياس الخيش وهو عادة يسع ثلاثين كيلة مكية وقد يزيد والريال هو الريال الفرنسى الذى سبق تعريفه فى الرحلة ويساوى خمسة عشر قرشا مصريا .

(٣) قول مؤرخنا هذا وهو المعاصر المواطن يؤيد ما نقله صاحب قلب جزيرة العرب فيما ذكره بصفحه ٣٥٣ و ٥٤ نقلا عن الشيخ عبد الواسع اليمانى فى كتابه تاريخ اليمن ، وينفى ما زعمته وزارة الخارجية البريطانية وزعمه « هوغارث » فى تاريخه بأن الترك بتحريض من الشريف محمد بن عون جردوا حملة أنزلت الحديدة فى عام ١٢٦٥ تمكنت من فتح تهامة ودخول « أبو عريش » .

وفى عام ١٢٦٥ اجتمع محمد بن مفرح نائبا عن الأمير عايض بالشريف عبد الله بن محمد بن عون نائبا عن أبيـــه فى بيشة واصطلحا على تحديد الحدود بينهما .

وفى عام ١٣٦٦ غزا الأمير عايض آل حدرة[١] وأخذ أموالهم .

وفى عام ١٢٦٧ نقض الأمير عايض ما جرى بين نائبه محمد بن مفرح وبين الشريف عبد الله بن محمد بن عون من تحديد الحدود بينهما وأغار على بيشة وقفل منها إلى بلاد بَلْـقَـرْنْ سراة وتهامة فصالحوه على مايريد ولم يقع حرب ولا قتال بينهما ، وفيها غزا وادى تثليث[٢] .

وفى عام ١٢٦٨ بعث سرية إلى غامد وزهران رجعت ظافرة منصورة .

ومن حوادث هذا العام تولى الشريف عبد المطلب بن غالب إمارة مكة وحجه بالناس ، وفى عام ١٢٦٩ توجهت رتبة[٣] تحت إمرة يحيى بن مرعى أخو الأمير عايض إلى غامد بدلا من الرتبة السابقة التى كانت بها تحت إمارة ابنه محمد بن عايض ، وفى هذه السنة أيضا بعث الأمير عايض وفداً إلى الشريف عبد المطلب ومعه الهدايا من الخيل وغيرها .

---

(١) آل حدرة قبيلة تمتد منازلها غرباً من درب بنى شعبة إلى قريب من ساحل البحر .

(٢) تثليث واد عظيم ينحدر شرقا من جبال السراة من منازل قبيلة قحطان وتنصب فيه أودية كثيرة ذكرها صاحب كتاب فى بلاد عسير وقال إنها ثلاثة عشر واديا ، وهو فى انحداره يتجه إلى الشمالى الشرقى وينتهى فى وادى الدواسر عند مكان يقال له المختمية ويقال أن عمرو بن معدى كرب كان يملك بعضه أوكله وفى بعض قراه نخيل ويغلب فى سكانه البدو الرحل . وهو معروف قديما بهذا الإسم جعله ياقوت الحد الفاصل لما يسمى حجازا من سلسلة جبال السراة فقال فى ج ٣ ص ٢١٩ ويحدها « أى جبال الحجاز » من بلاد مذحج تثليث وما دونها .

(٣) رتبة — بمعنى حامية من الجند .

قلنا إن الشريف محمد بن عون لم يكن على وفاق مع الوالى التركى وقد أدى الخلاف إلى أن تعزل الحكومة العثمانية الشريف محمد بن عون وتبعده إلى استانبول وتولى مكانه الشريف عبد المطلب ، وحتى الشريف عبد المطلب لم يصف الحال بينه وبين المندوبين الأتراك بسبب لائحة الإصلاح التى أرادت الحكومة العثمانية تنفيذها فى ولاياتها وكان من مقتضاها منع الاسترقاق مما أدى إلى تمرد الشريف عبد المطلب وحصول فتنة فى الحجاز هرب المذكور على إثرها ولجأ إلى الآستانة ، فأعادت الحكومة الشريف محمد بن عون أميراً للحجاز ولكنه عاد محدود السلطة والنفوذ ولم تطل مدة إمارته الثانية فقد توفى فى عام ١٢٧٤ ، وتولى بعده الإمارة ابنه عبد الله .

الأوبئة فى عسير

إلى ما ذكرته من حوادث عام ١٢٦٩ كانت نهاية ما سجله مؤرخنا فى وريقاته غير أن مما ذكره فى حوادث هذا العام وقوع وباء فى عسير عم سائر قرى السراة وأن أثره امتد إلى عام ١٢٧٣ وأنه اشتد فى هذا العام حتى لم يترك فى بعض الأوطان ديارا ولا نافخ نار ، وأنه فتك بكثير من أعيان أهل الحل والعقد فى عسير حتى إن الأمير عايض نفسه أصيب به وكان سبب وفاته[1]

(١) بدأ حصول الأوبئة فى الحجاز وما جاورها من مناطق وأقاليم من عام ١٢٣٤ وتكرر فى عدة سنوات حتى إن مؤرخنا ذكر فى حوادث عام ١٢٤٦ أن وباء حصل فى الحرم أدى إلى أن يقطع الحجاج مناسكهم ويعودوا ، وهذا طبيعى فإنه كان نتيجة لما استحر من القتال وأثراً لما دهم البلاد من خليط الجنود الذين أتى بهم محمد على باشا مما لم يخل حتى من بعض الفرنجة . وكان من جملة ما جلبوه معهم كثير من الأمراض الاجتماعية التى لم تكن معروفة فى الجزيرة من قبل ، وذلك من كبريات سيئات محمد على فى الجزيرة إن عميق أثرها لا يزال فاشيا بين كثير من القبائل كما تدل على ذلك التقارير التى يكتبها الأطباء الباحثون فى العهد الحاضر فإن الحكومة تبذل عظيم الجهد فى مقاومتها بما تيسره من أطباء متجولون بين القبائل والقرى للمعالجة والبحث .

فعلى ما ذكره مؤرخنا يكون الأمير عايض قد قضى فى إمارة عسير العامة حوالى أربعة وعشرين سنة من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٢٧٣ تيسر له فى أثنائها الولاية على كثير من القبائل والقرى المجاورة لعسير والنائية عنها وضمها لسلطانه .

لأنه منذ أن انتزعت ولاية الحجاز وما يتبعها من محمد على باشا وأعيدت إلى حظيرة الحكومة العثمانية فى عام ١٢٥٥ إلى أن توفى الأمير عايض فى عام ١٢٧٣ لم تقم الحكومة العثمانية المشار إليها بأى عمل حربى جدى لاسترداد نفوذها فى عسير ولم يكن أمراء الحجاز على وفاق مع ولاته من الأتراك كما سبق الإشارة إلى ذلك فى محله . مما هيأ الأمير عايض الإمعان فى غزو الأماكن القاصية عن عسير وتثبيت نفوذ إمارته فى قبيلتى غامد وزهران وغيرهما مما جرى ذكر حوادثه فى محله ووقته .

ويقول مؤرخنا إن الأمير عايض بن مرعى كان على قسط وافر من رجاحة العقل وسجاحة الخلق وكان محسنا محبا للعلماء ومقدراً لهم فقد ذكر فى حوادث عام ١٢٥٩ أن العلامة الشيخ زين العابدين الحفظى كتب إلى الأمير المشار إليه أن ينزل إلى تهامة لمواجهته ، فامتثل ذلك ونزل إلى أول وادى ثاه من بلاد بنى زيد(١) واجتمع بالشيخ المشار إليه فبذل له كما يقول مؤرخنا (وصايا ونصائح ومسـائل هى لثبات الدين والملك من أعظم الوسائل) فتلقاها منه بالرضا والقبول .

الولاية بالارث وإمارة محمد بن عايض

فهو بمزاياه هذه وبطول مدة إمارته وظروفها قد وطدت لابنه من بعده أركان الدولة ومظاهر الصولة وأوسع له نطاق الإمارة فقد توفى وسلطان

---

(١) بنو زيد إحدى قبائل ألمع .

إمارته ممتد شرقا إلى بيشة النخل وشمالا إلى غامد وزهران وغربا إلى المخلاف السليمانى وجنوبا بشرق إلى وادى تثليث وما جاوره من القبائل والقرى وتولى ابنه محمد بن عايض الإمارة وهى على ما وصفت من الشوكة والقوة والمنعة والاتساع ، وكانت إمارته أول إمارة بالأرث فى عسير .

قضى الأمير محمد بن عايض حوالى أربعة عشر عاما كانت الحكومة العثمانية فى أثنائها لا تزال مشغولة بلم الشعث ورتق ما أفسدته الحروب والفتن التى جرتها ثورة محمد على باشا والى مصر ، فقد مضت مدة ولاية السلطان عبد المجيد وقسم من ولاية السلطان عبد العزيز ولم تقم الحكومة العثمانية فى الجزيرة العربية وبالأخص فى الجهة الجنوبية منها بأعمال حربية جدية تذكر .

ومن المؤسف أنى لم أجد فى المذكرات التى عثرت عليها ذكراً لما جرى من الحوادث فى عصر الأمير محمد بن عايض خلا ما عثرت عليه من قصيدة للعلامة عبد الخالق الحفظى يمدح فيها محمد بن عايض ويهنئه بتملك «أبو عريش» وهروب صاحبه الشريف الحسين بن محمد يوم السبت ٢٥ جمادى سنة ١٢٨٠.

كما وجدت ورقة بخط أحد المعاصرين له من الحفاظية ذكر فيها حادث زحف القائد محمد رديف باشا الذى كانت على يده نهاية إمارة آل عايض وخاتمة حياة الأمير محمد بن عايض .

والشائع على الألسنة مما يتناقله الخلف عن السلف من سكان هذه الجهة أن فتوحات الأمير محمد من الجهة الجنوبية وصلت إلى المخا والحديدة وزبيد وما جاورها وأن عصره كان عصر توسع وعز لعسير .

غير أن نفوذه فى تلك الجهات لم يطل بدليل ما جاء فى كتابة مؤرخنا لحادث زحف القائد محمد رديف باشا فانه قال :

غزو الحديدة ـ المأساة الحربية

« فى مدخول عشر من شوال سنة ١٢٨٨ غزا الأمير محمد بن عايض

(١٦)

الحديدة لأجل أمور بلغته عنها من صادق وكاذب وربما استنفره أهل تلك المحلات وعولوا عليه فى إزالة ما فيها من المنكرات وإخراج من فيها من الفجار » واستطرد فى سرد الحادثة وما أعقبها بما خلاصته :

أن الأمير محمداً جمع القبائل من عسير وسار بهم يقصد غزو الحديدة والاستيلاء عليها وانه حصل من تلك القبائل والعشائر على من مروا عليهم من أهل القرى والعساكر فى طريقهم إلى الحديدة من النهب والسلب والتعرض بالأذى ما يجل عن الحصر .

فلما وصلوا إلى الحديدة نشبت الحرب بينهم وبين الترك فى يوم الخميس ١٣ رمضان سنة ١٢٨٨ ووقع بين الفريقين قتال شديد هلك فيه جم غفير من عسير ومن الترك ومن أهل الحديدة وانتهى بهزيمة المسلمين «يعنى العسيريين» « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فانى ينتصرون وقد عاثوا فى الأرض فساداً وتعرضوا الآمنين من أهل القرى بالنهب والسلب ولم يردعهم رجوعهم بالخيبة والبوار فانهم لما وصلوا قرية الزيدية [1] دهموا أهلها وهم قارون آمنون ونهبوا أموالهم وكشفوا كما يقول مؤرخنا العورات وسبوا الذريات وانتهكوا النساء الفاطميات حتى لم يبقوا لأهل الزيدية ما يطعمون به أطفالهم أو يسترون به سوءاتهم بل كان كثير من النساء يوارين سوءاتهن بالتراب وصار الأثاث والتراث والكتب الموقوفة واللباس والسلاح والأموال الظاهرة والباطنة نهباً بأيدى عسير وغيرهم من عساكر الأمير، فيالها من مصيبة ما أعظمها ورزية ما أفجعها وحوقل مؤرخنا وقال « اللهم انا نبرأ إليك مما صنعوا ونعوذ بك من عواقب ما فعلوا فأنت تعلم أن عيوننا من ذلك ذارفة وقلوبنا من سطوتك خائفة » .

---

(١) الزيدية قرية على ساحل البحر غربى وادى مور وتبعد ثلاثة مراحل عن أبو عريش .

الجيش التركى يزحف على عسير بقيادة محمد رديف باشا

ويقول مؤرخنا رجع الأمير محمد بن عايض ومن معه إلى عسير وقد فعلوا ما فعلوا من الإفساد والمناكير وكان وصولهم فى الخامس من شوال سنة ١٢٨٨ فلم يلبثوا إلا قليلا حتى توالت الأخبار بخروج عسكر هائل وجيش جرار يبلغ عشرين ألفا جهزه السلطان عبد العزيز خان وجعل على رأسه محمد رديف باشا »

وهذا من غير شك صدى لما فعله العسيريون فى تهامة اليمن من المثالب وأنزلوه بأهل تلك الجهة من المصائب .

وصل رديف باشا ثغر القنفذة بمن معه من جنود وكتب للأمير محمد بن عايض ولبعض رؤساء عسير يدعوهم للطاعة والإذعان فأبوا ورفضوا طلبه .

ويقول مؤرخنا « إن الأمير محمد بن عايض بعد وصول طلب رديف باشا إليه جمع كبار المسلمين وتعاقدوا وتعاهدوا على حرب هذه الفئة الباغية »

تيقن رديف باشا عزم العسيرين على المقاومة والحرب فزحف بجيشه واحتل حلى بن يعقوب [1] وهو أول حدود إمارة محمد بن عايض من هذه الجهة ثم سار زاحفاً حتى وصل محايل فاحتلها بعد أن هرب أهلها .

دخول الجيش التركى محايل

كان دخول الجيش التركى محايل يوم عيد الأضحى فلما بلغ الأمير محمد وصوله إلى محايل خرج بمن معه من قبائل عسير وأهل المشرق ـ يعنى من كان تحت ولايته من قبائل شهران وقحطان ـ وخيم فى باحة شعار وأخذ يبنى

---

(١) حلى بن يعقوب واد نهايته على الساحل عند رأس خليج محمى من رياح الشمال والشرق عند قرية مخشوش، والوادى يمتد داخلا إلى منازل قبائل ألمع ومما يصنى فيه من الأودية هناك وادى العوص ووادى تية .

المعاقل والحصون ويقيم ما استطاع من وسائل الدفاع ويستعد للملاقاة والقتال متوقعاً أن الجيش التركى سيقصد السراة من تلك الجهة عن طريق عقبة شعار ووادى تية فهو أيسر طريق للسراة من تلك الجهة لا سيما لجيش عظيم .

مفاجأة رجال ألمع وهزيمتهم

كما أن قبائل ألمع وهى موالية للامير محمد بن عايض خرجت على مايقول مؤرخنا ـ فرض عين ـ يعنى بذلك جميع من يستطيع منهم القتال إلى الاشتراك فى الحرب وصد عادية الترك عن البلاد وعسكروا فى أول وادى حلى مما يلى منازلهم فى مكان يسمى الأحابيش ودارت المخابرة بين مقدمهم على بن محيى اليزيدى وبين من فى السراة من الرؤساء على عزم مبادأة الجيش التركى بالقتال إلا أن كلمتهم لم تجتمع على ذلك مما جعل مؤرخنا يقول : فكانوا يهمون بالهجوم على الترك ولا يتمون وصارت المحاسدة والمخاذلة بينهم ومن ذلك التاريخ عرف من له أدنى عقل بعد ما شاهده من الاختلاف وعدم الائتلاف ألا يكون لهم عاقبة رشد » .

وقبل أن تتفق الكلمة بين رجالات عسير على أمر يمضونه لم تشعر قبائل ألمع المجتمعة فى الأحابيش كما سبق القول فى سحر إحدى الليالى إلا بصياح النذير ، أن الترك قد أقبلوا لا يردهم راد ، فأجمعوا أمرهم وتهيأوا للقتال وبعد وقت غير طويل كان الجيش التركى على مرأى العين منهم كأنه الجراد المنتشر كما يقول مؤرخنا تدوى طبولهم وتنعق مزاميرهم مقبلين يقصدون رجال ألمع

وما أن أصاب معسكر قبائل ألمع من مدافع الجيش الزاحف قدر رمية أو رميتين حتى تفرق جمعهم وهربوا هروب رجل واحد إلى عقبة والج [١] ومن هناك تفرقوا إلى ما خلفهم من جبال قبيلة شحب [٢] واحتل الجيش التركى

---

(١) عقبة والج من منازل قبائل ألمع .

(٢) شحب إحدى قبائل ألمع أنظر الرحلة ص ٩٤

الأحابيش وظل بها إلى المساء ثم انتقل إلى قرية الملحة[1] وبات فيها .

أصاب قبائل ألمع هذا الفشل والخذلان والحال كما يقول مؤرخنا أنه لم يقتل منهم ذلك اليوم سوى نفر واحد من آل موهوب .

أصبح الصبح فتراجع عزم قبائل ألمع إلا القليـــل ممن دخلهم الوهن واجتمعوا فى ذروة جبل قوه[2] المشرف على أول وادى حلى ومنزل الترك منه بالملحة يقصدون مناوشة الترك ومراماتهم بالبندق فلمحهم الترك كما يقول مؤرخنا بالناضور» ووجهوا منهم«طابورا» قصدجبل قوةمن تلك الجهة وبعد تبادل طلقات الرصاص بينهم وبين من فى قوه بقدر ساعة هرب جميع من كان بجبل قوه من رجال ألمع من المقاتلة وتمكنت جنـــود الترك المهاجمة من الوصول إلى الذروة فاستأمن منهم أهل القرى التى عليها فأمنوهم ورجعوا إلى مقرهم بالملحة .

هرب رجال ألمع وتفرقوا كل إلى منزله خائفـا على أهله وماله ونفسه إلا شرذمة منهم نحو ثلاثمائة رجل ظلت مع المقدم على بن يحيى أقام بعضهم فى الشرفة والبعض الآخر بالشقة ، أما الجيش التركى فانه سار دون أن يلق مقاومة من أحد حتى وصل وادى العوص ومنه رقى عقبـة الصماء وخيم فى سطح جبل تهلل[3]

خدعة وهزيمة

جرى كل ذلك والأمير محمد بن عايض مقيم فى باحة شعار هو ومن معه يبنون الحصون والمحاجر ويرقبون طلوع الترك من تلك الجهـة

---

(١) الملحة قرية فى أعالى وادى حلى وهى غير الملاحة التى فى السراة من قرى بنى مالك وغير قرية الملاحة التى بين بيش وصبيا

(٢) جبل قوة يشرف من شماله على وادى حلى ومن جنوبه على وادى كسان وقرية رجال .

(٣) تهلل جبل من منازل قبائل علكم إحدى قبائل عسير أنظر الرحلة ص ٦٣

« ولما بلغه وصول الترك إلى سطح تهل أسقط فى يده ووقع فى عظيم الارتباك والاضطراب ، وحارت الأفكار وغلبت الأقدار كما يقول مؤرخنا ولم يسعه إلا المبادرة هو ومن معه يقصد الترك حيث كانوا . جاء الأمير بمن معه إلى مقر الترك ونشب القتال بينهما واستمر سجالا ينال من الترك يوما وينالون منه آخر، مدة من الوقت اضطر بعدها أن يتراجع إلى قرية السقا فلحق به الجيش التركى ودارت بين الفريقين رحى الحرب نحو خمسة أيام كانت أصوات مدافع الترك وبنادقهم على حد تعبير مؤرخنا تدوى كأنها الرعود والصواعق ، وانتهى القتال باندحار العسيريين واحتلال الجيش التركى للسقا واستيلائهم عليها .

خرج الأمير محمد من السقا هاربا إلى جهة الحفير [١] والترك فى أثره يتعقبونه واستمرت الحرب بينهم أياما بين غالب ومغلوب ، وأخيرا رأى الأمير محمد أن لا طاقة له بالمنازلة فلجأ إلى قرية رِيدَه [٢] وتحصن فيها بمن صابر ورابط معه من الرؤساء والمقاتلة .

الحصن الأخير

كانت ريده حصينة بموقعها الطبيعى لا سيما مما يلى السراة والجهة الزاحف منها الجيش التركى وبما فيها من الحصون والمعاقل المشحونة بمختلف أنواع الأسلحة والذخائر فقد قال مؤرخنا : « وليس أحد يظن أن تغلب من قلة أو

(١) قريه غربى السقا .

(٢) ريده من أجمل قرى عسير وهى فى صفاح الجبال الغربية مما يلى السقا يزرع فى واديها الموز لوفرة المياه فيه وعقبة الوادى المطلة على ريدة غابة خضراء لا ترى حجارها من كثرة ما عليها من الشجر وتكاثفه وفيها بعض شلالات من المياه تتدفق إلى الوادى على الدوام وقد قال بعض الأصدقاء ممن تيسر له الوصول إليها إن ظلام الليل يبدو فى القرية والعقبة أبكر مما يبدو فى غيرها من القرى مبالغة منه لما على العقبة وفى القرية من أشجار متكاثفة متشابكة قاتمة الخضرة .

يدخل أحد حصونها، ولا يلوح فى الأذهان أن يظفر عدو بفتحها .

لجأ الامير محمد إلى ريدة ورتب حصونها برجال اختارهم من كل قبيلة جعل لكل واحد منهم شهريا خمسة ريالات وأخذ عليهم وعلى من معه من من الرؤساء العهود والمواثيق على المناصحة والمصابرة .

كان محمد رديف باشا قد استمال بعض رؤساء القبائل منهم لاحق بن أحمد الزيدان فانه ركن إلى الترك وأقام معهم فى السقا فأخذ بواسطته يراسل الامير محمدا ويدعوه للتسليم والإذعان ويبذل له الامان والسلامة مما يخشى ، وكاد الامير يركن إلى ما دعا إليه إلا أن بعض من معه من الرؤساء أشار عليه أن يبعث أولا بأخيه سعيد فبعث به بعد أن تعهد لاحق المذكور بالسلامة له من كل أذى أو مكروه .

خرج سعيد لملاقاة الباشا والمفاوضة معه وما أن وصل المخيم حتى أمر الباشا بالقبض عليه وحبسه مثقلا بالحديد غير مبال بما بذله من العهد والضمان وعاد إلى مهاجمة ريده وضربها بالمدافع بكل شدة وقوة .

دام ذلك منه بضعة أيام دون أن يحصل على فائدة أو ينال من فى ريدة منه أى ضرر ، فلما أعياه الأمر ورأى ألا فائدة من الاستمرار فى إطلاق المدافع أفرز كما يقول مؤرخنا ثلاثة طوابير من جنوده المعسكرة فى ثغر القنفذة ركبوا منها البحر إلى أن خرجوا من الشقيق يرأسهم أحمد مختار باشا ويدلهم على الطريق رجل من أهل حلى بن يعقوب يدعى عمر بن عبد الله إلى أن وصل ريدة مما يلى الغرب ، وبوصولهم استؤنف القتال ومهاجمة ريدة جيش أحمد مختار من الغرب وجيش محمد رديف باشا من الشرق ، دام القتال نحو خمسة أيام بكل شدة وقوة أرعبت قلوب من فى ريدة من الناس والمقاتلة وبدأ الفشل يتسرب إلى قلوبهم ، وأول من خان الأمير أقاربه « والأقارب عقارب » كما يقول مؤرخنا رحمه الله ، فخرج منهم من كان فى حصن شهران ثم خرج آل مفرح من حصنهم وطلبوا الأمان فأمنوا ، واضطرب من ذلك

من كان فى حصن الأمير محمد نفسه وتزعزعت قواهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ولم يفد فيهم تشجيع الأمير ولا استنهاضهم وتذكيرهم بالعهود والمواثيق التى قطعوها على أنفسهم بل نفروا كما يقول المؤرخ :غير مستمعين لكلامه ولا ملتفتين لملامه مع أنه لم يعلم أن انساناً واحداً قتل منهم .

حاول المخذلون فى حصن الأمـــير أن يهربوا ولكن أنى لهم ذلك وقد أحاط الترك بريده من سائر جهاتها ولم يعد لهم منها مخلص ، فانضموا إلى من سبقهم بطلب الأمان من أهل الحصون الأخرى وتأمنوا وانحازوا إلى الترك .

نهاية سيئة ـ غدر واستبسلام

نظر الأمير فلم ير معه فى الحصن غير عبيده وخاصته وحدهم ولم يكن بد من الاستسلام فطلب من أحمد مختار ذلك وعرضه عليه بشروط منها أن يكون آمنا على نفسه وأهله فأجابه إلى ذلك وسلم الأمير نفسه ، ودخلوا معه الحصن فلما تمكنوا من كل ما أرادوا نقضوا العهود التى أمضوها وقبضوا على جميع من استأمن منهم فى الأول والآخر ، ونزعوا سلاحهم وأوثقوهم كتافاً وأخرجوهم إلى سجن ريدة فى أسوأ حال ونزل محمد رديف باشا من السقا إلى ريدة وكان دخوله إليها فى اليوم الذى دخلها فيه أحمد مختار باشا ، وما أن وقعت عينه على الأمير محمد جالساً بجوار أحمد مختار حتى أمر بالقبض عليه وحبسه دون التفات أو مبالاة بما قطعه أحمد مختار للأمير من العهد والميثاق ، وحبس معه نحو خمسة وثلاثين من رجالات عسير ورؤسائهم عدد مؤرخنا منهم اثنى عشر وسماهم .

ويقول مؤرخنا :

ولما كان بين المغرب والعشاء أخرجهم من الحبس وقتلهم جميعاً وخان الله ورسوله .

كان استسلام الأمير محمدبن عايض فى شهر صفر سنة ١٢٨٩ وكانت نتيجة الاستسلام ما ذكره مؤرخنا من قتله ومن معه غدراً [١] .

عهد جديد ـ الحكم التركى فى عسير

ظل الترك يحكمون عسير ويتصرفون فيها من ذلك التاريخ إلى سنة ١٣٣٧ أى حوالى أربعين سنة ولكن حكمهم لم يكن حكما صحيحاً بمعنى الكلمة فان سلطتهم لم تكن تتجاوز فى أغلب الأوقات فوهات بنادقهم وظلال ما يحتلونه من حصون ومعاقل، وكان نفوذ الحكومة قوة وضعفاً يتمشى فى أغلب الأحيان تبعاً لمزايا المتصرف الشخصية ، والأمن العام والطمأنينة يكادان يكونان مفقودين . فعابر السبيل لا يسير إلا مسلحاً وقوافل التجارة لا تمشى إلا محروسة بأهلها ، وكثيرا ما تعرض العيار من عسير للجند فى معاقلهم يتخطفونهم طمعاً فيما فى أيديهم من سلاح، ولم يتمكن ولاتهم الى ماقبل متصرفية محيي الدين باشا فى عام ١٣٣١ من اجراء أى عمل اصلاحى أو عمرانى إلا القليل مما تدعو إليه ضرورة الجند أو القتال .

---

(١) ما ذكره مؤرخنا وهو المواطن المعاصر يتعارض وما نقله صاحب كتاب قلب جزيرة العرب فى ص ٢٥٥ نقلا عن تاريخ اليمن ص ١٠٦ بأن زحف رديف باشا كان عام ١٢٨٥ ولم يذكر مؤرخنا أيضا شيئا مما قاله من توسط الشريف محمد ابن عون أمير مكة واستصداره فرمانا بالأمان من السلطان عبد العزيز بالعفو عن الأمير محمد بن عايض لم يعبأ به رديف باشا ولم ينفذه .

وفى الرواية بعض اضطراب ينافيه الواقع لأن محمد بن عون كان إذ ذاك من سكان الأرماس ، فقد كانت وفاته فى عام ١٢٧٤ وحادث قتل محمد بن عايض وحصار ريدة كان على رواية مؤرخنا فى عام ١٢٨٩ ، وقد وهم صاحب قلب جزيرة العرب فيما قاله إن حصار الأمير محمد بن عايض كان فى أبها ، والحقيقة ما ذكرناه وريدة تبعد عن ابها بقدر نصف مرحلة كما سبق القول ، وهى فى الصفاح الغربية لجبل عسير ، أما أبها فهى فى مايلى الشرق منه

فلما تولى محي الدين بشا أخذ فى إنشاء بعض المؤسسات فأقام فى أبها دارا للفرقة العسكرية ومقرا للحكومة وأسس إدارة للبادية وبنى لها مكاناً خاصاً، وأنشئت مدرسة أولية لتعليم أبناء الموظفين الاداريين الأتراك كما بنى ثكنة للجند أطلق عليها «طاش قشلة» أى الثكنة الحجر ،وأنشأ حول هذه المؤسسات وفى جوارها حدائق ومنتزهات نصب فيها فوارات بالماء «فاسقيات» وأحواضاً له وغرس سوق أبها بالأشجار الباسقة ، ومد المعاقل والحصون إلى منازل قبائل ألمع ، وبنى بقرية الشعبين دارا للحكومة وغير ذلك مما جعل لها صفة الوجود ومظهره ، ولكن أعماله هذه جاءت كما يقولون فى الزمن الأخير فكانت كاشتعال الذبالة عندما تريد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة .

محاصرة السيد الادريسى لأبها

من أهم الحوادث التى جرت فى عسير السراة على عهد الترك محاصرة السيد محمد الادريسى المتغلب على تهامه لأبها مقر المتصرف ، فانه بعد أن اشتد ساعده وانتشر نفوذه فى تهامه عسير ـ المخلاف السليمانى ـ وتمكن من طرد الحامية التركية التى كانت فى جيزان ، أخذ يؤلب القبائل التى تسكن غربى جبل عسير ويستمليهم باللين أحياناً وبالقوة أحياناً حتى تمت له الغلبة عليهم وأصبح نافذ الكلمة فيهم ، فكلف عامله عليهم السيد مصطفى بمحاصرة أبها وإخراج من بها من الحامية التركية ، وكان ذلك فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٢٨ .

نجدة الشريف الحسين

وظلت أبها محاصرة نحو عشرة أشهر وكان المتصرف بها حينئذ سليمان شفيق كمالى باشا .. فانتهز شريف مكة وأميرها فى ذلك العهد الشريف الحسين بن على هذا الحادث وعرض على الباب العالى — الحكومة العثمانية — أن يتوجه لفك حصاراً بها ومعاونة من بها من الحامية فوافقته الحكومة على ما طلب وأذنته بالمسير ، وقد كان المشار اليه يهدف فى هذا العرض لغايتين ،

أولاهما أن يظهر أمام قبائل تلك الجهة بمظهر الزعامة والقوة ويشيع ذكره بينهم، والثانى أن تكون له هذه المعاضدة والمعاونة ردءاً وزلفى لدى الحكومة التركية تبعد عنه شبهة ما كان يدور حوله من إشاعات ومقاصد فيما كان ينويه ويطمح اليه .

سار الشريف الحسين من مكة عن طريق الساحل بحملة من المقاتلة من عدة قبائل يصحبهم عدد وافر من الجند النظامى ، وكان موفقاً فيما قصده ، فقد أزال الحصار عن أبها وتراجعت جنود الأدريسى عنها بعد أن مس من فيها الضنى والجوع بما كادوا معه أن يهلكوا .

ومن مساعى الشريف الحسين فى سيره هذا أن وفق بين المتصرف سليمان شفيق وبين حسن بن محمد بن عايض أمير عسير السابق ، وكان ممن مالأوا الإدريسى وشاركه فى حصار أبها واستصدر له أمراً من الباب العالى بأن يكون معاونا للمتصرف المشار إليه وتعين له مرتب شهرى يتقاضاه من الدولة فى مقابل وظيفته هذه .

أنهى الشريف الحسين ما جاء لأجله ولم يعد من حيث أتى ، بل إتماما للغاية التى يكنها رجع إلى الحجاز عن الطريق الشرقى مارا ببلاد شهران وبيشة وتربة حتى وصل الطائف[1] .

الحكومة العثمانية تتداعى

لم تكن الحكومة العثمانية فى أخريات أيامها على حال يحمده الناس . فإنه بعد أن أعلن الدستور وخلع السلطان عبد الحميد منيت فى داخليتها ، باختلاف الأحزاب وتنازعهم السلطة ، ودفع جنود الدولة إلى قتال بعضهم البعض مما زاد قواها المادية والمعنوية وهناً على وهن ، وأمسى معه كل فرد من أولى النفوذ فى الحزب المتغلب على الحكم له السلطان المطلق مما صدق معه قول من قال :

---

(١) وقد سجل مسير الشريف الحسين هذا وذكر حوادثه المرحوم الشريف شرف بن عبد المحسن البركاتى فى كتاب سماه «الرحلة اليمانية» وقد اقتبسنا منه بعض مادعا إليه السياق .

كان عبدالحميد بالامس فرداً   فغدا اليوم ألف عبد الحميد

ونشأ مع هذه الفوضى جموح فى النظريات والمبادىء وميل عن منهج الصواب فى إدارة دفة الحكم فى مملكة كالمملكة العثمانية مؤلفة من شتى العناصر والأديان والقوميات ، وكان من آثار هذه الفوضى توتر فى العلاقات الودية والروابط المعنوية التى كانت قائمة بين عناصر هذه الدولة وطموح إلى التخلص من نير الهيئات الحاكمة والعنصر المتسلط ، لم يعدم من دول الاستعمار وحكومات الغرب من يغذيه ويذكى ناره وسعيره .

فلم تكد تخلص الحكومة المشار إليها من محنة اعتداء حكومة إيطاليا على ولاية طرابلس الغرب ، وانتزاعها منها [١] حتى تحزبت دويلات شبه جزيرة البلقان ، فأعلنت عليها الحرب التى انتهت بهزيمة الحكومة التركية وانتزاع البقية الباقية التى كانت لها فى شبه الجزيرة من الولايات والنفوذ وأصبح من فيها من المسلمين عرضة للحيف والاضطهاد [٢] .

وقبل أن يجف دم القتلى من جنودها فى تلك المعمعة التى لم يكن يتوقع أحد أن تخرج منها مهزومة فوجىء العالم بإعلان الحرب العظمى الأولى فى سنة ١٣٣٢ ﻫ الموافق سنة ١٩١٤ م وقضت ظروف الحال عليها أن تشترك

---

(١) كان اعتداء إيطاليا على طرابلس عام ١٣٢٨ ﻫ الموافق عام ١٩١١ م .

(٢) كان إعلان دويلات البلقان الحرب على الحكومة العثمانية عام ١٣٣٠ ﻫ الموافق ١٩١٢ وأتذكر أن أحد وزراء الانكليز قال فى مبدأ الحرب أن جزيرة البلقان لاتحتمل تغير الوضع الحاضر أو ما فى معنى ذلك يعنى بهذا أنه لو انتصرت الحكومة العثمانية فلا قيمة لانتصارها وسيظل ما كان على ما كان ، فلما تغلبت دويلات البلقان عليها واستولت على ما كان تحت حكمها من بعض المدن قال ذلك المتحدث نفسه ليس من العدل ان يحرم المنتصر من ثمرة انتصاره ، وهذا هو منطق الغرب ودوله مع المسلمين إلى اليوم

وللمرحوم أحمد شوقى قصيدة عصماء يرثى فيها المسلمين من سكان البلقان ويندب ما حصل لهم مطلعها :

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة فيك والإسلام

فيها مع الألمان،وشاء الله أن تخرج منها مخذولة،فقد ثار عليها الشريف الحسين ابن على أمير مكة،وانضم إلى معسكر الانكليز وحلفائهم،وكانت ثورته ومعاونته الانكليز من أقوى العوامل التى أكسبتهم الحرب فى الشرق الأدنى والاوسط ، واشترط الانجليز وحلفاؤهم فيما عقدوه مع الحكومة العثمانية من صلح أن تتخلى عن سائر البلاد العربية وأن تدعها لأهلها .

كان متصرف عسير فى ذلك الوقت محى الدين باشا الذى سبقت الاشارة إليه وإلى ماأوجده فى عسير من المنشآت العمرانية ، وكان فى ظروف عصيبة جعلته فى ارتباك شديد يحسب كل صيحة عليه هم العدو مما أفقده بعض ما كان قد كسبه من امتنان أهل البلاد وارتياحهم إليه .

الحامية التركية فى عسير تستسلم

لأنه بعد أن ثار الشريف الحسين فى الحجاز وانقطعت الصلة بين عسير ومقر السلطنة ملأ سجون عسير بمن شك فيهم وارتاب فى سريرتهم وساءت الحالة المالية ،فامتدت يده إلى أموال من تطولهم من التجار ، فقد ذكر لى بعض أهل «رجال» أن ما استنزفه محى الدين من أبيه بلغ ستة آلاف جنيه ذهبا يحمل هو الآن سنداتها حبراً على ورق،وأنه أخذ من غير أبيه مثل ذلك وأقل وأكثر .

وفى شهر ربيع من سنة ١٣٣٧ تبلغ محى الدين باشا الأوامر السلطانية باخلاء عسير عن طريق الانكليز وعن يد السيد محمد الأدريسى ورسله داخل مظروف كبير مختوم بالشمع من سائر أطرافه كما وصفه لى محدثى ، وكان الباشا إذ ذاك مريضا « أو متوعك المزاج » فهبط من السراة إلى الشقيق على الساحل محمولا فى محفة على أكتاف الرجال أحيانا وعلى ظهر الجمال أحيانا

وصل الباشا « الشقيق » وبمعيته أفراد الجالية التركية من الموظفين الاداريين الذين كانوا فى عسير ومعه سائر القوة النظامية العسكرية وعددهم

لم يتجاوز الثلاثة آلاف كما قال محدثى ، هبطوا إلى الشقيق بما تهيأ لهم حمله من خفيف السلاح والعتاد الحربى وتركوا ثقيله ومعظمه فى عسير تفعل به ما تشاء .

ومن المعلوم بالضرورة لما سبق ذكره أن الذى سيتلق حامية عسير التركية على الساحل لنقلهم من البلاد بواخر انجليزية ، وأن المندوبين الذين سيشرفون على عمليات تسليم البلاد لأهلها مندوبون انكليز، كما أنه من المعلوم أيضاً أن الذى سيرث ما مع الجيش التركى من العتاد والسلاح هو السيد محمد الادريسى بمقتضى ما بينهم وبينه من معاهدة ، فان السيد كان أول من أجاب الداعى من أمراء الجزيرة فى أثناء قيام الحرب العظمى الأولى ومديد المساعدة وعقد مع الانكليز فى سنة ١٩١٥ م معاهدة حلف وصداقة .

اطماع وآمال

لم يكن ما تسلمه السيد من الحامية التركية المغادرة بالنسبة إليه الشىء القليل، فطافت فى رأسه الأمانى والآمال بضم منطقة السراة إلى دولته وحكمه أو على الأقل نفوذه وموالاته وهو أمل قديم مزمن حاول تحقيقه فى عهد الأتراك فلم يوفق .

وهى رغبة بعد أن كانت شهوة أصبحت ضرورة يتحتم تحقيقها لما أصبح عليه وضعه الجغرافى بعد التطور الجديد فى الجزيرة ، فقد أمست مملكته بين شق مقراض ، فعن يمينه الدولة الإمامية المتوكلية ذات العلاقات العريضة والنفوذ القوى فى إقليم تهامه عسير فى العهود السابقة، وعن شماله قامت الحكومة العلية الهاشمية الناشئة بما لها من مطامع وآمال فى أن تكون حدودها من عدن جنوباً إلى جبال طوروس شمالا ، فاذا لم تكن السراة به محكومة أوله موالية يحمى بها ظهره على الأقل ، فان العاقبة ستكون عليه جد وخيمة ولاسيما أن الانكليز فى المعاهدة التى عقدوها معه سنة ١٩١٥ وتجددت سنة ١٩١٧ واعترفوا له فيها بالسيادة من حدود القنفذة شمالا إلى اللحية جنوباً لا تنص إلا على

حمايته ، وحماية هذه الحدود من تعد خارجى يحصل من غير أهل الجزيرة أما ما يأتيه من الداخل فأمره فيه موكول إلى الله .

آل عائض يتحررون

كان السيد يفكر فيما ذكرت ويعمل الرأى والحيلة لتحقيقه وكان آل عايض ورؤساء عسير يعقدون الاجتماعات ويتداولون الرأى والمشورة فيما يصنعونه بعد أن أخليت البلاد من الاتراك وضعفت منعتها ! فلم يكونوا فى وضع يختلف عن وضع السيد بل أشد ، لأنه منذ أواخر عهد محي الدين باشا قد هبت من ناحية المشرق هبوب تعاليم الاصلاح ببناء الهِجَر ووصلت إلى قبائل قحطان وأطراف شهران المصاقبين لعسير وتسرب نفوذ آل سعود إلى بيشة النخل وما حولها ..

وبعد مداولات وأخذ ورد فى الرأى والمشورة تقرر بينهم أن يسافر محمد بن عبد الرحمن بن عايض إلى الشريف الحسين بن على بمكة ويعقد معه اتفاقية تجعل اعتماد إمارتهم على سلطانه وشوكته

عسير تحت الحماية الإدريسية ـ اتفاقية صبيا أبها

فى اثناء تداول رجالات عسير للرأى والمشورة كانت مكاتبات السيد محمد الإدريسى ورسله للمفاوضة غادية رائحة ..

فقد جاء لأبها السيد نجم الدين ثم لحق به الشريف حمود والسيد محي بن عرار وأقاموا بها أياماً ، وعسير تطاول وتدافع بالتى هى أحسن ريثما يقر قرارها على أمر تجزم به .

سافر محمد بن عبد الرحمن إلى مكة. وانفرد الحسن بن محمد بن عايض بتدبير الشئون فى عسير ريثما ينتهى محمد بن عبد الرحمن مما ذهب لأجله . والحسن هذا وإن كان لا يزال فتيا ويكبره فى السن محمد بن عبدالرحمن إلا

أنه وهو سليل الأمير السابق من آل عايض وهو الذى كان يحمل لقب معاون الباشا المتصرف فى عهد الترك كما سبق القول ، فإنه المرموق بالامارة من عسير ، ويظهر لى أنه لم يكن قوى الطموح ، وكان ميالا إلى الدعة وحب السلامة وشعوره بالتابعية فى عهد الترك لايزال على حدته .

فتحت تأثير الوفد المقيم عنده من أهل تهامة والحاح السيد الإدريسى وغيبة محمد بن عبدالرحمن رأى الحسن وبعض مشايخ عسير أن ينزلوا إلى صبيا حسب طلب السيد محمد ويتفاوضوا معه فى الأمر مباشرة دون انتظار ما يأتى به محمد ابن عبد الرحمن من مكة .

نزل الحسن ومعه بعض المشايخ من قبائل عسير وصحبهم من كان لديهم موفدا من السيد الإدريسى إلى صبيا وما إن اجتمعوا به وفاوضهم فيما عرضه عليهم من الارتباط به والتابعية له حتى تأثروا بأسلوبه وبيانه ووافقه الحسن على ما يريد ، وأعان السيد على انجاز المهمة بسرعة طقس تهامة الحار وما فيها من شدة الومد[1] الذى لاطاقة لأهل السراة باحتماله طويلا ، والقول بأن السيد الادريسى بعد أن وافقه الحسن على مايريد خصص له مرتباً شهرياً قدره خمسمائة وألف ريال فرنسى حجر من حجر كما يقول أهل هذه الجهات

يقظة وتحرر

تم الاتفاق ورجع الحسن بن على بن محمد بن عايض إلى السراة أميرا يصحبه إبراهيم الشوكانى ، مندوباً سامياً من الدولة الادريسية فى المقاطعة السروية وظل هذا الحال إلى نهاية سنة ١٣٣٧ سافر فى أثنائه المندوب المشار اليه وترك أخاه يحيى وابنه القاسم نائبين عنه ، واذ ذاك كان قد رجع من مكة محمد بن عبد الرحمن وارم الأنف بما استنشقه من « كالات حسيات تعطفات صاحب الجلالة الهاشمية بها » على حد تعبيرات أمين الريحانى

كما قد خف عن الحسن ورجالات عسير الذين صحبوه فى مفاوضته للسيد

(١) الومد شدة الحر مع سكون الريح .

الأدريسى أثر ومد تهامة وتلاشى سحر بيان السيد ، وبطل أثر ما وشحهم به من العزائم والتمائم بما شمه حسن من نسيم السراة البارد ومنبهات ما مارسه من التصرف والسلطة

فلما أن طلب السيد محمد الإدريسى بمقتضى حق الحماية والولاية وما سبق من الاتفاق أن يبعث اليه الحسن بما تركه الجيش التركى من سلاح وذخيرة وما استثقل حمله من مدافع عند انسحابه أو على الأقل أن يبعث اليه بالثلثين ويترك لديه الثلث لم يرق ذلك لرجالات عسير، فأرسل الحسن من طرفه وفدا من ثمانية مندوبين فيهم عمه عايض وابن عمه ناصر وبعض رؤساء القبيلة علهم يثنون السيد عن رغبته فى الاستحواذ على ما تركه الجيش التركى من سلاح وعتاد ولكن الوفد لم يوفق ،فعاد عايض وعاد معه عبد الله بن حسن وظل الباقون من الوفد عند السيد ، وتلفت حسن ومن معه فلم يجدوا ما كانوا يجدونه حولهم على عهد الترك من جند شاكى السلاح يوجب الرضا والقبول بل وجدوا مندوبا لا يملك من الحول والقوة شيئا فأجمع رأى الكل على التمرد وخلع حسن ما لبسه من رداء الطاعة للسيد الإدريسى ورفضوا طلبه للسلاح واستقلوا ، فتوترت العلائق بين الطرفين واحتجز السيد من بقى عنده من وفد المفاوضة ، وقطع ما كان يرد إلى السراة من الثغور والسواحل التى تحت إمرته من ميرة وتجارة ولكنها كانت وسيلة ضعيفة ، فالحاجة تفتق الحيلة وثغر القنفذة الهاشمى مفتوح لعسير عن طريق محايل تجلب منه ما تريد ، فلم ير السيد بدا من استعمال القوة واعلان الحرب بالسلاح ، فجمع ما لديه من المقاتلة وكانوا خليطا بعضهم من مرتزقة الصومال وبعضهم من أهل تهامة ، وشاركهم قسم من قبائل ألمع ، فان علاقتهم بالسيد كانت حسنة وأثر دعوته قائم لديهم من عهد الترك .

معركة التحرير

سار الجيش الإدريسى من جهة بلاد ألمع وقريتى رجال والشعبين عن

طريق وادى العوص وعقبة الصماء ، وعلم العسيريون بذلك فخرجوا لملاقاته وقتاله ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى سطح جبل تهلل وانتهت المعركة بانهزام جيش السيد محمد الإدريسى وتراجعه .

ولم تكن عسير لتقتصر فى دفاعها على السيف وحده بل وجدت فى صفوف هذا الجيش المختلط منافذ لقبول البراطيل فلم تتأخر ، وكان للذهب والفضة دورهما وجميل أثرهما فى هزيمة الجيش وتراجعه .

فشلت الحملة الحربية كما فشلت المفاوضات وأسقط فى يد السيد وتبين له أن الصوماليين مرتزقة وغرباء عن البلاد ومسالكها وأهل تهامة لا تقوى طويلا جلودهم الملفوحة بحرها على احتمال قر السراة وبردها ، وقبائل ألمع وان كانوا شديدى البأس ويحبون السيد إلا أنهم من أرومة قبائل عسير وهم لأبو صرة السلطانى المرنكش[1] أكثر حبا وانجذابا .

الادريسى يستعدى آل سعود

أعمل السيد فكره كثيراً ، وأخيرا ألهمته المقادير ، بما كان تمهيدا وتوطيدا لما تجلى فى النهاية ، وهدته لأن يلجأ إلى قلب الجزيرة وأسدها الرابض هناك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود فقد كان على صلات حسنة معه ومراسلات وتواد .

عبأ السيد ما يلزم لمثل ذلك وكتب رسائل المودة والأشواق ولم تخل فى تضاعيفها من ذكر مسألة عسير السراة وما كان من أهلها واتصالهم بأشد الأعداء . والساعى لأن يكون زعيم الجزيرة الأكبر وما لديهم من سلاح وذخائر خلفها الجيش التركى .

ولم يكن آل سعود فى غفلة عن ذلك أو أنهم نسوا سابق العلاقة بعسير ولكنهم مشغولون بمعالجة ما هو أكثر أهمية ، فالحسين ملك مكة لا يزال يرعد ويبرق ، وابن الرشيد العدو التقليدى والمنافس المشاكل لازال قائما لا تؤمن غوائله .

---

(١) يسمون الريال الفرنسى فى عسير هكذا .

أما وقد خذل الله جيش الشريف الحسين ملك مكة فى واقعة تربة ذلك الخذلان المشين وورث السعوديون جميع ما كان معه من عتاد وسلاح جاء به من المدينة المنورة مما تركه الجيش التركى المنسحب منها واشتغل آل الرشيد بفتنة وادى السرحان والجوف وقمعها وجاءت رسل السيد الإدريسى تبذل الموالاة والصداقة والمحالفة فقد حان الوقت وطاب للاتصال بالعسيريين ، وسرعان ماتحولت القوة المغناطيسية لاجتذاب عسير من السيد محمد الإدريسى فى الغرب إلى آل سعود فى الشرق فكانت المكاتبة والتواد وتذكير عسير بسابق العهد وما كان بين الأجداد من صلات وروابط .

ولكن كل ذلك لم يؤثر ولم يجد ، لأن مغريات صاحب الجلالة الهاشمية بمكة قد نفخت أوداج آل عايض وأملتها غرورا وازداد انتعاشهم بما أوتوه من نصر على جيش السيد الإدريسى فظنوا كل سمراء تمرة وأبوا على ابن سعود ما أراده ورفضوا ما عرضه عليهم من صداقة ، كل هذه الحوادث جرت فى غضون سنة ١٣٣٧ و ١٣٣٨ .

عسير تستنجد بعبد العزيز آل سعود

ولم يعدم ذو الغاية وسيلة ، فقد جاء إلى الرياض من رؤساء العشائر والقبائل من يشكو سوء إدارة آل عايض وعسفهم ويطلب التوسط لرفع مظالمهم فتوسط عظمة السلطان عبد العزيز بن سعود ورفض حسن بن عايض الوساطة ولم يكن بد من إنصاف المظلوم ونصرة المستجير ، فتجهز فى أواسط سنة ١٣٣٨ جيش من الرياض بقيادة الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوى يقصد عسير :

نجدة آل سعود لعسير

وصل ابن مساعد بجيشه إلى بيشة وكتب إلى عسير يدعوهم للاتفاق والدخول فى الطاعة فلم يستجيبوا إلى ما طلبه وكان جوابهم أن بعثوا مع

الرسول مشطا من الرصاص ومعناه الرفض والاستعداد للقتال كما قاله محدثى .

زحف ابن مساعد بجيشه إلى الخضراء من بلاد شهران وكانت الدعوة الإصلاحية الأخيرة قد تسربت اليهم من أواخر عهد الترك وعلم العسيريون بذلك فجمعوا الجموع وحشدوا المقاتلة ، وقبل أن يصل ابن مساعد فى زحفه إلى قرب أبها بادرت فرقة من الجيش العسيرى على رأسها محمد بن عبد الرحمن ابن عايض إلى وادى حِجْلة ورابطت هناك ، وبعد يومين من وصول القوة إلى حجلة بدت طلائع الجيش الزاحف ولعلع الرصاص من الجانبين ودارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة القوة العسيرية وتراجعها الى أبها .

لم يجرؤ الجيش النجدى على ملاحقة المنهزمين والتقرب من أبها لما توهمه فيها من القوة والمنعة ، على أن رؤساء عسير من آل عايض بعد اندحار جيشهم فى حجلة دب الهلع فى قلوبهم وتطرق اليهم الفشل فمع أخذهم فى تحصين أبها وإعداد وسائل الدفاع عنها صاروا ينقلون منها أمتعتهم ومايعز عليهم من أهل ومال إلى الجبال الخارجة عن نطاقها مما أوجب الذعر فى قلوب سكان أبها ومن بها من المقاتلة .

احتلال أبها

وصل إلى علم الجيش النجدى الزاحف حقيقة الواقع فى أبها وما عليه أهلها فزحف بقصد الاستيلاء عليها وتم له ذلك ولم تفد فى صده عنها مدافع حصن ذرة التى كانت تطلق منه جزافا .

دخل جيش التوحيد واخوان من طاع الله أبها عنوة وأعانهم على أعمالهم بها من انضم اليهم من القبائل المتاخمة من رواد المغانم والكسب وقتل فى ذلك اليوم الكثير من الأبرياء والمستضعفين من سكان أبها ، ودماؤهم كما قال محدثى أعلق بأعناق آل عايض منها بأعناق الجيش الفاتح فقد كانوا منعوهم ما أرادوه من الخروج والبعد عنها .

استولى ابن مساعد على أبها وهرب آل عايض إلى ملجئهم بحرملة ، وكان

السيد الإدريسى فى إبان توتر العلاقات بينه وبين عسير قد استبقى قسما من وفد المفاوضة كما سبق القول ، فلما تطورت الحوادث إلى ما انتهت اليه وتبودلت الرسائل والرسل بينه وبين ابن مساعد بعد فتحه أبها بعث إليه بمن كان عنده من رجال الوفد العسيرى إلا ناصر بن عبدالرحمن بن عايض فانه ظل فى صبيا بناء على حادث قتل وقع منه لأحد جنود السيد الادريسى .

استسلام آل عايض - إكرام ونصيحة

فلم ير حسن ومن معه من آل عايض فائدة فى اعتصامهم بحرملة بعد أن لحقهم من الفشل والهزيمة ما لحقهم فتقدم لابن مساعد مستسلما وقبل ابن مساعد منه ذلك ، وطلب عظمة السلطان عبد العزيز بن سعود مجىء حسن وابن عمه محمد ابن عبد الرحمن إلى الرياض فسافرا إليها وأكرمهما عظمته وأحسن وفادتهما ووصلهما بالجوائز والهبات وقال لهما :

« ما تخلينا أبداً عنكم يا أهل عايض ، وعندما سأل الترك الشريف عبدالله ابن عون أن يهاجمكم وينكل بكم أرسل الشريف يستنجد عمي الإمام عبد الله فأجابه ـ ابن عايض رجل منا فكيف نساعدك عليه »

العهد السعودى الزاهر فى عسير

ثم عرض إمارة عسير على حسن بالشروط التى تقيد بها أسلافه فاعتذر عن قبولها وبعد أن أقاما فى الرياض نحو شهر سمح لهما بالعودة إلى أبها فعادا اليها وانزويا فى قريتهم حرملة ، وفى أثناء ذلك جاء صالح بن عبد الواحد من طرف الامام عبد العزيز بن سعود وأتى بناصر بن عبد الرحمن من صبيا إلى أبها ، وكان السيد محمد الإدريسى قد استبقاه بدعوى حادث القتل الذى وقع منه كما سبق القول .

انقلاب وثورة

لم يبق ابن مساعد وجيشه طويلا فى أبها بل رحل عنها وأقيم شويش

الضويحى أميراً ومعه حامية من بعض الإخوان ، شكا أهالى أبها من بعض تصرفاتهم فأبدل عظمة السلطان عبد العزيز الشويش بعبد الله بن سويلم وتكررت شكوى أهالى أبها فأبدله بفهد العقيلى .

دامت الحامية النجدية وأميرها بضعة أشهر فى طمأنينة وسلام إلا أن أسباب الشكوى لم تنقطع بتعديل الأمراء ، فقد كان بعض الجند من متعصبة الإخوان ينالون أهالى أبها بالاحتقار والإهانة ، مما ضافوا معه ذرعاً واستهانوا بأمر الحامية فثاروا عليها وحصروها فى القصر الذى هى فيه ، ثم ذهب بعض رجالات عسير إلى الحسن فى حرملة وما زالوا لديه حتى وافقهم على المجىء إلى أبها ومشاركتهم فيما فعلوه .

جاء الحسن أبها ولكنه كان خائفاً من وخامة العاقبة ، وكان الجند المحاصر من الحامية قد سئم الحصار وضاق بهفعرض أميرهم العقيلى على الحسن الصلح بأن يرفع عنهم الحصار ويتركوا له أبها على شرط أن يدعهم يخرجون بسلاحهم ، فوافقهم على ذلك وأن يأخذوا ماأرادوا على شريطة أن لا يبقوا حتى ولا فى حدود عسير ، ولا يتعرضوا لأحد من قبائلها بغزو ولا قتال ، فوافقوه على ما اشترط ، وبارحوا أبها ولكنهم لم يفوا بما تعهدوا به ، بل ظلوا فى شهران وهى موالية لهم على مقربة من أبها وأخذ أميرهم العقيلى يجمع الجموع من موالى آل سعود فى الجهة التى هو بها ويتعرض لقبائل عسير بالغزو والإغارة فى الوقت بعد الوقت .

وفى إحدى الوقائع التى كانت تجرى بينهم استطاع العسيريون القبض على العقيلى وأسره وحرق قرية خميس مشيط والإمعان فى بلاد شهران بالغزو والنهب .

كان وقوع هذه الحوادث فى إبان اشتغال الرياض وانهماك من بها فى شأن آل الرشيد والقضاء عليهم ، ولكن بعد أن عاد الأمير سعود بن عبد العزيز من عملية حصار حائل يسحب معه عبد الله المتعب أميرها المستسلم واطمئنانهم بعض الشىء بما وقع بين آل الرشيد من الخلاف والتطاحن سنحت الفرصة

لرد عسير إلى الطاعة، فجهز عظمة السلطان عبد العزيز جيشاً عرمرما جعل على رأسه ابنه الأمير فيصل وسيره على عسير .

فيصل بن عبد العزيز السعود يفتح عسير

جاء جيش الفيصل واحتل أبها دون كبير عناء. ولجأ آل عايض إلى حرملة للمرة الثانيه ، ولكنهم لم يستطيعوا البقاء فيها طويلا فقد لاحقهم الجيش الزاحف واضطروا أن يهربوا منها ويلجأوا إلى مكة يستنجدون صاحب الجلالة الهاشمية ويستمدون عونه ونصره .

ولم يتأخر جلالته عن المساعدة والانتصار فجهز قوة نظامية على رأسها حمدى بك ومعه جيش من أخلاط القبائل أميرهم الشريف عبد الله الفعر .

سارت الحملة الهاشمية وسار معها الحسن بن عايض ومن معه من رجالات عسير يقصدون تخليص أبها وإنقاذها ، جاءت قوة الشريف أو قوة الشعير كما سماها العسيريون فيما بعد وأخذت طريقها إلى السراة من جهة منازل قبيلة بللحمر عن طريق الساحل وتمكنت من الوصول إلى قرب أبها وأخذت تطلق المدافع على من بأبها من الحامية النجدية .

لأن الأمير فيصل بعد احتلاله أبها وطرد آل عايض من حرملة لم يقم بها طويلا بل أقام فيها بن عفيصان أميراً ومعه قدر وافر من الحامية ثم رحل .

ظلت المناوشات بين القوة الشريفة العسيرية وبين الحامية مدة مات فى أثنائها ابن عفيصان وخلفه بن جيفان ، ثم جاء بعدها عبد العزيز بن ابراهيم أميراً على أبها .

نهاية إمارة آل عايض

كان بن ابراهيم حازماً قوى الشكيمة شديد البطش فى القتال مع شيء من الدهاء وحسن التصرف مما أدى إلى تفشل الحملة الهاشمية وتراجعها القهقرى إلى جهة

محايل والقنفذة وتخلص حسن بن عايض ومن معه من أبناء عمه من الارتباط بها وجاء إلى حرملة عن طريق محايل وقرية رجال . وطلب ان يصله الأمير عبد العزيز إلى مقره بحرملة لتأكيد صدق الوعود ففعل الأمير وجاء إلى حرملة وبذل ما اطمأن إليه الحسن وصحبه إلى أبها ، ولما كان العاقل لا يلدغ من جحر مرتين رأى الأمير عبد العزيز إبعاد الحسن عن أبها ، فأبعده ومعه بعض أبناء عمه مخفورين إلى الرياض ، وعفا عنه عظمة السلطان مرة ثانية وأجزل له ولمن معه العطايا والمنح ، وعاش الحسن ردحاً من الزمن فى الرياض موفوراً له الإكرام والرعاية ، وسيبعث منها يوم يقوم الناس كافة للجزاء والحساب .

عاش السيد محمد الإدريسى إلى أن شهد مصرع عسير فقد كانت وفاته عام ١٣٤١ وقام بالأمر بعده ابنه على كما سبقت الاشارة إلى ذلك عند الكلام عن مدينة صبيا فى قسم الرحلة إلا أن خاتمة الأدارسة عام ١٣٥٢ .

كانت هى خاتمة آل عايض عام ١٣٤٢ ، وهم الآن محجوزون بمكة موفور لهم العطاء والمخصصات الشهرية ، ولم يكن ما جرى غير منتظر ، فإن الثور الأغبر أكل يوم أكل الثور الأبيض .

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيده الضرغام فيما تصيدا

وهذه النتائج إن كانت من سوء حظ أمراء هذين المنطقتين فإنها من حسن طالع العرب وبقية السكان من أهلها ، فقد عادت أنقاض امارتيها دعائم فى بناء الوحدة المنشودة التى أصبحت الأمة العربية فى أمس الحاجة إليها بعد أن سئم أهل الجزيرة الحياة وفى كل مدينة من مدنهم أمير المؤمنين ومنبر .

وصار الواحد المنفرد فى هذه الجهات يسير من ساحل البحر الأحمر فى الغرب إلى حواشى الربع الخالى فى الشرق آمنا مطمئنا لا يخشى غير عوادى السباع المفترسة بعد أن كانت الجماعة فى القرية لايخرجون للسمر عند بعضهم إلا مسلحين كما أخبرنى بذلك بعض أهلها .

على أن حالة الحرب فى البلاد لم تنته بعد ، وهى حرب أرجو الله وأسأله أن لاتنتهى وأن يزداد سعيرها ، فقد أخذت الحكومة السعودية الحاضرة بعد أن توطدت أقدامها تنشىء المدارس فى أمهات القرى من الاقليمين تهامة وسراة ، وهل المدارس الا حصون ؟ وهل كل تلميذ فيها يحمل كتابا غير جندى يحمل سلاحا لمحاربة الجهل وقتله ؟ الجهل هذا العدو اللدود الضارب بأطنابه والباسط جناحيه لا على عسير وحدها بل على أغلب أقسام الجزيرة ، والجهل هو الجرثومة لصنويه الفقر والمرض يحلان حيث كان، أن بلاد عسير كما سبق القول زمردة فى طرف سلسلة جبال الحجاز الجنوبية ، وأهلها على أرض من الذهب ، ولكنهم لا يدركون ذلك ولا يشعرون به .

فسدد الله خطى الحكومة القائمة الآن ويسر لها المزيد مما هى بسبيله من نشر العلوم والمعارف ، حتى لا تكون بلدة ولا قرية إلا وفيها مدرسة تعلم الناس ما يجب لهم وعليهم « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » .

غادرت جيزان وما إليها مما كان معروفا فى سالف العهد بالمخلاف السليمانى والأمير عليه الأمير خالد بن فهد السّديرى ، وبارحت أبها عاصمة عسير وما إليها والأمير فيها تركى بن فهد السّديرى ، والأمن يسود سائر مدنهما وقراهما والطمأنينة والاستقرار يشملانها .

وأخيرا وقبل أن أضع القلم أقدم جدولا باسماء أمراء عسير السراة منذ قامت فيه الإمارة من أهله إلى أن انتهت ، مبينا المدة التى قضاها كل واحد منهم فى الإمارة .

الأمراء من آل المتحمى من قبيلة ربيعة رفيدة

تحت الحماية السعودية

١ ـ محمد بن عامر أبو نقطه تولى من عام ١٢١٥ هـ الى عام ١٢١٨ مات متأثرا بعلة الجدرى

٢ ـ عبد الوهاب بن عامر تولى من عام ١٢١٩ هـ إلى عام ١٢٢٤ مات قتيلا فى موقعة حربية مع الشريف حمود .

٣ ـ طامى بن شعيب من عام ١٢٢٥ هـ إلى عام ١٢٣٠ قبض عليه جيش محمد على وسيق إلى مصر ثم قتل .

٤ ـ محمد بن أحمد المتحمى من عام ١٢٣١ الى عام ١٢٣٣ قبض عليه وهو مريض وقتل : على رواية ابن بشر فى تاريخ نجد .

الأمراء من بنى مغيد ـ آل عايض

مستقلون

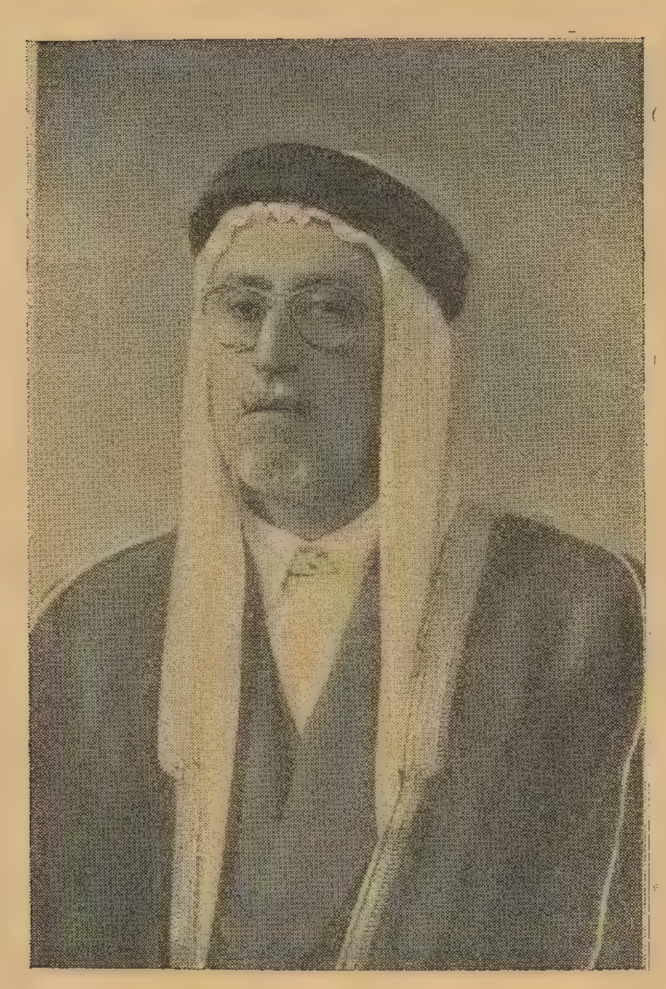
١ ـ سعيد بن مُساط	من عام ١٢٣٩	الى عام ١٢٤٢	توفى
٢ ـ على بن مجثل	« ١٢٤٢	« ١٢٤٩	«
٣ ـ عايض بن مرعى المغيدى	« ١٢٤٩	« ١٢٧٣	«
٤ ـ محمد بن عايض المغيدى	« ١٢٧٣	« ١٢٨٨	قتل بعد الاستسلام فى ريده
٥ ـ حسن بن على بن محمد بن عايض	« ١٣٣٧	« ١٣٤١	توفى بالرياض

بيان

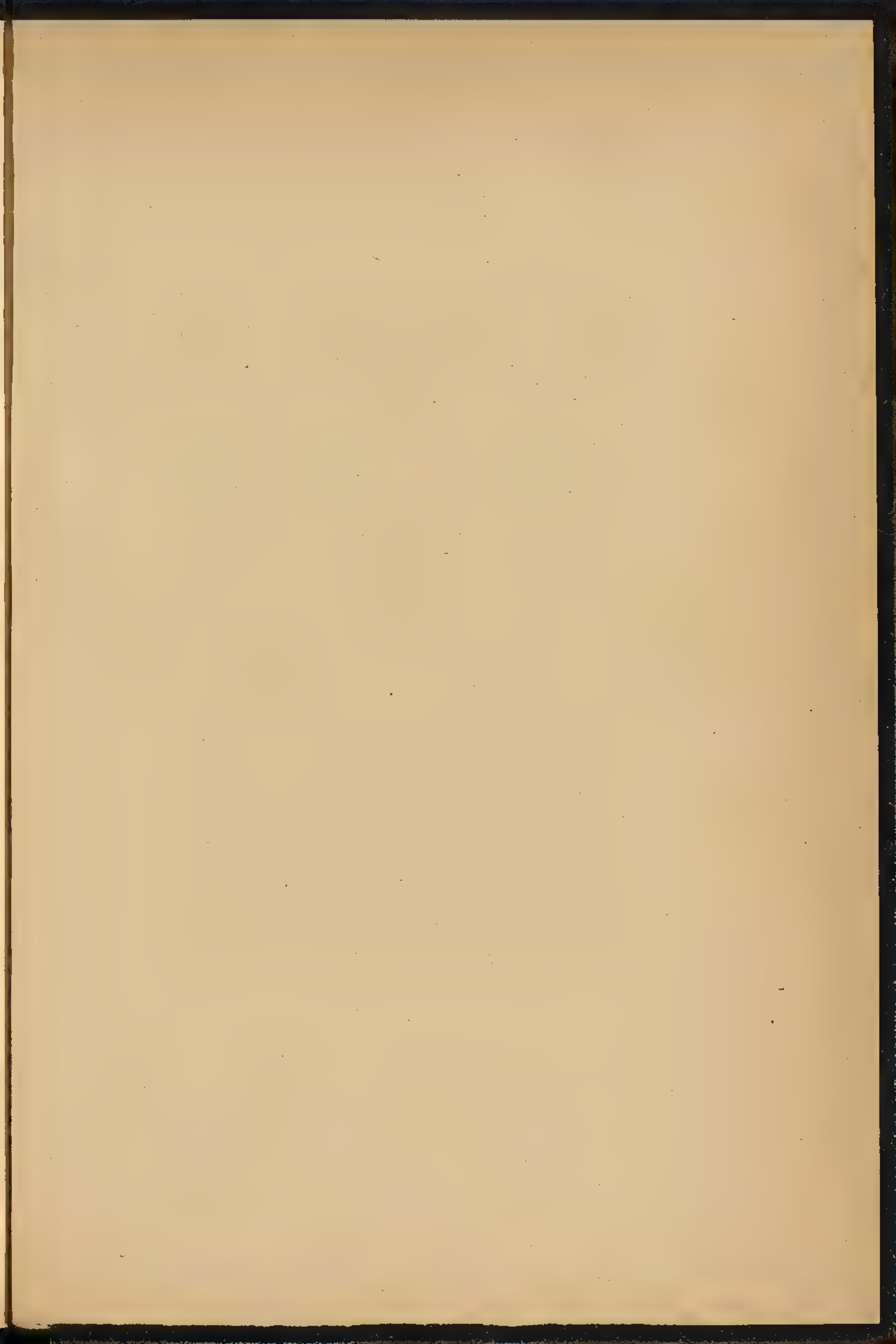
فى الفترة من عام ١٢٣٣ إلى عام ١٢٣٩ هـ كانت عسير تحت احتلال جيش محمد على باشا ومن والاه من أمراء مكة خلا بضعة أشهر فى غضون عام ١٢٣٣ فإنها كانت فيها تحت إمرة الشريف حمود أبى مسمار أمير أبو عريش كما سبق القول .

أما الفترة من عام ١٢٨٩ الى عام ١٣٣٧ فكانت عسير من الممالك العثمانية يحكمها متصرف من طرفهم على حسب ترتيباتهم فى ممالكهم .

ومن عام ١٣٤١ إلى وقتنا الحاضر أصبحت عسير جزءا من المملكة العربية السعودية والحمد لله أولا وآخرا .



المؤلف



مراجع الكتاب

الكتب العربية

١ — نفح العود فى سيرة الشريف حمود — مخطوط

٢ — كتاب البلدان لليعقوبى المتوفى عام ٢٨٧ هـ — طبع العراق

٣ — معجم البلدان لياقوت — » مصر

٤ — » ما ستعجم للبكرى — » »

٥ — صحيح الأخبار فيما جاء ببلاد العرب من الآثار للشيخ محمد بن بلهد — طبع مصر

٦ — سبائك الذهب فى انساب العرب للسويدى — » »

٧ — عنوان المجد فى تاريخ نجد لابن بشر — » »

٨ — تاريخ نجد الحديث للريحانى — طبع بيروت

٩ — ملوك العرب للريحانى — » »

١٠ — تاريخ نجد للآلوسى — طبع بغداد

١١ — » اليمن للشيخ عبد الواسع اليمانى — » مصر

١٢ — جزيرة العرب فى القرن العشرين للشيخ حافظ وهبه — » »

١٣ — قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة — » »

١٤ — فى بلاد عسير » » — » »

١٥ — الرحلة اليمانية للشريف شرف بن عبد المحسن البركاتى — » »

١٦ — عصر محمد على لعبد الرحمن الرافعى — » »

١٧ — صفة جزيرة العرب للهمدانى — » ليدن

١٨ — الأكليل الجزء العاشر » — » مصر

١٩ — مهد العرب للدكتور عبد الوهاب عزام (سلسلة أقرأ) طبع مصر
٢٠ — معجم الأدباء لياقوت » »
٢١ — أمراء البيان لكرد على » »
٢٢ — التحفة النبهانية فى تاريخ البحرين للشيخ محمد خليفه النبهانى » »
٢٣ — القاموس المحيط للفيروز آبادى » »
٢٤ — تقرير البعثة الأمريكية الزراعية عن المملكة العربية السعودية (سنة ١٩٤٣ م) » »
٢٥ — تاريخ العرب لسيديو ترجمة عادل زعيتر » »

الكتب الافرنجية

١ — بالإنجليزية

D. G. HOGARTH : Arabia

H. ST. J. B. PHILBY : Arabiou Higlands

٢ - بالألمانية

B. MORITZ : Arabien

عثرات واخطاء مطبعية

ص	سطر	خطأ	صواب
(ا)		مضطلعا	مضطلعا به
٥	٢٣	ويتربع	يتربع
٩	٢	بضع	بضعة
١٤	٢١	الجهة التى لعامد فهى خالية	الجهة التى لغامد خالية
١٥	١٥	خمسة مراحل	خمس مراحل
١٥	١٩	ناءى	نأى
٢١	٩	عبد الملك	عبد المالك
٢١	٢١	لتصيررف	لتصريف
٢٢	٣	سطحة	سطح
٢٨	١	لأسفل	الأسفل
٣١	٢١	سنيه	سينيه
٣٤	٣	السبه	السبته
٣٤	١٣	تشهير	أشهار
٤٠	٢	الخمسة عشر	الخمس عشرة
٤٨	١٦	فينا	فتيا
٥١	٢١	شنواءة	شنوءه
٥٤	١	بللحمر	بالأحمر
٥٥	٢٠	بالى	بال
٥٦	١	الممتد	الممتدة
٦١	٥	بللحمر	بالأحمر
٦١	٩	وادى	واد
٦٦	١	ويحمل	وتحمل
٦٦	٢٠	الشرو والشرو	الشرو

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٧٥	٩	الحفظه	الحفظيه
٧٦	١٠	ميزر	مئزر
٧٦	١٧	يتزر	يتزرن
٧٧	٧	مخرق	تخرقات
٧٨	٥	وهم كثير	وهن كثيرات
٨١	١١	رؤسهن	رؤوسهن
٨٤	٢٢	ويسيرون	يسيرون
٩٦	٣	وفى	وفى
٩٨	٢	حتى اشجار الشوك فقدامست	حتى أشجار الشوك أمسته
١٠١	٦	الخمسة والثلاثين	الخمس والثلاثين
١٠١	٦	أربعة وعشرين	أربع وعشرين
١٠٦	٣	أربعة وعشرين	أربعا وعشرين
١١٥	١٢	لما لم يألفوا	لما لم يألفوه
١١٦	١١	المنكبسه	المتكسبه
١١٧	٩	ريالين	ريالان
١١٩	٢٠	جلد	جلدا
١٢٠	١٢	والظريق	الطريق
١٢١	٢١	بنو شعيبه	بنو شعبه
١٢٣	١١	بخرطون	يخرطون
١٢٣	١٣	يملؤن	يملأون
١٣٥	١١	عدى	عدا
١٢٧	٧	وأرض	وأراض
١٣٠	٧	صبا	صبيا
١٤٣	٨	طرغام	ضرغام

ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٣٧	٣	وابن عمه	وعمه
١٤٨	١٧	التجائه	والتجائه
١٥٠	٥	مرور الاسى	مروريد الأسى
١٥٥	٢٢	لعروسة	بعروسه
١٥٥	١٠	لأقليم	الأقليم
١٥٩	٢	من التعدينه	المعادن
١٥٩	٢	عدى	عدا
١٨٠	١	جل	جبل

ولا يخلو الكتاب من غير ماذكر فالمرجوا اقالتها

فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣٩	جو أبها ومناخها
٤٠	أودية أبها
٤٤	قبر ذى القرنين
٤٥	مزارع أبها وحدائقها
٤٩	أبها مركز النشاط الحكومى
٥٠	قبائل عسير
٥١	ملاحظة وتعقيب
٥٦	أهل الكهف أو موتى الكهوف
٦١	أبها مركز مواصلات هامة
٦١	فى طريقنا إلى رجال
٦٢	قرية السودا
٦٣	جبل تهلل — روضة ومفاتن
٦٦	وادى العوص
٦٧	قرية الشعبين
٦٩	الوصول إلى رجال
٦٩	قرية رجال
٧٠	بيوت قرية رجال
٧٤	السوق فى قرية رجال
٧٥	سكان رجال
٧٥	تقاليد وعادات
٧٦	ألبسة الرجال والنساء
٨٠	لغة قبائل ألمع ولهجاتهم
٨١	حفلة زفاف

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
١٢٧	بيش أو أم الخشب
١٢٨	النعمة الصغرى والنعمة الكبرى
١٢٩	المساكن والسكان فى أم الخشب
١٢٩	فى الطريق إلى صبيا
١٣١	فى صبيا
١٣٢	حارات صبيا ومساكنها
١٣٤	السوق فى صبيا
١٣٤	اللباس
١٣٥	أهالى صبيا
١٣٥	اللهجة
١٣٦	الطعام وأوانيه
١٣٦	مناخ صبيا
١٣٧	وادى صبيا وقراه
١٣٧	الحاصلات الزراعية
١٣٨	عملية استخلاص القطران النباتى
١٣٩	إمارة الأدارسة ـ نجم يتألق
١٤٥	أفول واضمحلال
١٤٨	الحماية السعودية
١٤٩	الى أبو عريش
١٤٩	بين الغابه والمزارع ـ فتنة وجمال
١٥٠	مدينة أبو عريش
١٥٢	الموز ينبت من قرون البقر

الصحيفة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

ملحوظة : فى نهاية الفهارس خريطة تقريبيه بأسماء القرى والأماكن التى جرى ارتيادها

فهرست أعلام الأشخاص

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(غ)

فهرست أسماء القبائل

ملحوظة : اعتبرنا عسير فى قسم القبائل على الموضع المتعارف بين أهل البلاد

فهرست القرى والبلاد

(ح)

(خ)

(د)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

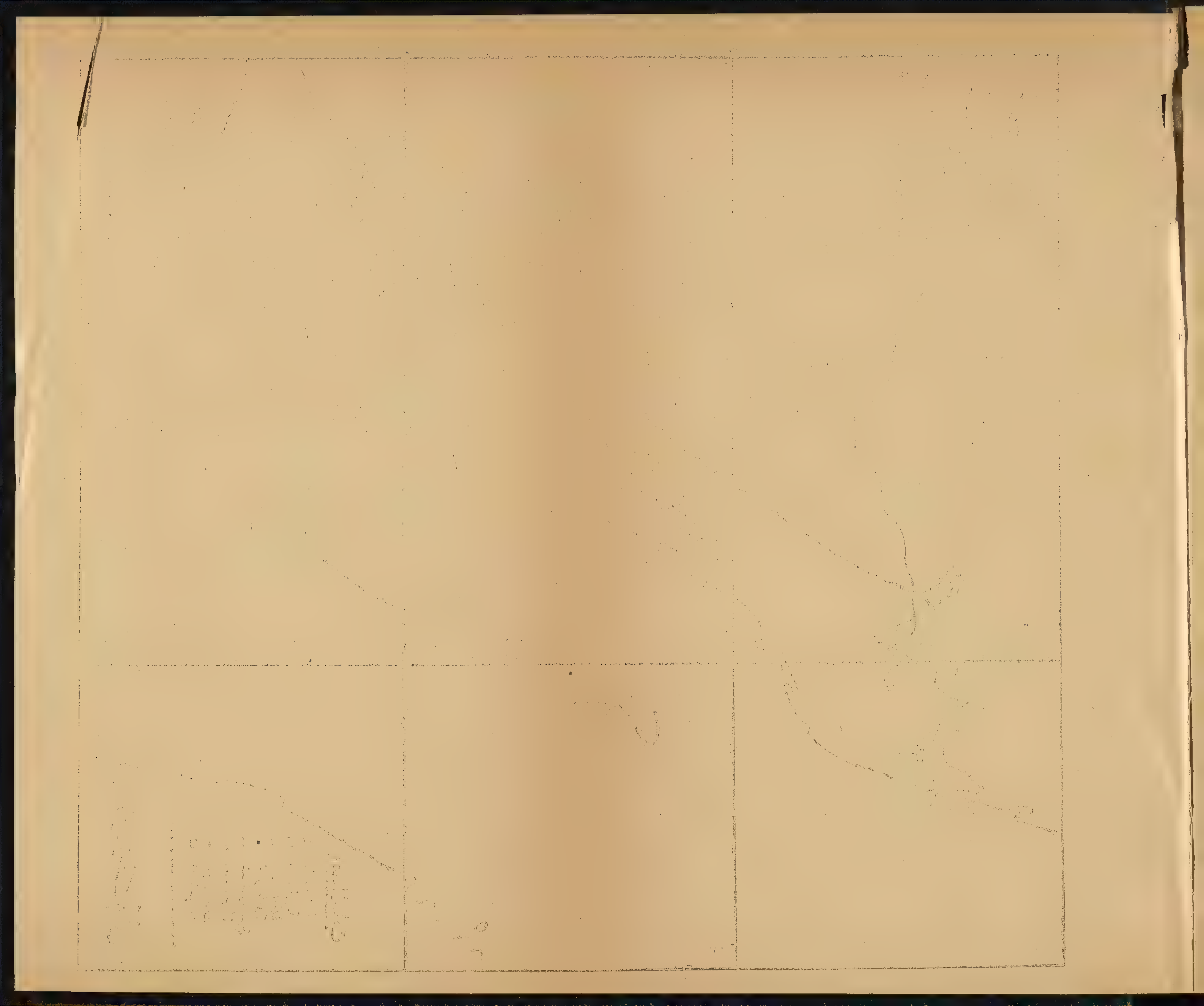
(ه)

(و)

(ى)

فهرس الوديان

فهرســـت الجبال




خريطة تقريبية
لبيان خط السير واسماء القرى والأماكن
التي جرى ارتيادها في أثناء الرحلة
إيضاح
السراة: سلسلة جبال الحجاز بين نجد وتهامه
تهامه: الأراضي المنخفضة المتصلة بسيف البحر
مصطلحات
المدن
القرى الكبيرة
القرى الصغيرة
أماكن مشهورة
خط السير والطريق
الوديان
الجبل المشهور
العقبه
البحر الأحمر
بلاد الحبش
المملكة العربية السعودية
جنوب المملكة
عسير
تهامة
نجد
اليمن
جدة
مكة المكرمة
الطايف
جبل حضن
تربه
القنفذة
جيزان
صبيا
جزاير فرسان

ظهر حديثاً :

من مؤلفات

الأستاذ عبد الله عبد الجبار

الأديب الحجازى المعروف

١ ــ « العم سحتوت » وهى تمثيلية إذاعية عصرية تعالج أطرافا من مشاكلنا الاجتماعية ، وتصور الصراع الرهيب بين عاطفة الخير وبين النفس التى ختم عليها الشح وأودى بها نزعة الظلم الاجتماعى .

وقريبا :

٢ ــ قصة الأدب فى الحجاز

وهو كتاب قيم يصدر فى عدة أجزاء ويصور تاريخ الأدب فى الحجاز منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ويبدأ بتسجيل الفترات الغامضة المجهولة . وقد اعتمد المؤلف على كثير من المخطوطات النادرة بالإضافة إلى المراجع المطبوعة .

٣ ــ مركب النقص وأثره فى الأدب

وهو بحث على طريف يمتاز بالجدة والابتكار

٤ ــ سائق البريد وقصص أخرى

وهى مجموعة قصصية ترتاد آفاقا جديدة فى الأدب الحجازى ... ونحن نلفت أنظار المشتغلين بالأدب وجميع القراء لنتاج الكاتب الحجازى فإن فيه الفن والسحر والفائدة .



